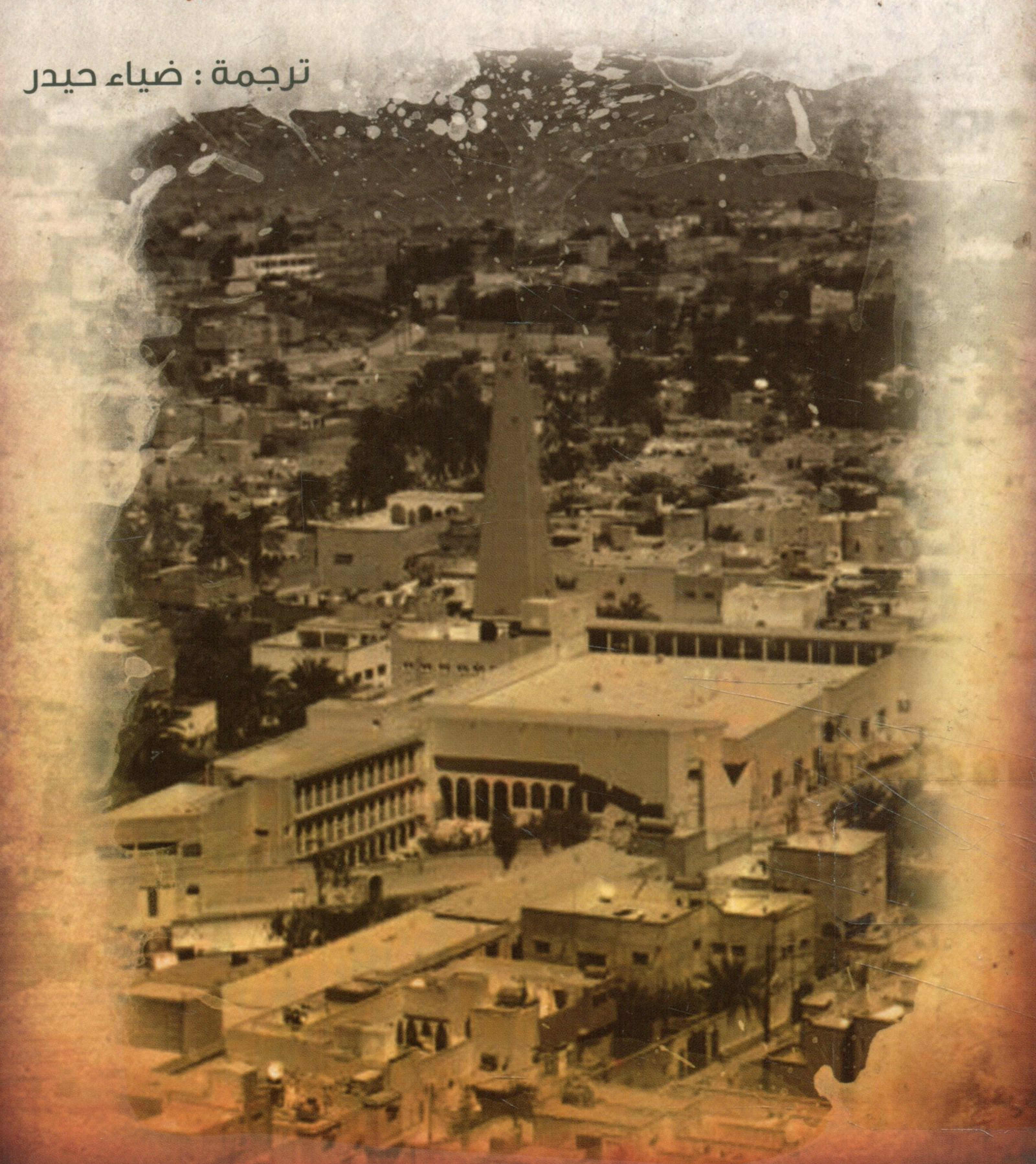
خيول الشمس (ملحمة الجزائر)

كرزات إيفرحونّ

جول روا

الجزء الثالث

ترجمة : ضياء حيدر

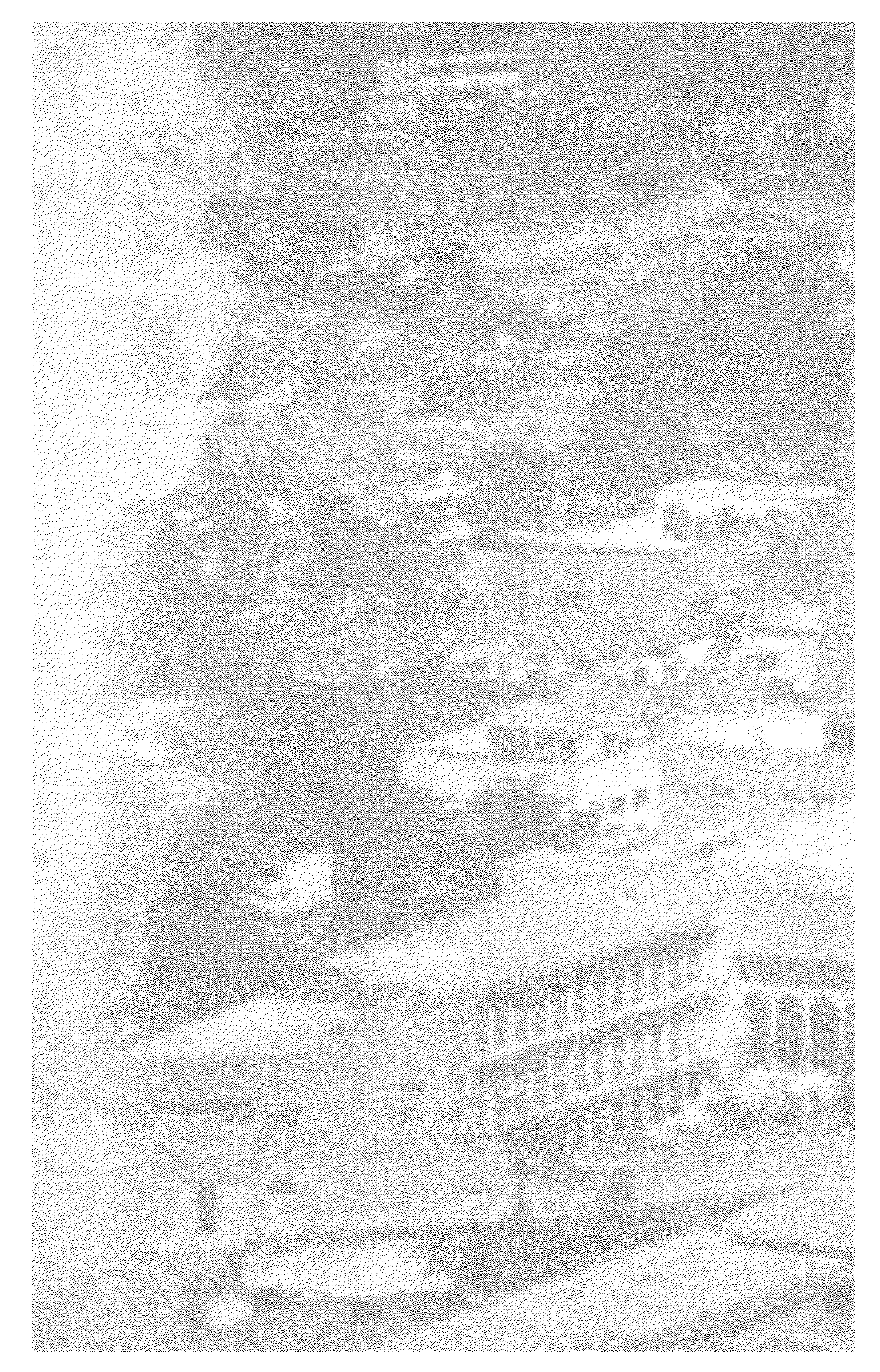


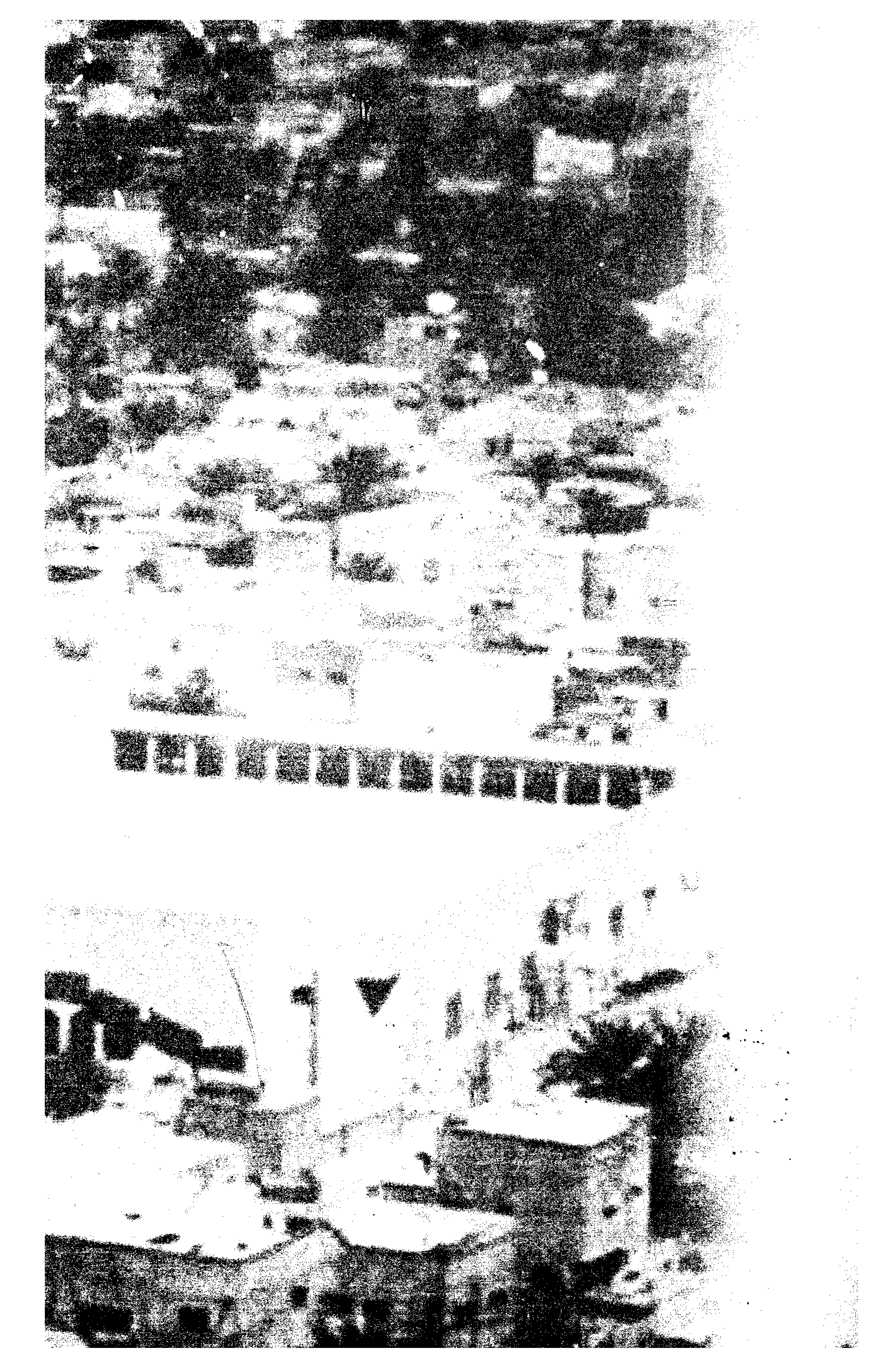
نبذة عن المؤلف:

ولد جول روا في الجزائر 1907 في واحدة من عائلات المستوطنين الفرنسيين، وتابع دروسة الثانوية في المدرسة الإكليريكية، قبل أن يدخل إلى السلك العسكري في جند المشاة ثم الطيران العسكري في فرنسا لينتقل بعدها إلى بريطانيا ويشارك في الجيش الفرنسي للتحرير. في العام 1946 يغادر الجيش الذي اعتبر حربه في شبه الجزيرة الهندوصينية مخزية، ليتحول بالكامل إلى العمل الأدبي. حاز العديد من الجوائز الأدبية. وأصدر إلى أعماله الروائية والقصصية التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين عملاً، أعمالاً مسرحية وشعرية. سنين حياته العشرين الأخيرة أمضاها متفرغاً للكتابة في فيزاليه، شمال شرق فرنسا وتوفي فيها 15 يونيو 2000.

من أعماله الروائية: "خيول الشمس"، 1968 - 1972، "صحراء ريتز"، 1978، "موسم زا"، غراسيه، 1982.

ومن أعماله القصصية: "سماء وأرض"، 1943، "الوادي السعيد"، 1948، "البحار"، 1954، "الخائنة"، 1955، "الحروب الصليبية الجميلة"، 1959، "حرب الجزائر"، 1960، "معركة ديان بيان فو"، 1963، "رحلة إلى الصين"، 1965، "موت ماو"، 1969، "رقص شرقي على وقع المدافع"، 1976، "بيروت يحيا الموت"، 1984، "حب ما بعد الحرب"، 1995.





خيول الشمس «ملحمة الجزائر»

الجزء الثالث

كرزات إيفرحونن

تأليف: جول روا

ترجمة: ضياء حيدر

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

ملحمة الجزائر: (خيول الشمس). الجزء 3، كرزات إيفرحونن
جول روا

PQ2635.O9654 C412 2011
Roy, Jules, 1907-2000
[Cerises d'Icherridène]
ملحمة الجزائر: (خيول الشمس). الجزء 3، كرزات إيفرحونن / جول روا : ترجمة ضياء حيدر.-
ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
282 ص. ؛ 20x13 سم.
ترجمة كتاب : Les Cerises d'Icherridène
تدمك: 978-9948-01-856-8
1. القصص الفرنسية أ. حيدر، ضياء. ب. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jules Roy
Les chevaux du soleil



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

كرزات إيفرحونن

إهداء

إلى زوجتي تاتيانا التي شاركتني أمل كل يوم وخيبته، على امتداد السنوات العشر التي استغرقها هذا الكتاب.

وإلى كل من ألهمني.

إلى الشخصيات الكبيرة التي جرفتها رياح التاريخ، من البارون دوبريه إلى الجنرال دو بورمون حتى ديغول، وأيضاً إلى أبناء ذاكرتي ومخيلتي، من الجد الأول مارجول إلى كل رجال دو رواي، من الكولونيل غربيه إلى أستاذ روفيغو الذي هو أبي.

إلى كل النساء اللواتي لهن اسم نجمة وقلباً من الماس، وكل اللواتي لا يهزمن، إلى ذاكرة أمي في ثورتها ثم في خضوعها، إلى دموع إليز.

إلى كل أهلي الذين دمرهم حبهم لأرض احتضنتهم، لمن اعتقدوا أنهم ماتوا عبثاً، كما لكل من سقطوا من أجل كرامتهم ومعتقداتهم، إلى أخي الذي أنهى حياته بالقرب من بيربينيان بهاجس أن تفوته اللحظة التي عليه أن يذهب فيها إلى عمله في محطة القطارات الجزائرية الرسمية.

إلى كل من حارب من أجل الحق، إلى أبناء البقّالين من القبائل وعمال المزارع الذين شاركوا في الثورة، إلى من ذبحوا وقتلوا وعذبوا، إلى كل من لم يجدوا أيّ عزاء بعد خسارتهم الجنة... وإلى من استعادوا كرامتهم بالألم والعنف.

أهدي عملي هذا.

جول روا

المحتويات

مقدمة المترجمة

غالباً ما يجري تناول البعد السياسي والاقتصادي أو حتى الثقافي للاستعمار، لكن قلما يجري تناول البعد الاجتماعي والآثار العميقة التي يحدثها الاستعمار - لا سيما ذلك الذي يستمر لأجيال مديدة كحال الاستعمار الفرنسي للجزائر - في حياة المجموعات والأفراد على حدّ سواء. وقد حقّت تسمية هذه الرواية بالملحمة، لا لامتداد أحداثها إلى زهاء مئة وثلاثين عاماً فحسب، بل بصورة أساسية لأنها تصحبنا في رحلة إلى تلك التحولات الاجتماعية التي ضربت جذورها عميقاً ليس في حياة المستَعمَرين ووعيهم فحسب، بل أيضاً في حياة المستعمِرين ووعيهم، أو كما يصف الكاتب نفسه ذلك:

«حملة العام 1830، ذلك الغزو الدموي الذي استمر مصهراً للاختبارات، صراع السلطة، التنافس السياسي، الطروحات الكولونيالية ونقيضاتها، الأوهام، ظهور الأفكار الجديدة، صراع الديانات، المسافة مع الوطن الأم، كل هذا يبدو لي حلقة هائلة. حرب 1870 مع ألمانيا، الحرب العالمية الثانية، الصراعات الكولونيالية في مكان آخر، صراع الأمم، مشاكل التوطين، الحنين، الممانعات العنيفة للاستيعاب المستحيل أو التساكن، الميول الانفصالية، العنصرية، الكوارث الطبيعية، كما تمجيد الأحلام الإمبراطورية، كل ذلك كان يزمجر كأنما في قفص للأسود. بالنسبة للعائلات التي كانت مركز اهتمامي الأول، والتي أتت من كل أوروبا وخاصة من البحر المتوسط، فقد تصادمت في طموحاتها وشهرتها، بارتباطها أو ابتعادها عن الآخرين، وشكلت العناصر التي تحركت من

خلالها عائلتي الخاصة ذات الأصول المتواضعة، ضمن شبكة مذهلة من العلاقات العاطفية والأحقاد والنكبات والانتصارات وكل ما يشكل حياة البشر لشعب كامل على امتداد الزمن. ثم يأتي المواليد الجدد، ويطرح الموت الذي يخطف شخصيات تعلقنا بها سؤال الوراثة. تغيب شخصية واحدة ويكون علينا إعادة توليدها بشكل آخر، في جيل آخر، لضمان استمرارية الحدث وتواصله مع الورثة في الدم وفي الروح. وعندما لا يكون هناك وريث مباشر، نخلق لاحقاً بعد عدة سنوات، براعم من غصن قريب».

هي رحلة مأساوية إذن نتعرف من خلالها على مصائر أجيال ممتدة، تكاد تكون حياتها صورة عن ذلك العنف الذي عصف بأرض الجزائر؛ ونقف وجهاً لوجه في الأثناء على الدعاوى الزائفة التي انطلق منها الاستعمار واستمرّ قائماً عليها، ولا سيما دعوى «تحرير الشعب الجزائري» من محتلّ آخر أو من حاكم جائر؛ كما نتعرف في ثنايا الرواية وتحولاتها وأحداثها على تلك الظاهرة التي يبدو أن لا مفرّ منها، وهي ولع المستعمرين أو المستوطنين بالأرض التي استوطنوها، حتى يستحيل ما بدأ كذبة أو خدعة إلى واقع سرعان ما يتشظى أمام واقع آخر، وولع آخر، هو ولع سكان الأرض الأصليين – مثلما اعتاد الفرنسيون أن يسمّوا الجزائريين – بأرضهم.

عندما بدأ جول روا كتابة «خيول الشمس» في العام 1966، لم يكن قد مضى على تحرير الجزائر سوى أربع سنوات، وهو ما دفعه كما يقول في مقدمة طبعة العام 1995 من الرواية إلى التردد، «لأنني لم أكن أملك الثقة بالنفس»، بيد أنه تجرّأ أخيراً على خوض المغامرة، لتأتي روايته هذه ليس

فقط من وحي زمنٍ معاش وإنما أيضاً من وحي تجربة عميقة للكاتب نفسه، الذي عاش التجربة الفرنسية في الجزائر بكل أوجهها، حتى تكاد تكون الرواية في أحد مستوياتها، سيرة ذاتية، بنيت على سيرة عائلتين، واحدة منهما هي عائلة الكاتب نفسه، على امتداد أكثر من قرنٍ من الزمن، منذ تاريخ الغزو في 1830 وحتى استقلال الجزائر في 1962، ولتغدو بذلك العمل الملحمي الأهم الذي تمكن من أن يغطي بالكامل مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وذلك من خلال رصد أعقد تفاصيل الحياة اليومية وأبسطها على خلفية أحداث وشخصيات حقيقية، وغيرها متخيلة غير أنها مستقاة بدورها من شخصيات عرفها الكاتب وعايشها عن كثب.

والأهم أنه حتى التفاصيل اليومية متأتية من التجربة الشخصية للكاتب الذي هو نفسه «هكتور كونيغ» في الرواية، الذي ولد مثل «هكتور» في روفيغو (وهي التسمية الفرنسية لمدينة بوقرة خلال احتلال الجزائر) نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه المتزوجة من شرطي، واسمها الحقيقي «ماتيلد» كما في الرواية، وأستاذ مدرسي هو أيضاً «ديماتون»، وهو والده الحقيقي. كما انه عاش في الحقيقة تجربة المدرسة الإكليريكية التي غادرها لينتقل إلى الجيش ويعيش تجربة الحرب الفرنسية في الجزيرة الهندوصينية في إطار سلاح الجو، وهي التي ولدت لديه تحولاً كبيراً، ليصبح واحداً من كبار المنتقدين لهذه الحرب وللحرب في الجزائر، ومن المؤيدين لحق الجزائريين في الدفاع عن أرضهم. وهذا ما أعطى هذه الملحمة التي كتبها على امتداد عشر سنوات القدرة على أن ترسم بموضوعية كاملة تجربة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

بيد أن هذه الملحمة بنيت أيضاً على جهدٍ توثيقي هائل يمنح الرواية

ثقلها التاريخي الضروري الذي يجعلها تأريخ حياتي حقيقي للتجربة الفرنسية في الجزائر. والجدير ذكره أن الرواية وضعت في البداية في ستة أجزاء منفصلة صدرت بالتوالي منذ العام 1968 وحتى العام 1972، ثم قام الكاتب بتلخيصها لتقدم عملاً تلفزيونياً عرضه التلفزيون الفرنسي في 1980 في اثنتي عشرة حلقة. ليعود ويجمع في 1995 الأجزاء الستة في مجلد واحد أسماه ملحمة الجزائر.

لم تكن ترجمة هذه الرواية بالعمل البسيط، ومثل الكاتب نفسه عندما بدأ بكتابة ملحمته، فإنني لم أكن واثقة من مقدرتي على خوض غمار مثل هذه المغامرة، خاصة وأن ترجمة مثل هذا العمل لابدّ من أن تقودنا إلى التاريخ بتشابكاته وتعقيداته، وأيضاً إلى الجغرافيا الجزائرية المعقدة، حيث يصعب في كثير من الأحيان العثور على اسم قرية أو شارع أو الوقوف على كافة تفاصيل واقعة تاريخية معينة، قد تمرّ في السرد بصورة ثانوية، غير أنها قد تكون عائقاً أمام الإحاطة بأحداث أكبر وأهم تأتي لاحقاً. هذا ناهيك عن التحدي الذي فرضه أسلوب الكاتب نفسه. ذلك الأسلوب المتسم بالتنقل بين عدة مستويات سردية، تبدأ وصفية مجردة أحياناً لتغوص الشخصية فجأة في رحلة من التداعيات المنفصلة عن السرد الواقعي للأحداث أو لمحادثة ما... غير أن هذا الأسلوب على تعقيده هو ما يمنح ذلك العمق الحقيقي للرواية، وكأنها النسخة المخبأة لها أو للواقع الذي تسرده، وهو وإن كبد المترجم، والقارئ بطبيعة الحال، بعض العناء، إلا أنه يمنحه شعوراً بـ «الأمانة التاريخية».

ضياء حيدر

«وأنتَ يا اَبنَ البشَرِ
تنبَّأْ واَضرِبْ كفًا على كفٍّ.
دَعِ السَّيفَ يهوي مرَّتَينِ،
دَعْهُ يهوي ثلاثَ مرَّاتٍ.
هوَ سَيفٌ فتَّاكٌ،
سَيفُ المقتَلةِ العُظمى،
فتذوبُ القلوبُ هلَعًا
ويتكاثرُ القتلى على الأبوابِ،
سَيفي سَيفٌ برَّاقٌ.
برَّاقٌ مَصقولٌ للذَّبحِ.
إضرِبْ يا سَيفُ يمينًا ويَسارًا!
إضرِبْ كيفما اَتَّجهتَ!
وأنا سأَضرِبُ كفًا على كفٍّ وأشفي غَيظي.
أنا الرّبُّ تكلَّمتُ»

وقالَ لِيَ الرّبُّ: «وأنتَ يا اَبنَ البشَرِ إجعَلْ لكَ طريقَينِ لمجيءِ سَيفِ ملِكِ بابلَ. ليخرُج الطَّريقانِ مِنْ نُقطةٍ واحدةٍ، وضَعْ إشارةَ سَيرٍ في رأسِ طريقِ المدينةِ، وارسُمْ طريقًا لِمجيءِ السَّيفِ إلى ربَّةَ، مدينةِ بَني عَمُّونَ، وإلى يَهوذا وأُورُشليمَ الحصينةِ. فملِكُ بابلَ سيقفُ عِندَ مُفتَرقِ الطَّريقَينِ ليستدِلَ بالعرافةِ على طريقٍ يَسلُكه. فيَهزُّ السِّهامَ ويستشيرُ الأصنامَ وينظرُ في كَبدِ الذَّبيحةِ...»

الكتاب المقدّس، حزقيال، الإصحاح 21، 14 – 20

مرحى بالحرب! التي يقف الإنسان الخارج للتو من الطين الذي صنع منه، في جلالتها وعنفوانها. ففوق جثة عدو مقتول، يصنع حلمه الأول بالنصر والأبدية.

ب.ج. برودون[1]، الحرب والسلام

(1) بيير جوزيف برودون، Pierre Joseph Broudhon منظر اشتراكي فرنسي، عرف تقارباً من كارل ماركس ليعود ويصطدم معه، نشر «فلسفة البؤس» فرد عليه ماركس بـ «بؤس الفلسفة».. ولد في مدينة بيزانسون من أسرة فقيرة، وأجبرته ظرفه على التخلي عن دراسته الجامعية في سن التاسعة عشرة، على الرغم من تفوقه، ليعمل في الطباعة. ليؤسس بعدها مع اثنين من أصدقائه مطبعة وينشر كتابه الأول «دراسة في القواعد العامة». وكان أول من وصف بالفوضوي، وهو صاحب المصطلح الشهير «الملكية هي السرقة».بيير جوزيف برودون Pierre Joseph Proudhon منظّر اشتراكي فرنسي ولد في مدينة بيزانسون بفرنسة في أسرة فقيرة، وقد استطاع في دراسته الأولية أن يحقق تفوقاً ملحوظاً، واضطرته الصعوبات المالية وهو في التاسعة عشرة من عمره إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، وصار عاملاً في الطباعة. وقد أتاحت له هذه المهنة مجالاً واسعاً لتثقيف نفسه واكتساب اطّلاع واسع. قام بين سنتي 1829 و1834م بجولة في فرنسة، وأسس مع اثنين من أصدقائه مطبعة، ونشر كتاباً عام 1837م «دراسة في القواعد العامة» استحق عليه منحة من أكاديمية بيزانسون أتاحت له استكمال دراسته الجامعية في باريس. ودخل النشاط السياسي عام 1840م بمذكرته «ما الملكية؟» التي لم تسترعِ الانتباه في البداية مع تأكيده أن «الملكية هي السرقة»، وهي عبارة استخدمها بريسودي وأرفيل قبله بستين عاماً. ولم يكن برودون في أعماقه شيوعياً، بل كان يكتفي بأن يحل محل الملكية نوع من الحيازة المؤقتة، وقد أتبع مذكرته تلك مذكرة أخرى «إنذار إلى المالكين» أثارت اهتمام القضاء الذي لاحق برودون من دون أن يتوصل إلى إصدار حكم عليه (1842م).بيير جوزيف برودون Pierre Joseph Proudhon منظّر اشتراكي فرنسي ولد في مدينة بيزانسون بفرنسة في أسرة فقيرة، وقد استطاع في دراسته الأولية أن يحقق تفوقاً ملحوظاً، واضطرته الصعوبات المالية وهو في التاسعة عشرة من عمره إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، وصار عاملاً في الطباعة. وقد أتاحت له هذه المهنة مجالاً واسعاً لتثقيف نفسه واكتساب اطّلاع واسع. قام بين سنتي 1829 و1834م بجولة في فرنسة، وأسس مع اثنين من أصدقائه مطبعة، ونشر كتاباً عام 1837م «دراسة في القواعد العامة» استحق عليه منحة من أكاديمية بيزانسون أتاحت له استكمال دراسته الجامعية في باريس. ودخل النشاط السياسي عام 1840م بمذكرته «ما الملكية؟» التي لم تسترعِ الانتباه في البداية مع تأكيده أن «الملكية هي السرقة»، =

= وهي عبارة استخدمها بريسودي وأرفيل قبله بستين عاماً. ولم يكن برودون في أعماقه شيوعياً، بل كان يكتفي بأن يحل محل الملكية نوع من الحيازة المؤقتة، وقد أتبع مذكرته تلك مذكرة أخرى «إنذار إلى المالكين» أثارت اهتمام القضاء الذي لاحق برودون من دون أن يتوصل إلى إصدار حكم عليه (1842م). بيير جوزيف برودون Pierre Joseph Proudhon منظّر اشتراكي فرنسي ولد في مدينة بيزانسون بفرنسة في أسرة فقيرة، وقد استطاع في دراسته الأولية أن يحقق تفوقاً ملحوظاً، واضطرته الصعوبات المالية وهو في التاسعة عشرة من عمره إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، وصار عاملاً في الطباعة. وقد أتاحت له هذه المهنة مجالاً واسعاً لتثقيف نفسه واكتساب اطّلاع واسع. قام بين سنتي 1829 و1834م بجولة في فرنسة، وأسس مع اثنين من أصدقائه مطبعة، ونشر كتاباً عام 1837م «دراسة في القواعد العامة» استحق عليه منحة من أكاديمية بيزانسون أتاحت له استكمال دراسته الجامعية في باريس. ودخل النشاط السياسي عام 1840م بمذكرته «ما الملكية؟» التي لم تسترع الانتباه في البداية مع تأكيده أن «الملكية هي السرقة»، وهي عبارة استخدمها بريسودي وأرفيل قبله بستين عاماً. ولم يكن برودون في أعماقه شيوعياً، بل كان يكتفي بأن يحل محل الملكية نوع من الحيازة المؤقتة، وقد أتبع مذكرته تلك مذكرة أخرى «إنذار إلى المالكين» أثارت اهتمام القضاء الذي لاحق برودون من دون أن يتوصل إلى إصدار حكم عليه (1842م). بيير جوزيف برودون Pierre Joseph Proudhon منظّر اشتراكي فرنسي ولد في مدينة بيزانسون بفرنسة في أسرة فقيرة، وقد استطاع في دراسته الأولية أن يحقق تفوقاً ملحوظاً، واضطرته الصعوبات المالية وهو في التاسعة عشرة من عمره إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، وصار عاملاً في الطباعة. وقد أتاحت له هذه المهنة مجالاً واسعاً لتثقيف نفسه واكتساب اطّلاع واسع. قام بين سنتي 1829 و1834م بجولة في فرنسة، وأسس مع اثنين من أصدقائه مطبعة، ونشر كتاباً عام 1837م «دراسة في القواعد العامة» استحق عليه منحة من أكاديمية بيزانسون أتاحت له استكمال دراسته الجامعية في باريس. ودخل النشاط السياسي عام 1840م بمذكرته «ما الملكية؟» التي لم تسترع الانتباه في البداية مع تأكيده أن «الملكية هي السرقة»، وهي عبارة استخدمها بريسودي وأرفيل قبله بستين عاماً. ولم يكن برودون في أعماقه شيوعياً، بل كان يكتفي بأن يحل محل الملكية نوع من الحيازة المؤقتة، وقد أتبع مذكرته تلك مذكرة أخرى «إنذار إلى المالكين» أثارت اهتمام القضاء الذي لاحق برودون من دون أن يتوصل إلى إصدار حكم عليه (1842م). بيير جوزيف برودون Pierre Joseph Proudhon منظّر اشتراكي فرنسي ولد في مدينة بيزانسون بفرنسة في أسرة فقيرة، وقد استطاع في دراسته الأولية أن يحقق تفوقاً ملحوظاً، واضطرته الصعوبات المالية وهو في التاسعة عشرة من عمره إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، وصار عاملاً في الطباعة. وقد أتاحت له هذه المهنة =

= مجالاً واسعاً لتثقيف نفسه واكتساب اطّلاع واسع. قام بين سنتي 1829 و1834م بجولة في فرنسة، وأسس مع اثنين من أصدقائه مطبعة، ونشر كتاباً عام 1837م «دراسة في القواعد العامة» استحق عليه منحة من أكاديمية بيزانسون أتاحت له استكمال دراسته الجامعية في باريس. ودخل النشاط السياسي عام 1840م بمذكرته «ما الملكية؟» التي لم تسترعِ الانتباه في البداية مع تأكيده أن «الملكية هي السرقة»، وهي عبارة استخدمها بريسودي وأرفيل قبله بستين عاماً. ولم يكن برودون في أعماقه شيوعياً، بل كان يكتفي بأن يحل محل الملكية نوع من الحيازة المؤقتة، وقد أتبع مذكرته تلك مذكرة أخرى «إنذار إلى المالكين» أثارت اهتمام القضاء الذي لاحق برودون من دون أن يتوصل إلى إصدار حكم عليه (1842م).

بيير جوزيف برودون Pierre Joseph Proudhon منظّر اشتراكي فرنسي ولد في مدينة بيزانسون بفرنسة في أسرة فقيرة، وقد استطاع في دراسته الأولية أن يحقق تفوقاً ملحوظاً، واضطرته الصعوبات المالية وهو في التاسعة عشرة من عمره إلى التخلي عن الدراسة الجامعية، وصار عاملاً في الطباعة. وقد أتاحت له هذه المهنة مجالاً واسعاً لتثقيف نفسه واكتساب اطّلاع واسع. قام بين سنتي 1829 و1834م بجولة في فرنسة، وأسس مع اثنين من أصدقائه مطبعة، ونشر كتاباً عام 1837م «دراسة في القواعد العامة» استحق عليه منحة من أكاديمية بيزانسون أتاحت له استكمال دراسته الجامعية في باريس. ودخل النشاط السياسي عام 1840م بمذكرته «ما الملكية؟» التي لم تسترعِ الانتباه في البداية مع تأكيده أن «الملكية هي السرقة»، وهي عبارة استخدمها بريسودي وأرفيل قبله بستين عاماً. ولم يكن برودون في أعماقه شيوعياً، بل كان يكتفي بأن يحل محل الملكية نوع من الحيازة المؤقتة، وقد أتبع مذكرته تلك مذكرة أخرى «إنذار إلى المالكين» أثارت اهتمام القضاء الذي لاحق برودون من دون أن يتوصل إلى إصدار حكم عليه (1842م).

الجزء الأول

ليل باخ

ما تعني لنا يا قلبي برك الدم والجمر،
وألف مقتلة والصّرخات المسعورة الطّوال
هذه الحسرات الآتية من كلّ جحيم لتطوّح
بكلّ نظام...
الكلّ للحرب، للانتقام وللإرهاب
يا فكري! دعنا ندور في قلب العضّة: آه إليك عنا
يا جمهوريات هذا العالم! أباطرة!
كتائب، مستعمرون، وشعوب، كفانا من هذا كله![1]

أرثور رامبو

الفصل الأول

24 يونيو 1871، يلتقي القارئ ثانية هيكتور غربييه في قلب معركة القبائل، عشية الهجوم على قرية إيفرحونن. وعلى وقع قرع الطبول تتم محاصرة القرية.

---

(1) هذه الترجمة هي للمترجم والشاعر العراقي كاظم جهاد، آرتور رامبو: الآثار الشعرية، دار الجمل، 2007.

1

في عدسة المنظار المكبر، لم يرَ النقيب غريبه سوى حشد من البناطيل الحمر تزحف عبر الأدغال والصخور المتبلّرة[1]، والتماعات حراب وسيوف، يعلوها الضباب ودخان القذائف. يقال إن هناك سبعة آلاف كروميريّ[2] يدافعون عن إيفرحونن، وإنهم جروا إلى المكان مدفعاً قديماً يعود إلى زمن ما قبل الاحتلال، ولم يُستعمل بعد، وإنهم يؤثرون الموت على الاستسلام، فحشدوا قواهم، وأتاحوا شرف الشهادة لمجموعة من الشبيبة المسبلين[3]، المخلصين المضحين، المتطوعين الذين تركوا في النهاية على الطريق، مثل أولئك الذين أُلقي بهم عن أسوار الحصن الوطني[4]؛

(1) Schistes : أو الصخور المتحولة، التي تنشأ من الصخور النارية أو الصخور الرسوبية التي كانت موجودة من قبل تحت تأثير الحرارة والضغط والمحاليل الكيميائية النشطة.

(2) نسبة لمنطقة كروميري الجبلية التي تمتد بين الجزائر وتونس.

(3) المسبلون هي التسمية التي أعطيت للمقاومين من الشعب الذين عملوا سراً ضد الاستعمار الفرنسي «مسبلين أرواحهم في سبيل الله». وكانت بداية تشكلهم مع قيام جيش التحرير الوطني العام 1954، إذ تشكل جيش التحرير في هذه مرحلة عمله الأولى من الأفواج الأولى من المسبلين والفدائيين والأشخاص الملاحقين من قبل السلطات الاستعمارية.

(4) Fort National أي الحصن الوطني وهي مدينة محصنة بناها الفرنسيون على أنقاض بلدة ايفرحونن في العام 1858 وسموها بحصن نابوليون تيمناً بنابوليون الثالث لا الأول (وهي غير حصن الامبراطور الذي هاجمه الفرنسيون في بداية الحملة العام 1830)، بعد المعركة التي انتصروا فيها أخيراً على منطقة القبائل، والتي كانت آخر المناطق التي سقطت في يد الفرنسيين في الجزائر منذ الاحتلال في العام 1830 (وذلك بعد أن فشل الفرنسيون فشلاً كبيراً في حملتهم الواسعة العام 1954 على المنطقة، ليعودوا وبعد انتهاء حرب القرم العام 1857 باسطول حربي من خمس وثلاثين ألف ليواجهوا ما مجموعه ثلاثة آلاف «بندقية»، وليربحوا بالطبع ولكن بعد معارك قاسية) وقد جرى تبديل الاسم لاحقاً إلى الحصن الوطني بعد سقوط النظام الامبراطوري في فرنسا وإعلان الجمهورية العام 1870، وبعد الاستقلال استعادت المنطقة تسميتها «الأربعاء نايث إيراثن»، وهي منطقة تابعة لولاية تيزي وزو القبلية في الجزائر. أما ما يتحدث عنه الكاتب هنا، هو الثورة التي قام =

أولئك الذين كان ينبغي قتلهم، واحداً تلو الآخر، الذين لا يفتحون أفواههم سوى ليعضوا كالكلاب المسعورة.

من بعيد، أمكنت رؤية المدافعين بفرقهم وشاراتهم العسكرية المتسلسلة، وهم يتراجعون مفسحين في المجال لسواهم لتلقيم بنادقهم الطويلة. ويبدو أنهم طرحوا بعد مرور آخر الفرق براذع[1] البغال، وذلك لقطع الطريق على أي انسحاب نحو القرية. فعندما تكون من رجال القبائل وتقسم على عدم الفرار من أرض المعركة، لا يمكنك اجتياز خط البرادع دون أن يجلّلك العار. فمن الأفضل لك أن تموت بشرف على أن يتجاهلك الرجال أو أن تشيح النسوة بأنظارهن عنك، أو أن يبصقن لدى مرورك بهن. براذع البغال، من كان ليتخيّل ذلك في الجيش الفرنسي؟ في 1870، لم يفكر بها أحد ليمنع الجنود الفرنسيين من التراجع أمام البروسيين[2].

لقد خططوا لكلّ شيء، توقيت التراجع، إطلاق النيران، الهجوم، الإمدادات، إيصال التعليمات، النقّالات والإسعافات، حركة الجياد، مراكز القيادة، أهداف المشاة، المسافات، الإحداثيات... جرى تحليل الميدان وجمع المؤن وحساب أرطال العلف، واختيار بزّات المحاربين، وتحديد أوزان الحقائب، وعدد قطع البسكويت[3] في الأجربة، والخراطيش

= بها الشيخ محمد المقراني الذي كان معيناً باش آغا، والتي بدأت في 16 مارس 1871 بزخم كبير في منطقة القبائل ولكن وبسبب صراعات داخل فروع المقاومة واستسلام أحد الجناحَين فيها، ضعفت جماعة المقراني وانتهى الامر بقتل المقراني في مايو 1871 من قبل أحد العملاء ومن ثم هزيمة المنتفضين.

(1) براذع جمعها بردعة وهي السرج الذي يوضع على ظهر البغل للتحميل.

(2) الإشارة هنا إلى حرب 1870 بين بروسيا وفرنسا والتي هزمت فيها فرنسا وأذلت عبر اعتقال الإمبراطور نابليون الثالث. وهذه الحرب هي التي يختم بها الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(3) البسكويت وهو طعام معروف ومشترك لدى معظم الجيوش لا سيما في الحصص =

في الأطواق، القميص التحتاني الذي يجب ارتداؤه، كيفية لف الطوق حول الملابس الداخلية، إيقاع المشي، مدد الاستراحة، الشارات الموسيقية العسكرية؛ وأبسط التدابير، نقل الأطعمة في العربات، تقدّم الوحدات وفقاً لأقدمية القادة، ارتداء الكتافيات والنياشين، طريقة عقد أشرطة الأحذية، وتزرير الطمق[1]، ولكن لم يأخذ أحد في الحسبان وسيلة بدائية كهذه للحيلولة دون الانسحاب: برادع البغال. أخذ غرييه يكلّم نفسه وهو يستكشف الميدان أمامه بغية وضع حدود تحرك فرق الطليعة، عندما لمع اسم مارغريت في رأسه.

زوجته، في وقتٍ كهذا! تذكر حينها أنه عندما أيقظته الأوامر – إذ لم يقرعوا جرس نوبة الصباح، حتى لا يثيروا انتباه العدو – أفاق، تحت خيمته في سريره الضيق القاسي كنعش، يراوده شعور غريب من حلم عاطفي مبتور. أتراها كانت مارغريت في الحلم، بعد عشر سنين من الزواج؟ يتذكر أنها لم تكن مارغريت، ولا امرأة من المشتى[2]، ولا امرأة أخرى من أيام شبابه، عندما كان معاوناً للجنرال دو رواي. كانت امرأة مجهولة، أمسكت يده برقة وأخذت تطوف به في طرقات الجزائر، ثم دفعت به إلى منزل ثم إلى حجرة، فتحت له ذراعيها وذابت فيه. بقي ملتصقاً بها طوال الليل، دون حراك، ضائعاً مكسوراً، متجمّداً كجثة، طافياً على سطح بحر لازوردي، تحت سماء لازوردية، مع أكاليل من النجوم الحمر... فهو

= الغذائية المخصصة لأوقات الحروب، وتتفاوت نوعيته ومكوناته حسب الدول، ولكنه عادة يكون قاسياً وبديلاً عن الخبز لا سيما في الجيوش الأوروبية والأمريكية، ويدرج اسمه بين الجيوش العربية بـ «خشبكسو» نظراً لقساوته.

(1) جمع طماق، أي لفافة الساق.

(2) Mechta هي التسمية التي استعملها الكاتب والمطابقة للفظ العربي، والمشتى وهي التسمية المعتمدة في تونس والجزائر للقرى الصغيرة المؤلفة من البيوت والأكواخ الفقيرة.

معروف بين الزواويين[1]، وعلى الرغم من صيته مبارزاً وهوصاراً[2] ضالاً وسط وحدة نظامية، بأنه رجل الضوء والسحر، تسكن روحه الظلال.

أفاق دفعة واحدة ووقف منتصباً، وقفز عبر الصخور، ثم التفت رافعاً ذراعه:

«هلا أتيت، كريجيه؟».

اندفع نحو المنحدر وتسلق أسفله ثم توقف ليختار الوجهة الأفضل. تعثر الملازم أول وهو يحاول اللحاق به.

في المعارك، لا يمكن استدراك الوقت الضائع، ولا التقدم بشكل أسرع من دون ضمان سلامة الكتيبة. يمكن للكولونيل أن يصبر، ولكن لو دفع أولئك المتوحشون بفرقة ولم يكن غريبه مستعداً لها، فكيف سيتمكن من احتوائها؟ ها؟

– والقُصَيري، أين سأجده؟ هل يتبعنا؟

– أجل، سيدي النقيب.

وجد الملازم أول نفسه مضطراً إلى الصراخ لأنهما ما عادا قادرين على سماع واحدهما الآخر وسط صخب إطلاق النار، أربعة عشر مدفعاً وأربع قاذفات مدفعية بأصواتها المخنوقة، تقصف قمة الهضبة، وتنهمر

(1) يطلق أسم «الزواف «أو «الزواويون» على القوات التي يتم تجنيدها محلياً للقتال مع العدو ضد مواطنيها. وتعود التسمية إلى قبيلة «زواوا» البربرية الجزائرية التي كانت تمد القوات العثمانية بالجنود. وعندما أستولت القوات الفرنسية على الجزائر أسس المارشال «بورمون» Bourmont عام 1830 تشكيلات عسكرية من أفراد هذه القبيلة. وقد حاربت هذه التشكيلات مع القوات الفرنسية داخل وخارج الجزائر في معظم الحروب التي خاضتها فرنسا. و«زواف لويزيانا» هي قوات جنوبية حاربت مع الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية. والزواف البابوية هي قوات أيطالية حاربت تحت إمرة فرنسية ضد أيطاليا.

(2) هوصار هو جندي الخيّالة في الوحدات الأوروبية تحديداً.

على رؤوس المهاجمين. لابد من أن هذا الهدير يتردد في كل منطقة القبائل المتمردة. ما بين الرشقات، يمكن تمييز الأزيز الغريب لطلقات العدو. رصاصات ضائعة، تتقافز مولولةً بذلك الصوت الحاد الأشبه بنقر وتر قيثارة، تصطدم بدشمة أو بالأرض مثيرة سحابة من الغبار. جنود يسقطون دون صراخ، وكأنهم تعثروا، ثم لا يعاودون النهوض أبداً.

تنهد النقيب إذ تذكّر الحلم. غمره بموجة مباغتة من الرقة، قطعتها صليتا رشاش دوتا إلى يساره، عبر الوهدة الأولى. لتضربا ماذا؟ لا يهم. دويهما المتشنج اخترق ضجيج المعركة والصراخ الآتي من الأعالي. شعر بالمؤاساة. فأن تكون تحت الشمس، متسلقاً الصخور الكلسية والصوانية المتشققة وأحجار ميكا كريهة الرائحة، والصخور المتبلرة وكسرات زجاجية بلون الصدأ تتدحرج تحت الأقدام، تتشبث بالأجمات والجذور لكي لا تقع، تتنفس، تتنفس، تتعرّق، تفكر في البوق الذي أطلق أولى إشارات المهمة، قبل أن تموت وتُقتلع من الجميلة المجهولة التي تحيطك بذراعيها وفخذيها وفمها؛ ليس هذا بالأمر الهيّن.

استعاد تنفسه.

«قل لي، كريجيه...».

كريجيه، غريبه، هناك تشابه جزئي بين الاسمين. في السجع فقط. غريبه يعني «الغامض» على الأرجح، المحتال، الماكر، النذل، و«كريجيه» في الألمانية يعني «رجل الحرب». في حين أن بقية الضباط يلفظون «كريجيه» كما «برجيه»، محاولين التشديد على نهاية المقاطع الصوتية. لن يخبره بحلمه، فهو لن يفهم.

«هل لديك ما...».

يومئ بيده، فهو ما عاد قادراً على احتمال العطش.

«... نشربه».

اقترب الملازم أول، ومد له قربة من جلد الماعز.

«ماء فحسب، بقليل من التلوث».

أزال النقيب السدّادة، ورفع القربة ضاغطاً عليها، ثدي يتقطر في خيط رفيع، ثدي جزائرية، تجرّع بضع جرعات، ترك الأخيرة ومسح فمه ثم بصق، ومسّد شاربيه اللذين باتا الآن أقصر وغير مشمّعين.

بدأوا يختنقون.

2

نزع النقيب غريبه قبعته، مسح جبهته وارتمى في أحد التحصينات. «عليّ أن ألتقط أنفاسي قليلاً، وإلا متّ...». على بعد ثلاثين خطوة إلى الوراء، توقف المعاون دلفيني وفرع القيادة (بقية الشعبة). نظر النقيب إلى مساعده شذراً، ثم، وبرأسه الذي يظهر من فوق متراس الحجارة الرمادية بحبيباتها اللمّاعة، رأى البناطيل الحمر تتقدم. ما عادوا بعيدين سوى نصف المسافة عن التحصينات، وقد بدأت حماستهم تخفت. اعتمر النقيب قبعته ثانية وأخذ يدخن سيجارا صغيراً. ما زالت الأعيرة النارية تمطر، ثقيلة، بلا وجهة محددة، ترتطم بصوت مكتوم بالأرض، كاشطة الصخور. يمكنها أن ترديك ميتاً، أن تقتلع ذراعك، أو تبقر بطنك، تلزمها فقط صدفة ما. الآن، يتنقل الكروميون كالعفاريت، فوق جذوع الأشجار، التي يحتمون خلفها، لا يسندون أعقاب البنادق إلى أكتافهم بل إلى بطونهم ويصوبون بسرعة، باستقامة، باتجاه جموع العدو من دون تحديد هدف معين، هكذا

كيفما اتفق. وبذلك تضيع معظم ضرباتهم سدى.

«ما عادوا قادرين على التقدم، لقد تضعضعوا».

لم يسمع كريجيه على الأرجح، إذ بالكاد حرك النقيب شفتيه فقد جمّده العرق. أبسبب الهواء الذي هبّ ونشر الدخان؟ أم الأحجار التي رماها المدافعون وانطلقت كأقواسٍ في السماء، تقافزت فوق الصخور وانهمرت أحياناً فوق الرجال. كيف يمكن الاختباء سوى بالالتصاق بالجدار؟

بين دوي مدفعين، صدح بوق. ما زالوا يلقمون المدافع؟ فجأةً، توقف إطلاق النار. هاوية من الصمت ثم وابل من الرصاص وصرخات بعيدة وزخات من المدفع الرشاش[1].

– أين صدح هذا البوق؟

– لجهة اليمين، كما يبدو.

ما عاد يصدح على أية حال. أكان وهماً؟ بسبب المنحدر الصخري المنتصب عامودياً لا يمكن رؤية شيء. كيف لهم إذن أن يعرفوا إن كانت فرق الطليعة قد التحقت بهم ووصلت إلى حدود التحصينات الأمامية، ورفعت العلم في إشارة إلى جهوزيّتها؟ دينيف الذي يصل دائماً بعد المعركة مع مرافقيه للتموين، متوقعاً أن يكون الاقتحام سلساً كقطع قالب زبدة، وبأن كل شيء قد انتهى، ولا ينقص سوى ظهوره مع تمويناته. في المقاصف العسكرية، يتبجّحون ويسخرون ويصورون العدو هزلياً.

(1) Mitrailleuse هو ما يسمى المدفع الرشاش، دخل إلى الاستعمال العسكري للمرة الأولى عام 1718، ومنذ ذلك الوقت تطور مرات عدة والأرجح أن النوع المقصود هنا هو ذلك الذي طوره الفرنسيون أنفسهم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وهذا المدفع يطلق الرصاص بمعدلات سرعة وأعيرة مختلفة بحسب نوعه.

فتسلق مرتفعات الحصن الوطني لم يتطلب سوى صبيحة واحدة، ولكن كان ذلك بمساعدة قوة كبيرة تحت بركان من النيران! وفي اليوم الثاني، عند الفجر، كان عليهم تصفية ألفين من المقاومين ممن استمسكوا بسور القلعة، لقد تطلبت تصفية تيزي - أوزو[1] خمسة عشر يوماً.

على أية حال، ما عاد يظهر شيئاً إلى جهة اليمين.

كان النقيب غاضباً، فمعاونه يبدو متوتراً مهتاجاً، والعرق يتصبب خيوطاً من صدغيه حتى عنقه. ذقنه التي حلقها منذ الفجر باتت تغطي وجهه الوديع. فالانفعال يسرّع من نمو الشعر. مسح النقيب وجنتيه فوخزته، هو أيضاً، مثل ضباطه، الذين فرض عليهم هذا النظام، بدأ يشعر بالحكاك مع أول شعاع... إذ تقضي الأوامر بتجهيز الماء الفاتر للحلاقة حتى قبل القهوة. إنه أسمر اللون، ولكن ليس أقلّ من كريجيه، ذلك الألزاسي[2] شديد السمرة إلى درجة أن تحسبه مرتزقاً إسبانياً قديماً من مرتزقة الأمير دي ساكس[3]. أيشعر هو الآخر بفراغ الأحشاء وتشتت العقل اللذين يفضحان الرعب؟ ما لم يسيطروا على أنفسهم، فسيبدأون بارتكاب الهفوات، ليتداعى كل شيء، وتسيطر الهزيمة على الفكر، ويغدون عاجزين عن الحسم؛ ثم الانهيار. لكريجيه وجه طويل، وعينان

(1) تعتبر ولاية تيزي أوزو (وفيها مدينة تيزي أوزو) أكبر منطقة للقبائل البربر لذلك فهي تدعى منطقة القبائل الكبرى في الجزائر وقد كانت من المناطق العصية على الفرنسيين كما ذكرنا في الهامش الخاص بـ«الحصن الوطني»، وهنا الحديث عن ثورة المقراني التي وإن فشلت إلا أنها كانت معركة صعبة على الفرنسيين.

(2) نسبة لمنطقة الألزاس في فرنسا.

(3) François-Xavier de Saxe (1730 - 1806) أمير منطقة ساكس وعرف في فرنسا بكونت اللوزاس (لوزاس منطقة في المانيا). كان نقيباً عاماً ومارشالاً للجيش لدى الملك لويس الخامس، وهو الابن الذكر الثاني لأوغست الثالث ملك بولونيا وأميرة النمسا. وهو من كان وراء الانتصار في معركة لوتزيلبيرغ، لكنه لم يتمكن من أن يصبح ملكاً.

غائرتان، وأنف مستقيم، وعندما يرفع قبعته، تتكشف جبهة صغيرة يغزوها الشعر. وجه عسكري حاد الملامح، محدود السمات، لا يشعّ إلا عندما يتكلم عن القتال أو في حضرة الطعام. متزوج، بلا أطفال، من امرأة قصيرة جافة يقلقها ارتقاء زوجها، رغم أن مهامه كمرافق لقائد كتيبة تكفيه ولا يسعى لأكثر من ذلك. في العام [1]70، وخوفاً من الاعتقال، بادر إلى الفرار. دائماً ملمّع، يفيق قبل الجميع، يراقب كل شيء، صارم، عملي، يشرف على كل تفاصيل الحملة العسكرية. فإن حلم، فهو يحلم بتعنيف الرقباء أو يتخيل أنظمة التوزيع والنقل. يخترع الكثير من الأشياء، ينبش. أما هوسه ذلك بالحديث دائماً عن حملة 57 فليس إلا طريقة للتغافل عن الحاضر. وماذا عن الحاضر؟

انحنى، قطف عشبة وشمها.

«إنه الخزامى، تشممه سيدي النقيب».

ثم فتح جعبته، والتي تحوي أقلاماً مبرية بعناية مدسوسة في السحّابات، وسحب منها خرائط وكراسات ورقية ورزمة شطائر لفّت بعناية.

– أترغب في قطعة؟

– آه، لا يا صديقي، شكراً.

هذه الفكرة وحدها أشعرت النقيب بالرغبة في التقيؤ. يمضغ بصوتٍ عالٍ، لا بل يزدرد الطعام ازدراداً... كما لو كان يستمتع بعناقيد الغيم الآتي من الغرب، من جهة البليدة[2]، الذي مرّ فوق مارغريت، وداعبت ظلاله الخفيفة الألوية التي تتقدّم في الوادي وعند هضبة الزيتون، خلف

(1) 1870 خلال الحرب البروسية الفرنسية.

(2) البليدة تقع في شمال الجزائر على سفوح جبال الأطلس إلى الجنوب من سهل متيجة، ومدينة البليدة عاصمة متيجة.

الكتيبتين المولجتين السيطرة على أول قمة بربرية، هذا المنحدر حيث بدأت تسيل الدماء كالجداول... ألم يعرف كريجيه الخوف يوماً؟

– قل لي يا كريجيه، ألم تشعر يوماً بالخوف؟

– لا يشغلني الأمر كثيراً، سيدي النقيب. في العام 70، جزعت حين اعتقدت أننا هزمنا. كنت مقتنعاً حينذاك بأن البروسيين قد أصابوني. لا أخفيك سراً، فررت بسرعة مع شعبتي. أما هنا فلا. في العام 57 لم أعرف ما عليّ إثباته. أن نحاصر مرتين من الكروميين؟ عندما رأى الجنرال بورباكي الفرق تدخل جميعها في هذه الحفرة...

التفت النقيب إلى المعاون ديلفيني الذي ترك سيفه مع الحقائب، كي يتأبط بندقية. هل خطرت له النساء، والوجبات الخفيفة، وحرب 70، والغيوم؟ يجب تغيير هذا الواقع. لا يجب التوقف أو المشي والتعلق بالنباتات أو التسلق على أربع أو المشي جرجرة وزحفاً، بل يجب التقدم والانقضاض والفوز.

«حسبك يا كريجيه! زواويوك لم يكونوا نافعين. بحقّ الربّ..»، صرخ به، «تقدم».

3

ما إن يبدأ التردد، حتى تنهمر المصائب على الرؤوس. تراجع كي يتفادى الحجارة المتساقطة حوله، بدا للحظة أنه يستلّ سيفه، ثم مد يده باتجاه البوق وكاد أن ينفخ فيه.

«بندقيتك. أعطني إياها. لست بحاجة إليها».

أمسك البندقية، وأدار المغلاق كي يدخل خرطوشة، صوب إلى أعلى

المنحدر، أطلق، ثم أعاد تلقيم البندقية، وأطلق ثانية، ثم تقدم رافعاً يده الملوّحة بالسلاح.

يجب بلوغ القمة في خط مستقيم، هيا، انهض أنت، أين أنت سوفمانيْ، لا أراك؟ وأنت ألّير؟ تقدما، حركا رجالكما! الصخور لن تحميكما! هذه القرية تستفزكم، فقد أشاعت أننا لن نستولي عليها، وأنه بإمكاننا أن ندمر ربما عشرة آلاف قرية قبلية أخرى، ولكن ليس هذه القرية، هذه القلعة القائمة على كتف الجبل، حيث احتشد جميع الرجال البواسل بغية صدّنا.

أسند إحدى ركبتيه على الأرض. من مرمى الخندق، صوب بعناية بوجه مكفهر متجهّم وضغط على الزناد، ممتصاً الارتداد العنيف للبندقية، ثم نهض. على بعد خمسين قدماً أمامه، كان قائدا المجموعة قد بلغا القمة، الشاب سوفمانيْ إلى الشمال، ألّير الضخم إلى اليمين، اعتليا الصخور وهبطا إلى الجهة المقابلة. فوق مسرح القتال، بناطيل حمر أشبه بحقل من الخشخاش يحركه الهواء. الهواء الحار يجعل للبزات العسكرية، والجلود المتسخة، والمدافع والبرانس، رائحة عفنة. ضراط وزعيق يملآن المكان. عاد الرصاص، وبدأت القذائف بالانهمار على تخوم القرية، دون أن تصيب هدفاً، لأن رجال القبائل لم يفرّوا، كانوا جميعاً ممددين هنا، مقلوبين في خنادقهم، وقد تهشمت رؤوسهم أو تناثرت فوق الصخور، يكسوها الدم.

سار كريجيه، ممتشقاً مسدسه، إلى يمين النقيب. وتبعه دلفيني عن قرب، وبندقيته الشاسبو جاهزة للتصويب. علا الضجيج حتى غدا رهيباً، يخترقه سبابٌ كزعيق الحيوانات. ملأ الغيم القمة حاجباً السماء فجأة وملتهماً

دفعة واحدة الخاصرة الضخمة لجبال جرجرة، مسيطراً على الميدان، ومتقطعاً فيه إلى ظلال ورموز وكتل بخارية، ترتفع من بعد إلى الشمس والسماء اللازوردية. وخلف ذلك كله، لناحية القرية – ولكن عن أي قرية بالضبط نتكلم؟ – في فترات الاستراحة ما بين الرشقات المدفعية في مكانٍ أبعد وما بين الرشقات المتزامنة من المدافع الرشاشة تتعالى زغردات غامضة وتتصاعد بين الدخان، وتضيع فيه للحظات، تخفت، تختنق، ثم تعاود الانفجار.

«أتسمع سيدي النقيب؟ النسوة ما زلن هنا...».

استمرّ الصوت للحظة طويلة، حتى حسبه غريبه صوت زيزان الحقول. ولكن هنا، وسط دويّ المدافع وجلبة الرصاص؟ لابدّ من أن الزيزان فرت مرتعبة إلى الحقل الأبعد، حيث لاذت في فجوات جذوع الأشجار، تحت اللحاء، وربما حتى تحت الأرض. فلكي تغني في ظرف كهذا، مطلقة عقيرتها بالبهجة أو الألم، يجب أن تكون منتمية إلى الجنس البشري: كان ذلك الصراخ الثاقب، الحاد المدوي، تلك الزغاريد التي تتخلل الأفراح والأتراح، مثل مثقب العظام. الأغبياء! كانوا متقينين من النصر، لدرجة أنهم لم يبعدوا النساء، أو ربما هن من رفضن الابتعاد، لكي يجبرن الرجال على إحراز النصر، مهدّدات بأنهن سيكنّ لمنتصرين آخرين، إن هم أظهروا جبناً. شراستهن كانت أسطورية. لم يتنازلن للغريب الذي تقدم شاهراً السلاح، حتى يتم سحقهن. صرار الحقول، يا للسخرية! لقد كان ذلك غناء الكراهية لدى النساء، شتائم النساء، جنونهن الذي يتحول لحظة الزواج أو الولادة إلى غناء الحب والتبريك والمرح النسائي. ثلاثة أشهر من القتال، عبر الجبال، عرف خلالها كريجيه ما يكفي عن أهل القبائل،

وكانت كافية حتى يتعرف، وعلى الرغم من صخب المعركة، زغردات النسوة الغاضبات، هتاف الضباع المجنونة للمدافعين عن حرية أرضهم، والشتائم البربرية، والنشيد ولكن أيّ نشيد؟ هوشعنا[1]، تسبيحة العذراء، ميسيريري[2] أو هللويا، أو صلاة، أو نشيد ثأر أو انتصار أو موت؟

استدار النقيب، كان المنحدر كله محتشداً بالكتائب التي تتقدم. في الأسفل تشتت سرايا الخيّالة. وقد عبقت الطريق التي تصل إلى الحصن الوطني الذي ترقرقت جدرانه تلمع لجهة الجنوب الغربي، بالغبار المتصاعد من مرور القوافل في الوديان. خط أول من المرتفعات يخفي خلفه الانحدار الكبير لوادي سيباو وقمم أخرى مغطاة بالغيوم ترتفع في الخلف مع الغابة القاتمة لعزازقة[3]. بعد ذلك، هناك البحر، غير المرئي، وشواطئ دلّس[4] وسلسلة الصخور المحاذية له التي ما انفكت سيطرة المتمردين عليها تنتقل بين كرٍ وفر. قريبون جداً، بسراويلهم الزرق السماوية وستراتهم الفضفاضة، يتسلق جنود كتيبة المشاة بكل حماسة على وقع هتافات صاخبة. بحث النقيب عن الملازم أول قُصَيري الذي يقود الكتيبة. وإذ به يظهر من خلف صخرة، بقامته القصيرة جداً والرشيقة، أشبه بقرد، عمامة صفراء فوق وجه داكن، يشتم الرجال الذين يتزحلقون فوق الحصى. «لغاية الآن»، قال النقيب في سره، «مع المدافع، والبنادق أو من دونها، لم يتمكن أحد من إيجاد طريقة لإنهاء معركة بغير جند المشاة. بضع خطوات أخرى، وسوف أصل إلى نهاية خدمتي في هذه المهنة، أريد أن أرى

(1) هوشعنا، أو تسبيحة الشعانين عند المسيحيين.

(2) Miserere أو miséréré وهي مطلع نشيد كنسي (ارحمني...).

(3) عزازقة هي بلدة تابعة لدائرة تيزي وزو.

(4) دلّس مدينة جزائرية على ساحل البحر المتوسط. بين بجاية ومدينة الجزائر.

رجال هذه القبائل الذين يعتقدون أنهم لا يقهرون، ولمس برادع البغال التي حالت دون انسحابهم، وإشراك العرب في جيشنا في الانتقام من القبائل الذين خانوهم خلال حملة الجزائر، ونهبهم وإزالتهم من الوجود. في مجموعة قُصَيري، هناك أيضاً جنود يافعون سينقضون على إخوانهم ويقضون عليهم. ولكن هل يعلمون فقط ماذا يفعلون؟ وأنا، القميء، أما عدت ماكراً؟...».

ألأنه اقترب من الدشم، حيث يمكن لمقاتل محتضر أن ينهض ليطلق عليه النار في صدره؟ ألذلك بدأ قلبه يخفق بضربات متسارعة. في الأعالي، زواويون رابضون خلف آخر التحصينات الصخرية، مترددين في القفز فوقها.

وفجأة، خطر له أنطوان. أين هو الجندي أنطوان بويشو؟

4

وتذكر بأنه خطر له لبرهة، عندما كان في الأسفل، في اللحظة التي بدأت تمطر حجارة. إذا قُتل أنطوان، فلن يسامحوه البتة، سيتهمونه بأنه جلبه إلى منطقة القبائل، وسيمرض والده المسنّ وسينتهي كل شيء، حب مارغريت، سعادة ماري ألدبرام، السلام، ذكريات بوفاريك.

«دلفيني!...».

تقدم، بخطى رتيبة بوجهه الملتوي من شدّة الثمالة، الساخر بطريقة مبهمة، وأصبعه على زناد بندقيته الشاسبو. فقد كان على النقيب دائماً أن يتحرش به من أجل أن يوقظه من شروده.

«سيدي النقيب؟».

لا حماسة تميز كلمة يقولها عن أخرى، رتابة كاملة. صوت مسترخ. أنطوان ليس هنا، فخم منه، إنه مع شعبة القيادة ولم يمسسه أذى.

بدا النقيب سعيداً. أزيز من كل الاتجاهات، فرقتا المقدّمة، قفزتا من الجهة الأخرى من التحصينات وتقدمتا، رجال يدفعون بكعوب أقدامهم براذع البغال ويبحثون عن البغال، ولكن لا، ليس هناك سوى البراذع، رموز تذكّر المدافعين، مثل زغاريد النساء، بأنه لا يجب أن ينظروا إلى الخلف وبأن كرامتهم تكمن هنا، في الحفر وبين جذوع الأشجار وفي الأبواب المخلعة للمنازل التي ما عادت صالحة، وفي مقاتلة هؤلاء المجانين الغاضبين عن قرب أو طعنهم بالسيف. ليس ضرورياً أن يذهبوا بعيداً جداً إلى العام 70 مختبرين نوعية قذائف وبنادق درايسي لدى البروسيين من أجل أن يعودوا ويقدموا أنفسهم لبنادق المكحلة[1] التي تعمل بحجر الصوان، والتي ما زالت القبائل تشحنها عن طريق الفم، بتلقيمها ببودرة الرصاص، ولكن التي أيضاً تقتل، وإن لم يكن بشكل منتظم دائماً. ماذا سيقول النقيب إذن عن ذلك؟ «لا تحدثوني ثانيةً عن رجالكم راندون وماك - ماهون...».

كان النقيب يتقدم زاعقاً لكي يُسمع، مفرغاً رصاصاته من وقت لآخر على أحد القبليين الذي ما زال يتحرك.

«ماك ماهون؟ بالرغم من ذلك، أنت لا تعرفه، سيدي النقيب...»

بكل وعي، كان كريجيه يفرغ رصاصات مسدسه في الكروميين المرتمين، أكانوا موتى أم لا، ثم يعيد تلقيمه خلال سيره بيدٍ ترتجف من شدة

(1) بنادق المكحلة وهي بنادق تقليدية محلية من بداية القرن التاسع عشر، تعمل بحجر الصوان وتعبأ بالبارود المصنع محلياً.

الانفعال. وهكذا يتأكد من أنه لم ينس أحداً في دربه.

– ... ألا تعلم، أنك تصرفت الآن، مثلما تصرفت القوات في العام 57. عندما شعرتَ بأننا محاصرون، وقفت وأمرت الكتيبة بالتقدم، لا بل أجبرتها على التقدم بسرعة. في 57، ولمرتين حاصرنا رجال القبائل. كيف يمكن أن نعيد الثقة للفيالق التي مرغت أنوفها بالتراب؟ ولذلك فإن الجنرال الذي يقود الشعبة، ولن ألفظ اسمه، لأنك تحظره عليّ، أطلق طابوره الثالث، فوج...

– مع الموسيقى؟

– حتى بلا طبول، بلا شيء. تقدم القائد مانغان على رأس كتيبته و... وتسلق المنحدرات. بلا أي طلقة، بصمت كامل. وبلا عجلة، بخطى جنائزية من تلك التي تعرفها، حتى دون الاختباء وراء المنحدر، عند خط القمة... كانت لحظة ذهول. شاهدنا الرجال الخضر[1] الذين يتسلقون، لم يصدق رجال القبائل عيونهم. هل تسمعني، حضرة النقيب؟

– أكمل، عزيزي.

– توقف عن التصويب، فأنا أحميك... صمم رجال القبائل على قنصهم. فيالق وقعت وأخرى أكملت. وصلوا حتى التحصينات. انهارت المقاومة. وعند السابعة إلا ربعاً، في 25 يونيو 57، انتهى كل شيء. أصبحت إيفرحونن في أيدينا. لقد بدأت المطاردة. ونحن، هل نكمل؟

---

(1) الرجال الخضر وهي التسمية التي تعني رجال العالم الخارجي في قصص الخيال العلمي، والأخضر كان دائماً علامة الشيء فوق الطبيعي، أو الخارج عن الطبيعي.

– استراحة. لقد طلبوا مني أن أستقر في البداية مدافعاً عند أول قمة نسيطر عليها. نفذ التعليمات. فانا لن أبرح مكاني.

ركض كريجيه باتجاه مجموعتي الطليعة اللتين تمركزتا للاحتماء من خلال إطلاق النيران. وعاد.

– هناك ثلاثة معتقلين لجهة الشمال. والملازم أول سوفماني يسأل ماذا نفعل بهم. لا معتقلين، أعرف سيدي النقيب. ولكن الواقع أن هناك معتقلين.

– دلفيني، اذهب وقل للملازم أول سوفماني، إنني لا أريدهم. وإن احتجت، وفي حال تردد، أها...

ابتعد دلفيني. من اليمين، وصلت كتيبة دوبوي إلى أوائل البيوت في القرية، حيث كانت تجري الإعدامات. تكدس جنود الاحتياط في الخلف مع صراخ وأصوات نزاع. سيحصل على ترقيته دوبوي. وبالرغم من ذلك فقد أخفق للحظة هو أيضاً في التسلق ولم يبلغ القمة إلا من الجهة الشمالية، بعد أن كاد ينهار. وقد هجم الآن لكي يعوض ما فاته. كان من الممكن سماعه يعوي بصوته المتغطرس الفظ، لقد أراد ان يكون في الطليعة.

5

هدأ الصخب الكبير للمعركة، وصدح صوت النقيب غربيه بنبرته الغاسكونية[1] في الأرض المحصارة، تحت الشمس اللاسعة. لا يأخذ شيئاً على محمل الجد: دائماً مع هذه الخلفية الهزلية، النبرة المتخففة التي تذكر بلحم البط المقدّد والقرى النظيفة عند هضاب غيرس، الأنهار التي تجري

(1) نسبة لمنطقة غاسكون الفرنسية.

لتصب في غارون.

يئزّ أحياناً رشق ناري، كما في رحلات صيد الحجل، التي تنظم أحياناً في المناطق المسيطر عليها، بحجة تسلية الجنود وكسر الروتين: فقد عثروا بالصدفة على بيوتٍ من الحجر مخفية تحت الصخرة، أشبه بكهوف هجرتها للتو السنور البرية. وجدوا فيها أثار نيران أخمدت منذ بعض الوقت فقط، ومخابئ سرية، ثياب، صوامع حبوب، فطائر شعير منسية. وبذلك تحول الصيد إلى تقصّ لمكان الطرائد.

راح الزواويون يغمزون قائد كتيبتهم، ويتباهون. فقد تبين لهم أن مدفع الكروميين الشهير مزحة. تناوبوا على صفائح النبيذ وأخرجوا النقانق بالثوم، وجلسوا لتناول وجبة خفيفة، محتفظين بالبندقية بين الفخذين، والطربوش مقلوباً إلى خلف الرأس وقد تدلت شراباته حتى الرقبة أو الكتف، دافعين بالجثث بأقدامهم مثل طرائد كبيرة مقتولة. فاجأتهم الرؤوس الحليقة والأفخاذ المهشمة بالأشواك، وبواطن الأقدام القاسية كجلود الحيوانات؟ ينتزعون منهم عقوداً مصنوعة من حبوب الزيتون وتعاويذ ونسخاً من القرآن مخاطة داخل حجب وأحذية من جلد الماعز هي عبارة عن طبقات بسيطة مشدودة بأربطة بين الأصبع الكبير والكعب. أما أسلحة الكروميين! بنادق رديئة ذات أنابيب رخوة وبنادق الفلسي[1]، وسكاكين تستعمل لذبح الحيوانات والبشر، أبواق محشوة بالبارود وأكياس ملأى بكرات الرصاص.

كان معظم القتلى بلا لحىً، مجرد أطفال. إنهم المسبلون الشهيرون الذين

(1) الفلسي وهي بندقية تقليدية لدى اهل القبائل، يتراوح طولها بين الخمسين سنتيمتراً وحتى المتر. وقد تعرف عليها أهل القبائل من خلال الأتراك.

جاءت بهم إلى هنا براذع البغال، وكرامتهم وعقيدتهم، وكل هذه الغابة من الأشجار الفتية المقتولة، واختلطوا بالتراب بقندوراتهم[1] الرعوية. لم يكن هناك سوى رجلين اثنين بالبرنس وبلحية شائبة وعمامة وقبعة مسحوقة عند الظهر. قلبوهما ليتأملوهما، لأنهم لم يكونوا بعد قد رأوا المتمردين الأحياء سوى عن بعد. كانوا ليظنونهم شبيهين برجال القبائل الخاضعين، المكسورين، المبتذلين، الذين يأتون خلف قادتهم ليحيوا الفرق العسكرية عند مرورها بهم، وبأولئك الحذرين الذين، وبداعي الثأر بين القبائل، يتبنون الموقف الفرنسي. ولكن لا. إنهم يتمايزون بقدر تمايز الحيوانات البرية عن تلك المدجنة. فالتمردون يبدون أكثر توهجاً، فاتحي اللون أكثر، والكثيرون منهم لهم عيون زرق، لكن هذا النوم الذي ما زال في بدايته والذي لن ينتهِ البتة خرب أشكالهم.

«رجل أسود مثلك، كريجيه، لا يمكنه أن يكون كرومياً حقيقياً، إنهم ألمان أكثر منك».

تقدم النقيب باتجاه الملازم أول سوفماني الذي يقود الفرقة التاسعة، ليكتشف أن يده مضمّخة بالدماء.

– هل أصبت؟

– ليس بالأمر المهم، سأقصد المستوصف حالاً.

– ماذا عن الخسائر؟

– قتيلان، ونحو عشرة جرحى حملناهم إلى هنا.

التفت النقيب قليلاً.

---

(1) القندورة (بالقاف البدوية) وهي لباس رائج بين أهل الصحراء وواحد من الألبسة التقليدية الجزائرية، ويعني إما الفستان الطويل للنساء، وإما القميص للرجال.

– لقد كان لديك أسرى؟ غريب!

– فتيان اعتقدناهم موتى، فوجئت بهم. وتساءلت إن...

– لا تتساءل أبداً. فالجيش يا عزيزي، هو الامتثال للأوامر أولاً وأخيراً. ولا شيء آخر. أنفذ ما يقال لي، فإن أمروني بالتقدم، أتقدم، وإن أمروني بألا أتحرك، لا أتحرك، وإن أمروني بألا أأسر أحداً، لا أأسر أحداً. إن تصرف كلٌ على مزاجه، فأنت تفهم...

كل ذلاقة لسانه تبخرت وغدا فظاً، بدا وكأنه يستمتع بارتباك الملازم أول، وأخذته الرغبة بزيادة إرباكه أيضاً، وتمنى بطريقة غامضة لو يهزم دوبوي ويواجه المشاكل لأنه لم يطع الأوامر.

في السماء الصافية، كان الهواء يصفر قوياً من جهة الغرب، حاملاً معه ملامح من اللحن العسكري الذي يعزف في الأسفل، في الوادي من حيث تسلقت الأفواج أخيراً إلى القمة من الجهة الأخرى للقرية. الجياد، السيوف، السترات الزرق القصيرة والبناطيل الحمر، حقل شقائق النعمان.

بُم، بُم، العربي
بنات آوى من هنا، من الهضاب..

في آخر الكتيبة، من الطرف الآخر، النقيب ألّير، متأبطاً قبعته العسكرية، وسيفه المغمد يرتطم بخاصرته، كان يبدو سعيداً، فهل أن شاربيه الملصقين بوجهه المستدير وعينيه اللامعتين تجعل وجهه يبدو سعيداً؟ هو أيضاً لديه ثلاثة قتلى من الزواويين واثنا عشر جريحاً. هنأه غريبيه ثم تراجع إلى الخلف. لقد رأوا ما يكفي من الموتى، وما عاد الأمر يزعجهم. قتلى الكروميين يحسبونهم كغنم الغزوات. وأخيراً وقد اخترقتهم القذائف ما عادوا

يهرولون عبر الجبل، وما عاد هناك ضرورة لشن حملات منهكة ضدهم. المتمردون، تلزمهم مجازر كبيرة ومصاقل مشحوذة جيداً، وغابات تقطع بالكامل. العرس الحقيقي، هو هذا. عرس حقيقي للرجال، بلا نساء، مع طقوس خاصة بالرجال، صرخات رجال، لكمات قوية، وبنادق ما زال رصاصها ساخناً، بلا جرحى وأسرى: فكل الخسائر محصورة بقطيع الغنم المضحى به. يمكن أحياناً إيجاد أعداء متلاصقين، مضطجعين الواحد قرب الآخر، متداخلين. بعد المعركة، يتم فصلهم: المتمردون في الحفرة المشتركة، إن لم يتم تركهم لبنات آوى، الزواويون في العربات التي تحمل إلى الحصن الوطني.

6

«لا تبدّد خراطيشك».

أيقول ذلك من أجل توفير المؤن ومنع الزواويين من التصويب على الطيور الجارحة؟ الصقور أو طيور الرحمة؟ كان يصعب تمييزهما من هذه المسافة. إنها على الأرجح طيور الرحمة، لأنها وعلى الرغم من المساحات الكثيرة التي تفصل في ما بينها، سوى أن أعدادها كبيرة: الصقور تفضل التفرد أكثر، وينفرها الضجيج، في حين أن المعارك تجتذب طيور الرحمة. وكأن التجارب علمتها، تتبع الجيوش بهدف الحصول على الغنائم، تصبر عندما تتأخر المعارك. طبل المدفعية يبهجها. ثابتة تقريباً لا تهزها الريح، تندفع إلى مصدر الجلبة، بأجنحتها الكبيرة المبسوطة، وعيونها القادرة على التقاط كل شيء، تبدو وكأنها تتجسس، تراقب بعضها بعضاً، ترصد أول من ينقض منها على قتيل، أكان إنساناً أو حيواناً. وإن اندفعت جميعها

دفعةً واحدة، مفتونةً بالأحشاء، طعامها الفاخر، وأغرقت رؤوسها في البطون المهشمة، يا لهذه الحفلة! فلكي تقتات من هذه المأدبة، هي مستعدة لأن تحوم لأيام وأيام فوق فوضى الجبال، تستنشق التيارات، تلاحق بإصرار الفرق المقاتلة، وعندما تبدأ العملية، يمكنها أن تشم الرائحة من بعيد. إنها لنسور صهباء بالطبع: أحياناً تنعق إن كانت مستثارة، وبالرغم من أعناقها الملتوية بين أكتافها تبدو باتساع أجنحتها وشكلها كالصقور، إلا ان الصقور لا تزعق أبداً، تتأمل من فوق قمم ممالكها ولا تهاجم سوى الطرائد الحية في حين أن النسور طيور الرحمة لا يستهويها سوى الموت.

لم اصطيادها؟ فهي تلعب وظيفتها كحفارة قبور، تنظف الجثث على نحو أفضل من بنات آوى، لا تترك مزقة لحم، لا تخلف وراءها سوى الهياكل العظمية للصقور كاسرة العظام. أي معدات لهذه الصقور! تحطم العظام وتبتلعها كلها.

إنه عرس أيضاً بالنسبة لها. «إخواننا، النسور...».

رقّ النقيب غريبه فجأةً. فهو يشعر بنوع من الغيرة تجاه النسور. هو أيضاً طير طرائد، نصف صقر ونصف نسر، يحب الحياة لكن الموت يلهمه، ينتشي بالمذابح. «أخواننا النسور، إن وقعت يوماً بعيداً عن جماعتي، ربما ستأتون يوماً لتنهشوني، بالنسبة إليكم، كله لذيذ، لا تفرقون بين رومي وكرومي، تنقضّون على الموتى، تلتهمون الكبد والقلب والعينين، ثم تطيرون منتشين بالدم، مترنحين قليلاً. ربما أنه سيكون لي لحمكم، وأجسامكم المنتفخة بالهواء، والأجنحة التي تحملكم، مناقيركم الجارحة، وعيونكم المضلّعة. وسأستفيق منذ الفجر، أصطاد، الشمس تسطع على ظهري، أنقض على قوارض وعصافير وحملان، وفي موسم الحب، أقيم

الأعراس في السماء المفتوحة...».

شعر بأنه صقر ميثولوجي، يحمل امرأة في الفضاء فوق القمم، مثل جوبيتر على شكل صقر يحمل غانيمادس[1]. قال لنفسه إن مخالبه ليست بهذه القوة، وإن النسوة أقوى منه. يقول «النسوة» بيد أنه لا يفكر سوى بامرأة واحدة، امرأة حلمه، السرية، المخبأة، التي تحمله أكثر مما يحملها. ابتسم: فكر بتلك الخرافة العربية عن الصقر الذي هجم على أرنب وحمله، وعندما التقى صقراً آخر قال له: «أيها المسكين، أفلت ما تحمله. ألا ترى أنه هر؟» فرد عليه: «عليك أن تطلب منه هو أن يفلتني...». على هذا النحو هي المرأة التي اعتقد بأنه انقض عليها، كانت متشبثة به، وما زال يعيش ذكراها منذ عدة أشهر، ما زالت مخالبها مغروزة فيه، ويحمل علاماتها، كانت نسخته الخاصة من إيفرحونن، يفكر بأن يتركها تتحطم فوق الصخور، فقد توحدت به وبات عليه أن يعاود النزول، ولكن كيف يمكنه أن يحط؟

راودته فكرة الموت ثانية. ماذا بقي من أولئك الذين سقطوا في المعارك السابقة؟ ذكرى وجهٍ ملطخ، ليس أكثر من آثار منزل بين الحجارة في الجبل. نحتسب الموتى بالأرقام، ونسخر من أنفسنا لأننا توقفنا للحظة خلف صخور غرانيتية خائفين من التقدم. هذه المرارة في الفم! بصق السيجار الصغير الذي كان ما يزال يمضغه. أنت يا كريجيه لم تعرف الخوف إلا مرة واحدة في العام 70؟ أما أنا، تخيل، فأحسّه كل يوم، ولأسباب عدة. ما كانوا ليلمونني لو فقدت وعيي لشدة ما عشت من الخوف. أنت بالتأكيد،

(1) Ganymède غانيمادس هو في الميثولوجيا الإغريقية، إله طروادي، كما كان أمير طروادة، ثم صار ساقي الآلهة وعشيق زيوس.

رجل حرب حقيقي، أما أنا فأبداً على الرغم مما أبدو عليه. كنت لأتابع الدراسة والتخرج ككاتب عدل، وما كان علي لأردد سوى كلمة واحدة وتسجيل بعض الصيغ الكتابية للحقوق في تولوز...

تراشق مباغت بالرصاص على السفح المقابل لجبال جرجرة. صرخات وحركة ومطاردة في الاتجاه المعاكس وقذائف تصفر.

وقف الزواويون وحملوا بنادقهم الشاسبو. اشتباك جديد. بالطبع مع هذا الجيب المكتشف عند اليمين خلال التقدم غير المنسّق لدوبوي: عاد كريجيه لاهثاً منهاراً. أبسبب المطاردة، المفاجأة؟

«في الوهد، قال وهو يزفر، كروميون.. كروميون يخرجون من الأرض. ويتقدمون».

صرخ غريبه موزعاً أوامره بصوت لم يتمكن من كبت فرحه: هذا الدوبوي القذر... استدار الجميع باتجاه الجنوب، لجهة الشمس، مجموعتان أمنتا التغطية وانزلقت مجموعة قُصَيري من تحت المنحدر لتباغت رجال القبائل. ولحق بهم النقيب غريبه موزعاً المهام. في الأسفل، حيث ما زالت الموسيقى تعزف اللحن العسكري للزواويين؛ ظهر الكولونيل حاملاً المنظار وقد أنهى للتو مضغ لقمة، محاطاً بالضباط الذين فتحوا على عجلة الخرائط التوجيهية.

بإيماءة من ذقنه، أشار النقيب إلى جهة اليمين.

«هجوم مضاد، سأصدّه».

ابتعد وهو يتمسك بنتوءات الصخرة، تابعاً خطى شعب الاحتياط، وسط جنود المشاة. بعضهم، كان لا يعتمرون الطرابيش، بل عقدوا

مناديل على شكل عمامات على رؤوسهم الحليقة، وآخر سقط نطاقه فأعاد ضبطه. الجميع تفوح منهم رائحة العرق والشحم. ولحسن الحظ فإن المنحدرات تصل للأعالي عبر خط مائل. ومن وراء الصخور، ظهر الكروميون ملوحين ببنادقهم القديمة، قافزين صارخين. هنا فكر النقيب أيضاً بالنسور: «ستسعد هذا المساء...» ترك رجال القبائل يتقدمون، تخطاهم، ثم وعلى نحو مفاجئ استدار باتجاه البوق.

«نفير!».

استند الرجل إلى ركبتيه، أمسك بالفوهة بين شفتيه، استنشق وزفر صافراً. انتفخت عروق رقبته وصدغيه. اعتلى النقيب الصخرة باعثا بإشارة إلى قائد المجموعة. هيا عزيزي، أطلق النار من هناك!

«قُصَيري!».

ماذا ينتظر، قُصَيري؟ ألا يدرك أن على الضابط أن يكون مثالاً، الأول في كل شيء، إنها مخاطر المهنة، ربما ليس في الجيش التركي وإنما الفرنسي. فبفضل ذلك، يتمتعون بحقهم بامتيازات وحظوات ومراعاة، لا يحملون الحقائب كبقية الجنود، ينامون ويأكلون على حدة، يتصرفون أحياناً بالحياة والموت، كالآلهة. ما نفع سلاح المدفعية؟ وهذه الأفواج من الخيالة التي تتبختر خلف قمة إيفرحونن في حين أن كتيبة دوبوي وصلت بكل بساطة إلى مئذنة المسجد!

نعم، إنها الأعراس، وأجملها على الإطلاق! حقل من الموتى. رماة قُصَيري أجهزوا على خمسين من الكروميين الذين ما زالوا يدافعون من الجهة الشمالية. أحدهم طفل قياساً بطوله ونشاطه، هرب مهرولاً بطريقة متعرجة مثل أرنب. لقد أفلت منهم. ثم مال فجأة باتجاه الوادي وأجماته،

وهنا صوبوا عليه، لم ينهض ثانيةً، أو أنه نجح في الوصول إلى المنخسف الأرضي، حيث تلمع بعيداً قريتي بني يني وبني منقلات[1] اللتين تهبطان بقوة في وادي أسيف بمنحدراته القاسية التي تمتد لتلتقي في الشمال، بعد رحلة طويلة بين الصخور، اث وسيف[2]، من حيث يأتي الجيش.

7

«دلفيني، أريد قطعة لي».

أسرع الضابط المعاون، فتح حقيبة ظهره، وسحب طبقاً معدنياً وشوكة.

– لا، أريد أن آكل بسرعة.

– أأنت جائع، سيدي النقيب؟

أجل، بعد أن انتهى كل شيء، كما تفعل النسور. فطالما كانت المعركة دائرة، كانت هذه الطيور المتسولة، بسيمائها الوقحة الخبيثة، منتحية جانباً، لتندفع بعدها زاعقة. نظر غريبه سريعاً من فوق المنحدرات، حيث تتجمع الطيور. لا يوجد منها في جبال البليدة، أو أن النقيب ما عاد يتذكر: فالأفكار التي كانت تسكنه ما عادت هي نفسها. كل ذلك الاضطراب في السهل، الحضارة، مزارع المستوطنين وصولاً إلى أسفل المرتفعات، دفعوا بالعُقاب بعيداً: فهم لا يصطادون كثيراً وإنما ينظفون خلفهم جيداً. في جبل البليدة، يتقدّم النقيب، وكأنه بارون بين الإقطاعيين، باتجاه مكان الوليمة، حيث الخروق المنقوع بالزبدة تتقلب فوق الجمر، وفي كوخ

(1) بني يني وبني منقلات هما قريتان في منطقة القبائل في ولاية تيزي وزو.

(2) أث وسيف أو وسيف وهي قرية في ولاية تيزي وزو.

فقير تحيط به ملاءات قطنية، كانت هناك فتاة تنتظر. كان العرب يعرفون أنهم بتضحيتهم بفتاة يمكنهم ان يحصلوا على الحماية. قدموا لي فتاة، فأحترم نساءكم وقطعانكم وبيوتكم وإلا... يتركون واحدة، يكتشفها الزواويون نصف صريعة من الخوف، دافنة نفسها بين الدجاج في زاوية الباحة، ويقدمونها للنقيب. في أحد الأيام، كان المشتى فارغاً بالكامل، بلا أي بيضة، أوقف النقيب الزواويين الذين أرادوا إحراق كل شيء. لَمَ هذه الشفقة غير المفهومة؟ هل تعب؟ كان عليه بالأحرى انتظار الألزاس، في أغسطس70، ليكتشف المحرك الحقيقي لشهامته: فقد قلبت الأدوار، وأصبح ضحية البروسيين. أمر غريب، في المرة السابقة، بدا العرب كأنهم يكرمونه ويتفهمونه: فلمرة أخرى حظي بفتاته، في السادسة عشرة تقريباً، أكثر الفتيات التي قدمت له جمالاً، مع عقد من الذهب....

كل مرة، بعد المعركة، تتملكه شهية متوحشة يطلقها زوال الخطر: شطائر من معجون الكبد يتقاسمها مع دلفيني، أما كريجيه فقد كانت له دائماً فطائره بالدجاج، وبقايا قنينة نبيذ داكن، والتي إن تأخر دينيف، سيقضي عليها. إنها لحظة نخب الموتى والنسور!

غريبة هذه الموسيقى التي عليها أن ترافق القيادة العامة في حين أن الزواويين يقتلون في ساحة الميدان، موت جميل على وقع البوق. سانت – أرنو، أليس قديساً؟ فعلى الرغم من مرور الوقت، ما زالت سخرية السيد دو رواي تجرح النقيب، لكان سانت أرنو فرح بهذه الحفلة التنكرية: اللحن العسكري للرماة الذي يعزف الآن، الأبواق المتداخلة مع اللحن الحاد للغيطة[1] والتي يلوي الهواء أحياناً ارتعاشاتها الصوتية الحادة.

(1) الغيطة، آلة موسيقية نفخية عربية.

كريجيه يدندن:

... يصبح التركو[1] شريرين

ولكن هذا لا يمنع الـ-مشا-عر...

– فوالا دي بودان[2]، هذا ما يجب أن ينشدوه. على شرفك. فمن دونك هذه المرة وبصرف النظر عن الصمت... لقد صعد الفيلق بلا أي صرخة ولا كلمة. أما أنت فلا. فقد تحدثت هذا الليل. وسمعتك من خيمتي. أفقت. وحسبت للحظة أنك تناديني. أشعلت شمعة، وذهبت لرؤيتك. كنت نائماً. وبدوت سعيداً. بدأت بالاقتحام. ليس نفسه. ليس على الكروميين.

– على من إذن؟

– لا أعرف، انتابني شعور بأنها امرأة.

– أقلت اسمها؟

– لم تتوقف عن ترداده.

– مارغريت، إذن.

– لا، اسم آخر، نسيته.

مد النقيب كأسه لدلفيني. ماذا لو أيقظ المخيم كله بأحلامه... فمع شرب هذا النبيذ، لن ينفع الإدعاء على الأقل من وجهة نظره: فهذا النبيذ يذكره بأمر آخر غير متيجة أو منحدرات السهل، إذ له شذى مختلف.

(1) Turco التركو هم المشاة الجزائريين والتونسيين الذين عملوا مع الفرنسيين في إطار ما سمي بـ«جيش أفريقيا» التابع للقوات البرية الفرنسية.

(2) Voila du boudin مقطع من النشيد العسكري الرسمي لقدامى المحاربين الأجانب في فرنسا والمسمى (Le boudin) على وقع اللازمة الشهيرة للحن والتي أشرنا إليها بداية. وهي تعود على الأرجح لزمن الحرب الفرنسية المكسيكية والتي شارك فيها إلى جانب الفرنسيين، البلجيكيون.

سحب دلفيني سكينه، ومسح عجينة الكبد، فوق الخبز ثم قطعها إلى مربعات وغرزها ليحملها إلى فمه على طريقة العصابات والعمال، فبالنسبة إليه هذا يجعلها أكثر لذة من أكلها كشطيرة كاملة.

– يجب أن...

– عذراً، سيدي النقيب؟

– لا شيء، خطرت ببالي فكرة.

الكثير من الأفكار. بالطبع، لأن مارغريت لا تراسله، وخياله يسرح ويمرح. يقال إن المسبّلين يلتصقون بعضاً ببعض وآخرهم بالشجرة، لكي يموتوا جميعاً في الميدان. أما هو فمتعلق بامرأة، كتعلق النسر بالقط أو القط بالنسر؟

تقدم الكولونيل باتجاههم. نهض النقيب وهو يمسح فمه، ألقى التحية العسكرية وصافحه.

بدا الكولونيل أكثر ميلاً إلى القصر، وعلى الرغم من سنيه الخمس والأربعين تقريباً، إلا أن ضخامة رأسه الصبياني ووجهه معدوم الشاربين والذقن وبسبب شعره شديد الشقرة، يبدو أقرب إلى الغلام. نشعر أنه مستعد دائماً للمعاندة والغضب، وإثبات قيادته، هذا هو. صوته يبدو غير متناسب مع قامته لا بل يجعل له هيئة متوحش. مع هذا، فهو شجاع، ويهمه أن يبدو ناجحاً ودقيقاً في مهنته، ونزق يوزع دون تمييز المدائح والتوبيخات. لا يحبه غربيه، وهذا يمكن استشعاره، فهو يعامله بخفة ويعتبره غير ذي قيمة، إذ يقود برأيه الفوج ظاهرياً.

– لقد رأيتك للتو، كيف تسلقت وقضيت على الهجوم المضاد. جيد. ألم تعد على اتصال مع دوبوي؟

– لقد أمرتني بعدم تخطي الهضبة.

– سننظر في ذلك. ليس من أسرى، أليس كذلك؟

رد النقيب بإشارة كنس للميدان. ليس هناك سوى قتلى ومحتضرين.

ابتعد الكولونيل مع أركان حربه. رفض النقيب القدح الذي قدمه له دلفيني، نفض الغبار عن بنطاله وسترته، جفف العرق عن جبهته، رفع للحظة قبعته العسكرية، حفّ قليلاً شاراته الثلاث المتسخة، التي تفصل العصابة السوداء عن اللون الأحمر للقبعة التي رسمت عليها وريقات النفل المثلثة الأوراق المذهبة. ابتلعت الشمس الألوان، غدت البزة رثة والتفتت حافة القبعة التي باتت تحمل آثار العرق. كان عليه مدح الكولونيل، سؤاله عن رأيه، تخفيف حدة انفعاله، وجعله يعتقد أنه اخترع البارود، لكان مدحه الكولونيل حينئذ بأكثر من كلمة «جيد» المخففة. دوبوي كان أكثر حيوية، فهو يعرف كيف يحول خروجه على الأوامر إلى ضرورات تكتيكية، إذ تقدم في الجبل لأنه انتفت أمامه كل مقاومة. كان على غريبه أن يستشعر ذلك ويلحق به، وما كان حصل حينئذ الهجوم المضاد. فقد قال دوبوي إنه لا يجب أن نترك لرجال القبائل المجال لكي يتنفسوا، واعتقد بأنه بذلك وفّر أرواحاً بشرية، ووافقه الكولونيل الرأي، كعهده دوماً، مفتوناً به. إنه لمدلّل حقيقي.

كتائب الاحتياط تتقاطر من جدار السور، تملأ الهضبة، وحدات الهندسة تدفع أمامها بغالاً محملة بالفؤوس، مناشير طويلة في علبها، صناديق من المتفجرات. رجال اعتمروا ما نهبوا من جلابيات وقبعات كبيرة من القش. عند اليمين، ما زالت بعض الأعيرة النارية تدوي في إحدى الوهاد. من أجل تعقب الهاربين في الأجمات، بعثوا بفرقة من

التركو، أطلقهم إغراء غنائم الحرب، لأن كل ما يسيطر عليه المشاة يصبح ملكاً لهم، القطعان والأسلحة والحبوب والنساء. كشفوا عن دموية غريزية، لذا تم تفادي إطلاقهم في القرى المحتلة، أو تركت لهم فقط بعض المنازل، كما ترمى العظام للكلاب. إذ أنهم ينهبون كل ما يمر أمامهم، ولا يتركون خلفهم لا غطاء طنجرة، ولا أداة مطبخ ولا حتى غمرة علف أو بعض زيتٍ ولا حفنة تين مجفف، ولا حتى قطة، لا شيء. فما لا يتمكنون من حمله، يكسرونه. غزوة حقيقية.

8

فكرة معاودة رؤية دينيف أبهجت غربيه. فدينيف يذكره بفندق ريجينس، عشاء نقباء القيادة العامة والمرابط. «أتتذكر أولغا؟» نعم، نعم، هيا. كان عليه الذهاب إلى منطقة القبائل، حيث كان دينيف مكلفاً بالتموين، من أجل رؤيته، ما زال عازباً، وما زالت له تلك النظرات الغاضبة، ناقماً على كل شيء ومتوقعاً أبشع المصائب.

يتخيله غربيه، فوق حصانه، موزعاً الشتائم على مساعديه وهو يصعد قافلته منحنحاً، فهو مجرد ضابط تموين وليس حتى وكيل مؤونة، ضابط صغائر حقير، أمضى حياته يفحص براميل النبيذ، أكياس الفاصولياء، أخبية الزيت، وصناديق السكر، ولكن بأي جلبة! قوافل من القناصة لمواكبة عرباته، فهو من كان يأتي بصناديق النبيذ الأحمر ويعود من الجزائر بالأخبار الجديدة، والصحف والرسائل، كما يحمّل بالرسائل الشفهية، كانت له خباياه، لاعباً دور بابا نويل. اختفى منذ نحو الأسبوع، ولكن كانت عودته متوقعة. وهذه العادة اليوم بالشهيق طوال الوقت، رافعاً

رأسه على نحو مباغت، مستعملاً تعبير «ها؟» كلازمة في كلامه، ممرراً التلميحات الفاحشة. ثم هذه الطريقة المزعجة في النداء: «هكتور، هكتور!...» ما إن يرى غريبه. فكلاهما برتبة نقيب ولكن الفرق أن غريبه يقود كتيبة. إنه لفارق بسيط. دينيف حاول التشبه بنقيب قوي كونه لم يشارك يوماً بلحظة هزيمة، حتى عند الاقتراب من باريس. إذ كانا هو وغريبه الناجيين الوحيدين من الفريق الصغير للوصاية على العرش: بيكار قتل في حين أن لا أخبار عن روجيه الذي سجن في سيدان.

الذباب يلسع لدرجة أنه يدمي، يلتصق بمؤخرات البغال، التي تحاول عبثاً قتله بذيولها التي شذبت. تعجّل في الوصول إلى إيفرحونن حيث سيوزع الرسائل.

منذ البليدة، لم تصل أي كلمة من مارغريت. لا ينتظر أن يصله منها سجل بيومياتها: فمارغريت تعلمت القراءة والكتابة بعد الزواج، إذ كان عليها فعل ذلك لدواعي النبل. تدبّرت أمرها، أخطاء إملائية، تعابير ضعيفة، غير أنها نجحت في ذلك، فلم يكن مطلوباً منها خطابات أكاديمية. هو، وخلال شهر، دأب على إرسال رسالة كل يوم: «نحن في المكان الفلاني، هاجمنا مجموعة من رجال القبائل، نموت من البرد ليلاً ومن الحر نهاراً تحدّثت عنك مع فلان وفلان...». أحياناً، تزعجه ذكرى مارغريت! لماذا لا تراسله؟ على الرغم من أنها تعرف عنوانه: الرابع - الزواويون قسم العمليات. هذا يكفي. مكتب الجيش يعلم كيف يوصل الرسائل. سأل بإلحاح عن رسائلها، لأن رسائله تصلها، هو متأكد. خلال الحرب في فرنسا، كان ذلك مفهوماً. يبدلون المعسكرت يومياً والفوضى تعمّ كل شيء، ومع ذلك، كان هناك ضباط وحتى رجال يتلقون رسائل

من الجزائر. أما هو فأبداً، لم يتلق أي رسالة. وعند عودته عاتبها: كان بإمكانك أن تخربشي كلمتين فقط، أن تطمئنيني عليك مثلاً، أو أن تعلميني بحال الأولاد، أنهم يتسلون مثلاً، لكنت سعدت بذلك... وعند مغادرته مرة ثانية إلى منطقة القبائل، وعدته، ثم كان الصمت، لا شيء. أقفلت على نفسها بنوع من الخمول الذهني الذي كان ربما إشارة لكسل عميق، وراثي: فإن كانت والدتها تتحدر حقاً من أصول عربية، فهؤلاء لا يكتبون إلا في المناسبات الكبيرة، وبأسلوب طفولي، للإعلان عن ولادة أو مرض أو موت. أما الباقي، فلا يعرفون عنه شيئاً، فهم ليسوا هواة مراسلة. يقضون أوقاتهم في تأمل السماء وإعداد الطعام والتحدث والتنهد. فالمشاة[1] لا يتلقون قطّ الرسائل، القُصَيري أيضاً لا يتلقى شيئاً من عائلته، أو أنه يقلب ويقلب الرسالة، خائفاً من فتحها، فيكلف أحداً فتح غلافها، ويجعله يقرأها بجمل قصيرة، مقاطعاً القارئ، طالباً منه معاودة القراءة من البداية. كم تحتوي من تطويل! كل الأخبار كانت جيدة ما عدا الأخيرة، الجميع بخير ما عدا الأب الذي توفي. الأمر نفسه مع مارغريت. فمع آل ألدابرام وبويشو، لا نفع للبريد. وهذا كان ليحبط من كانوا يحسبون جزءاً من كنزهم الثقافي مدام دو سيفينيي، بالزاك، فواتير، فولتير. كان على مارغريت أن تكتب على الأقل لتستعلم عن حال أخيها أنطوان. لا شيء. القدرية. أنطوان أيضاً لم يتلق أي رسالة من المزرعة. العجوزان، مفهوم أمرهما. أما لاتيتيا فتبدو مصابة بالشلل. أنطوان يجد ذلك عادياً. لكن هكتور يتعذب. إلا أنه سئم هو الآخر وتوقف عن الكتابة منذ شهر.

(1) المشاة وهم من العرب لأنهم من فرقة الزواويين التي أنشئت كفرقة مشاة من الجزائريين الذين يحاربون لصالح الفرنسيين.

9

داهمه شعور بالوحدة. عاد، يتبعه كريجيه خافضاً رأسه، لاهثاً قليلاً.

قل لي كريجيه...

سيدي نقيب؟

هل تتلقى باستمرار رسائل من زوجتك؟

أي سؤال هذا في اللحظة التي يقتربون منها من أول المنازل المشتعلة، ويتوجب عليهم الاحتماء من ألسنة النيران المتصاعدة عامودياً باتجاه السماء، حيث يمكن للهواء أن يحمل النار في اتجاهات أخرى!

«في كل مرة، يحملون البريد. إن مدام كريجيه...».

لا يقول زوجتي، وإنما مثل بورجوازي، المدام كريجيه.

«... تخبرني بكل ما تفعله، أين تذهب، ماذا ترى... وأنا أيضاً أخبرها عني. وعنك».

توقف وترك الزواويون يتخطونه. هذا الصمت، هذا الصمت... أما زالت الأحلام تحرك هؤلاء الرجال؟ كل واحد منهم يفكر في حياته الخاصة وفي أهله، هو يفكّر في حياته وأهله، بالإضافة إلى حياتهم وأهلهم. فهؤلاء الرجال تتوقف حياتهم عليه، وهو يحبهم، ولا يريد أن يقتلوا بسذاجة، بخفة أو من دون وعي، أو ببساطة إن لم يكن يجيد عمله جيداً، لكان بإمكانه أن يسوقهم جميعاً إلى الموت. عند أسفل المنحدر، في اللحظة التي كان في وسع الشجاعة وحدها أن تنقذ خارج كل المنطق، حيث يجب مواجهة كل شيء والمخاطرة بكل شيء لتحقيق أحلام أخرى، جرهم خلفه ودفعهم بالكثير من الشتائم والركلات، نحو التحصينات في الأعلى والأحجار والنيران التي تمطر. وهذا ما لم يفهمه الكولونيل. «جيد...»

فهو لا يعرف أن الأحلام معدية كالجدري.

خلف القرية، يتردد قصف مدفعي، يدوي في الوهاد، يقذف بالطيور الجزعة. تحلق جميعها في صفق أجنحة موحد، تتفرق عائدةً إلى السهل، تجذبها الشمس. نسور أو كاسرو عظام، أما الصقور فلا تتحرك البتة في جماعات.

«ولكن كريجيه، لو حصل لك.. لو أن... زوجتك مع ملازم في الجيش؟ نعتقد أنفسنا أقوياء، واثقين من أنفسنا...».

أحنى كريجيه رأسه مبتسماً. وعاود النقيب المشي.

النار التي أشعلها دوبوي انطفأت بشكل مفاجئ. كما في كل قرى منطقة القبائل، ليس هناك سوى طريق واحدة طويلة تمضي متصلة بين جدران من الحجارة المرصوصة، التي تتكئ عليها المنازل. أما المعلم الوحيد فهو جامع بسيط له مئذنة، وقد بني من الطين الكلسي الذي ينهار بقذيفة واحدة، وسطح واسع مفتوح على الجبل، حيث يجتمع الناس للتناقش في أمور القبيلة، أو ليدخنوا. الجَمعة مخصصة للأحلام، والجامع للصلاة.

باستغراب كبير، اكتشف النقيب أنه ما زال مغروماً بمارغريت، كان بالنسبة إليها حصانها، وكانت بالنسبة إليه نهراً لواديه، وسماء لجبله. لقد اشتاق إليها.

الفصل الثاني

الكرزات التي قطفت من البساتين المدمرة كان لها طعم لذيذ. استفاقت جروح العام 70، هزيمة سيدان، فرنسا المهزومة. العودة إلى الجزائر، لقاء مارغريت في بوفاريك.

1

«النقيب ألّير بعث لكم بهذا».

حبات كرز في سلة صغيرة من القش المجدول. ليس كرزاً إنكليزياً ولا داكناً حلواً رخواً ولا حامضاً أسود، بل كرزاً أحمر داكناً، لامعاً، صلباً، أشبه بقلوب صغيرة يذوب سكرها في الفم، حبات نابوليونية امتلأت بها البساتين، وقطف الزواويون عربات كاملة منها، وقدموا منها للجنرال.

إيفرحونن مشهورة بكرزها؛ لا تزهر أشجارها إلا في أبريل وتثمر طيلة شهر يونيو. لقد وصلوا في نهاية الموسم. حب الملوك كما يسميها العرب، أي فاكهة الملوك.

فرق الهندسة كانت قد بدأت بالعمل، كان بالإمكان سماع صوت الأشجار التي تنهار، فهي لا تصدر الكثير من الأصوات، تسقط ببساطة، بنوع من الصراخ المكتوم، وكأنها أشجار استسلمت أو أغنام ذبحت ما زالت مرمية على خاصرتها أو ظهرها، وقد تكسرت غصونها. أما أشجار الجوز والدردار الضخمة بجذوعها القاسية، التي نجت في العام 57، فقد أطلقت صرخة احتجاج هائلة، ما زالت تدوي وتدوي، وكأنها تعترض، وتأخذ من البشر والسماء شواهد، تطلب عون إخوانها، صدع وكأنه

خارج من أحشاء الأرض يوقف للحظات تنفس العالم، ثم تميل جانباً وتسقط مدويةً: بعضها ينشق جذعها من الجانب إلى الآخر، تنزلق قليلاً على المنحدرات ثم تشتبك بأشجار أخرى وتتوقف. لقد امتلأت بها منحدرات القرية. ينبغي الاسراع في قطف الكرز، مثل الزهور، قبل أن تذبل، فمن السهل التمييز بين تلك المقطوفة عن أشجارها التي ما زالت حية وبين تلك التي في طريقها إلى الموت: فهذه تبدو متغضنة، مضروبة، مفسودة في العمق، تافهةً أيضاً، ولكنه في النهاية يبقى كرزاً! أما تلك التي قدمت للنقيب فسليمة، غضة، لامعة بلون الفرح. هي لا تعرف. تعتقد أن أشجارها ما زالت تتحرك بفعل الهواء الذي يهزّ الخرق التي ربطها رجال القبائل بها لكي يبعدوا الكواسر.

لدى قسم الهندسة الكثير من العمل: آلاف الأشجار. بعد ذلك، وإن لم يفهم المتمردون...

«استغل الأمر يا كريجه. كرزات كهذه ليست لك، بل عليك أن ترسلها...».

أخذ حبتين، وسحقهما بين أصابعه واستخرج سائلهما أمامه.

«... سلة للسيدة كريجه. هذا سهل، عبر النقيب دينيف».

في إيفرحونن، لن يتركوا هذه المرة حجراً فوق حجر، كي يتذكر الكروميون في البساتين، ما زالت فرق الحطابة تعمل. وبالنسبة للقرية، في البداية غنم كل ما يمكن أن يخدم، الماعز والحمير التي لم يتمكن السكان من جرها معهم عندما هربوا، كدس الغنائم، ثم كان على فرق أخرى أن تتوزع العمل: تعرية السقوف القرميد، تحطيم هياكل المنازل، تكديسها، إفراغ الجرار والخوابي، تحطيم الجدران بالمعاول. تنهار السقوف أرضاً

محدثة غيوماً من الغبار، وتنسد الأزقة، وتصبح القرية كتلة من الردم والعوارض الخشبية والقرميد؛ وأخيراً، وعند الإشارة، تضرم النار فيها، لم يكن ذلك سهلاً بوجود كل هذه الحجارة، يجب تزكية النار بسكب الزيت والوقود. عادة، تحدث الحرائق رواح كريهة، خاصة إن كان هناك حيوانات ميتة. بعد ذلك، وفي مكان أبعد، على الطريق حيث كان الجيش مخيماً، بدأوا بإعداد الطعام.

هنا، كل فرقة تشوي غنمة. والمطابخ تفيض بالخضار واللحم. التركو، الأكثر عنفاً، يغنون الأغنيات العربية، مصفقين بأيديهم.

وصل النقيب إلى طريق الصخر المتبلّر والرخام المتناثر، تسلق إلى أعالي القرية. بالقرب من المسجد الذي أمكن تحييده من الحريق، كان سقف الجامع يستند إلى عواميد من الحجر المرصوص. وعندما يصفر الهواء، تُبسط السجاجيد للاحتماء منه. عادة، يقرفص الرجال على صفائح الصخر العريضة، مسندين ظهورهم إلى الإفريز الصغير الذي يطل على القمم. من هنا، يمكن مراقبة كل القادمين.

عاد الخيالة جارين أمامهم حشوداً من النساء، أولئك اللواتي من المفترض أنهن أطلقن زغاريد الحرب ثم تأخرن كثيراً في الهروب. فتجمعت فرق الجيش لاستقبالهن.

«هلّا ذهبنا لنرى، سيدي النقيب؟»

هبطا الممر عامودياً ووصلا إلى قمة التلة، حيث شُيّد المبيت المؤقت للعسكر، أبعد قليلاً عن مقبرة يمكن التعرف عليها من خلال شواهد القبور المنتصبة، حيث ترعى بغال التموين التي أفرغت من حمولتها. أحاط القناصة بالنساء وتوقفوا. تقدم قائد الخيالة بعدوٍ خفيفٍ باتجاه القيادة

العامة حيث كانت تصدح الموسيقى.

سيعرض نفسه للتوبيخ، قال كريجه.

– هل كنت لتقتلهن أنت؟

– لا أعرف. هكذا، عندما لا نعود في قلب العمليات...

– ليس عليه سوى تركهن يهربن. ماذا كنت لتفعل الآن في مكانه؟

– معك، الآن، سيدي نقيب، ما عدت أعرف شيئاً.

– ولكن هذا واضح، قال النقيب. عندما تنتهي الحرب، نعود إلى قواعد أوقات السلم. هل يمكن أن تضرب فتاة، أنت، بدم بارد؟ وماذا عن السيدة كريجه؟ هل تسمح لك بذلك؟

– السيدة كريجه، السيدة كريجه...

«هذا الحقير»، فكر غريبه، «كنت واثقاً...».

ما زالت بعض الأعيرة النارية تتردّد في الوهاد. عند منحدرات البساتين، صوت سقوط أشجار، صرخة أقوى من نعيق النسور، احتجاج يملأ الأرض ويصل للسماء. في قلب ضجيج الظلمات وجلبة الكتائب التي تتمركز، كان الحب يعذبه، هو، هكتور غريبه، القائد – على الرغم من أنه ليس سوى نقيب – للكتيبة الثانية من الشعبة الرابعة للزواويين! لقد بات الآن مقتنعاً– ولكن هل شك في ذلك يوماً؟ – بأن المرأة في الحلم لم تكن مارغريت. في الأحلام، كل شيء يدور فوق خشبة مسرح سحرية، كل شخصية فيها تتخاطب أفكارها مع أفكار المتفرج. تذكر بأن هذه المرأة قالت له إنها ليست كسائر النساء. لذلك فقد تمدّدت إلى جانبه، التصقت به، اخترقته، ناعمة، رطبة، كليل مليء بالنجوم فوق البحر، مليء بالعوالم الماورائية التي لا نهاية لها. صحيح أنه تبدل! ليس بسبب الحرب

وحدها...

2

يتذكر التاريخ الدقيق للحدث. في البداية سرت الشائعة. لم يكن أحد يريد أن يصدق، ثم، في مركز بلدية إحدى القرى، كان الإعلان: «أيها المواطنون، لقد أعلنت الجمهورية، وتم التصويت على الحكومة». عليه أن يعترف: كل شيء بات ممكناً لأن البلاد غرقت. اقتربت اللحظة، التي بدأت فيها الباخرة التي تغرق، تجرّ معها الأرواح التي لم تكن تملك حسّ الخلاص.

بالنسبة إلى هكتور، فقد نجا. فمنذ سيدان وحتى قبلها. في ميدان سبيشرن، حيث كانت تجري عمليات القيادة العامة، منذ أن ترجل الإمبراطور الذي كان في حال سيئة عن حصانه، وركب عربته، متكئاً على يد ضابطه المعاون، التي أوصلته إلى فورباخ حيث نقله القطار إلى متز مع الأمير الإمبراطوري[1].

في هذا اليوم، الأربعاء 31 اغسطس، إذ لم يعد لأيام الأسبوع قيمة ولكن كيف يمكن نسيان ذلك التاريخ؟ فقد صدف انتقال هكتور إلى القيادة العامة لماك - ماهون، في مدرسة في القرية حيث الفوضى عارمة،

---

(1) يقصد بذلك الحصار الذي تعرض له الإمبراطور نابليون الثالث من قبل الألمان في معركة سيدان الشهيرة، حيث وجد نفسه وسط جنوده المحاصرين، فأمر ضباطه برفع العلم الأبيض لإنهاء المجازر. وأرسل إلى ملك بروسيا الكتاب التالي: «بما أني لم أتمكن من الموت مع جنودي أضع سيفي على أعتاب جلالتكم». وقد وقعت معركة سيدان خلال الحرب الفرنسية البروسية بين الجيش البروسي والجيش الفرنسي في 1 سبتمبر 1870. وفي هذه المعركة لم يستسلم الفرنسيون بسهولة، بل اشتدت المعارك وتساقط القتلى من الطرفين. وأخيراً اضطر الإمبراطور نابليون الثالث للاستسلام، وتم القاء القبض عليه.

وحيث يستعمل الجرس لنداء الجواسيس. أراد المارشال منه أن يذهب إلى الجزائر، وبشكل طارئ، لينقل تعليماته إلى الحاكم المؤقت، لأنه لا يزال هو الحاكم. انتاب هكتور شعور بأنهم يحاولون التخلص من المتشدق الذي كانه، والذي لم يتعظ من فقدان كتيبته، التي اختفت في كروم وادي لوتر مع قائدها القوي الكفؤ الذي لم يكن لديه وقت ليقول أي كلمة. «لقد تم اختيارك، هذا هو نص مهمتك ورسالة المارشال. مهما كانت خيبتك من الابتعاد عن كتيبتك، فكن فخوراً بالثقة التي منحت لك. سيؤمن لك أمين الصندوق مصاريف الانتقال. عد ما إن تستطيع ذلك. وكل شيء سيتضح لك أكثر، أتمنى لك التوفيق». حتى إنه لم يمد يده لمصافحته. ألقى فكتور التحية مشدوهاً. هذا ما نعيشه عندما تهبط الكارثة علينا. نقول لأنفسنا: هل أنا حقاً هنا؟ إننا نحلم. نتقدم آلياً فوق رمالٍ متحركة. نرغب في الاتكاء على شجرة، ويبدو لنا كل شيء يترنح.

يوم آخر للذكرى أيضاً هو العاشر من سبتمبر، لأن الوقت كان قد تخطّى منتصف الليل. يتقدم سيراً على الأقدام لأنه ترك حصانه الأخير منذ وقت طويل أمام محطة نيفير ليستقل القطار الذاهب إلى تولوز: ظرف كهذا! سكك الحديد توقفت عن العمل وعن جدولة رحلاتها، ينتظرون الجرحى، قوافل عسكرية تنقل عربات كاملة من سلاح المدفعية باتجاه الجنوب لإطلاقها على البروسيين. سلسلة من عربات المسافرين المزدحمة. إلا أن رسالة المهمة التي وقعها ماك – ماهون تمحي كل المشهد وتسيطر على تفكيره. اكتشف هكتور مقصورة في المقدمة، حدج الركاب المتكدسين بنظرة غاضبة ودخل. كان ما يزال يحمل سيفه. إنه في النهاية سيف، لأن سيفه الخاص بقي في المعسكر، وما عاد يعرف أين هو. إذ كانوا يبدلون

السيوف كالجياد.

هنا في محطة نيفير[1]، علمت سيدان، من خلال لافتة إعلانية من مقر ولاية آلية[2]، تحت عنوان عريض بحروف بارزة: الجمهورية الفرنسية: «هذا هو نص استسلام سيدان[3] كما نشر في الصحف الألمانية». هل يمكن تصديق صدمة كهذه؟ الصحف الألمانية توزع في فرنسا! وربما كانت الجمهورية هي واحدة من أكاذيبهم. الناس يقرأون الإعلان بصمت ثم يبتعدون. بدا النص حقيقياً: طوّق الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال ويمبفين، بفرق عليا، واعتبر أفراده أسرى حرب. وقد وقّع على الإعلان كل من مولكت وويمبفن[4].

في القطار، بدأت الفكرة تجول في رأسه. أخرج الركاب الطعام من سلالهم. هو لم يأكل منذ الأمس وأحد لم يقدم له حتى قطعة جبنة. يقال إن هناك ثورة في مرسيليا. بعد أن مرّ بمدينة ليموج، قرر فجأة، أن يتوقف في أي مكان.

كانوا يتحاشون لمسه، وحتى إنهم لا يرونه، فهو غير موجود بالنسبة إليهم، نفخوا الدخان في وجهه، وعندما كانوا يمرون بجانبه، يصطدمون بالسيف الذي لم يتخلّ عنه: إنه خشبة خلاصه. في زاويته، مختبئاً تحت قبعته

---

(1) Nevers مدينة وسط فرنسا، تقع فيها محطة قطار.

(2) Allier مقاطعة فرنسية تقع في منطقة Auvergne وسط فرنسا.

(3) هي المدينة الفرنسية التي وقعت فيها المعركة الشهيرة المعروفة بمعركة سيدان خلال الحرب الفرنسية البروسية بين الجيش البروسي والجيش الفرنسي في 1 سبتمبر 1870، وأسفرت عن القاء القبض على الإمبراطور نابليون الثالث.

(4) الجنرال إيمانويل ويمبفن (1811– 1884) ينتمي لواحدة من أقدم العائلات الأرستقراطية في أوروبا، وهو جنرال فرنسي في الحرب الفرنسية الألمانية، وعرف بتوقيعه لشهادة استسلام الجيش الفرنسي في معركة سيدان. أما مولكت فهو القائد العام للقوات البروسية.

العسكرية مثل ميت، لم يحلق ذقنه منذ يومين، هو الذي لم يكن يحتمل ذلك، بقي جالساً بلا حراك، أمام الإشارات التي باتت أكثر وضوحاً واستفزازاً: رجال الحرب أولئك الذين ركعوا مستسلمين، وهربوا بأسلحتهم وبضائعهم، وهؤلاء المارشالات الذين اختفوا. أين كان ماك – ماهون؟ مصابٌ؟ ضمّ يديه حانقاً على مقبض السيف وتشبث بحزامها. روائح نقانق بالثوم ونبيذ يسيل في الأقداح. هل يذهب هؤلاء الناس لرؤية أقربائهم، مع كل هذه الحقائب المقفلة بالأسلاك والجيوب الممتلئة؟

لمع في رأسه اسم الجنرال دو رواي الذي يسكن بالقرب من كاهور. مع ظهور أول الخسائر بدأ يتكلم مع الضباط عن الجنرال دو رواي الذي ما عاد أحد يعرفه، وكأنه الشخص الذي يمكن أن يأتي بالخلاص. لقد توفي سانت – أرنو أما الجنرال دو رواي فما زال حياً، لا يجب أن يكون قد تخطى الستين. سيعاود الظهور بسلطات استثنائية، حاملاً السوط ينسف به جزءاً كبيراً من القيادة العامة ويخلص الوطن من الخطر، يعيد تنظيم كل هذه الفرق التي جعلتها مواجهة واحدة مع العدو تنهار، ويغير الأساليب والقادة. كان قادراً على فعل ذلك. في نهاية أغسطس، سرى الخبر بأن ستمئة ألف أمريكي وصلوا إلى بوردو لفكّ الحصار المضروب حول باريس.

يا إلهي، عليه أن يترجّل أولاً من هذا القطار؛ أن يسد أذنيه، ويدّعي الصمم. على طول الخط، الناس مهتاجة.. بعد الإشارات التخوينية، تأتي تلك الساخرة. في الممشى، رجل طويل شبه بدين، داس على قدميه دون أن يعتذر منه.

أي هيئة باتت له! بلا الكتفيات. فمنذ أول معركة، أحالوه على التقاعد.

أوامر وجهت للضباط بخلع شاراتهم. أما الحقيبة العسكرية فغدت جعبة صغيرة تتسع لحاجياته الشخصية. معداته الحربية بقيت في الإلزاس وما عاد يحمل قفازات ولا هذه الشارات التي تمتد مجدولة، حتى ساعده مع الساتان الأحمر المتآكل للزواوين. نام طويلاً تهدهده ارتجاجات الطريق وهو يشعر بالنظرات المحملقة به تلتهمه.

3

في كاهور، أفاق بهدوء، لن يقول لهؤلاء الناس: «أنا ذاهب، حتى لا أحطم لكم وجوهكم»، ترجل بهدوء، وخرج من المحطة. هبط الليل. استعلم في المقهى. هنا لا يفاجأون بضابط يبحث عن جنرال. ثم قالت له امرأة: «آه، أجل، الماركيز...». في بلدة على بعد عشرة فراسخ. لم يكن وارداً بالنسبة إليه أن يذهب ليطلب مساعدة العسكريين في الساحة؛ سيستجوبونه وسيتشككون به، وحتى موضوع بحثه سيبدو مشبوهاً. قد يعتقدون أنه ذاهب للاختباء. أن يستأجر عربة؟ تصادف أنه وصل في اليوم الوحيد الذي عادت فيه عربة الجياد البائسة الوحيدة التي تنقل الناس للسوق، إلى ليمونْي، وذلك بسبب الأحداث. ومالك العربة لم يكن متحمساً للذهاب، فجياده كانت في المستودع. ولن يصلوا إلى ليموني قبل الليل. قصر الجنرال يبعد ساعتين من هنا. «كم تريد؟» سأله هكتور. هذا التافه يطلب مني أجرة عربته القديمة البالية بكامل مقاعدها. «أتسخر مني؟» ثم فكر هكتور. بمَ تنفع المساومة؟ مع التنقلات المجانية في القطار والباخرة لن يتكلف كثيراً أجرة رحلة العودة. فقد دفعوا له مسبقاً بدل تعويض خمسة عشر يوم عمل لضابط حقير معزول. «حسنا، فلننطلق

مباشرة». فأحضر الرجل عربته المسرجة: غطاء قضمته الفئران لا يمكنه أن يحجب المطر ومحاور عجلات متآكلة. جلس هكتور ممتعضاً على مقعد معلقٍ بنطاقين جلديين، يأكل الخبز ومعجون الكبد التي اشتراها من المقهى، هناك حيث حلق أيضاً ذقنه بسعر مخفض.

وأخيراً تحركت العربة، وجلس صاحبها قبالته. أسوار الكاتدرائية، الطرقات، الجسر الجميل، المدينة الجميلة المحظوظة. ثم الطريق التي ترتفع باتجاه الهضاب التي ارتقوها ببطء شديد. ثم عند المنحدر الكلسي، بدأ الحصان يعدو. بدا الرجل يتحرق شوقاً لمعرفة ماذا جاء يفعل النقيب هنا، ولكنّ النقيب آثر الصمت. اقترب الخريف وأمست النهارات أقصر والليل يهبط قبل السابعة. «نحن محظوظون، فالقمر ما زال مكتملاً، يمكنك أن تراهم، هل هم في انتظارك؟». لن يسرد قصة حياته لرجل لا يعرفه. «ستنقلني إلى القصر»، قال هكتور ورفع سيفه ثم تركه يهوي، «سأعطيك فرنكين إضافيين». ساد الصمت. «ها نحن في زمن الجمهورية»، قال الرجل، «لقد مضى عليها ستة شهور، من يصدق؟ الجنرال تروشو[1]، هل تعرفه؟ أهو حقاً عبقري؟ الناس هنا لا تحلف إلا باسمه، لأنه حسب ما يفكرون، هو رئيس الحكومة وبيده الدفاع الوطني والصلاحيات الكاملة

(1) Louis Jules TROCHU (1815 – 1896) الجنرال تروشو، هو رئيس حكومة الدفاع الوطني الفرنسي بين 1870 و1871. وكان من معارضي نابوليون الأول، لكنه وخلال حرب الفرنسية البروسية عام 1870 انخرط مع جيش الإمبراطور نابوليون الثالث، ونظراً لظروف المعركة، نصح الجنرال تروشو الإمبراطور بالانسحاب الإستراتيجي إلى باريس، سُمع رأيه وعين حاكماً لباريس التي عاد إليها ليحضر إعلان الانسحاب لكن نابوليون عاد ومضى في تقدمه باتجاه ميتز وسيدان حيث كانت المعركة التي منيت فيها القوات الفرنسية بهزيمة كبيرة وسقط بنتيجتها الإمبراطور في يد البروسيين. من بعدها عين تروشو قائداً لكل القوات الموكلة الدفاع عن العاصمة، وتلاها إعلان النظام الجمهوري من باريس وتشكيل حكومة الدفاع الوطني التي جاء رئيساً لها.

وسوف ينظم كل شيء. وهذا ما استبعده. أنت لا تحبذ ما أقوله؟ يبدو من لهجتك أنك من هنا. تروشو أليس كذلك، الجنرال تروشو، استدعاه الإمبراطور ليسهر على أمنه وأمن الإمبراطورية. وبعد خمسة عشر يوماً، فرّ الإمبراطور إلى لندن، فتحول الجنرال إلى الجمهورية. غداً، سيتحول إلى ماذا؟ بالنسبة إلي الجمهورية، إنها حيلة حربية لإثارة شفقة غيوم على مصير قريبه نابوليون الثالث. في غضون ستة أسابيع، سنشهد عودة الإمبراطورية، ماك – ماهون وبازين سيلتحقان بتروشو. لم يقولا كلمة واحدة، هذان الرجلان. أليسوا جمهوريين في الجيش. أنت ربما؟ ألن تقول شيئا؟».

انحنى الرجل على سائق العربة. «أسرع، فيرمين، لو أمكن. فالنقيب مستعجل». «إن كانوا ينتظرونك للعشاء، فهذا...».

اتكأ هكتور على المقعد ونام.

أفاق عندما هزه السائق. لقد وصلنا. أصبحنا على بعد كيلومتر واحد بالكاد. «توقف!». لا، ما عاد يريد أن يوصله إلى القصر. ففي هذه الساعة، مع هذه العربة الفاخرة، وهذا الحوذي الذي يزأر، أي صلافة ستكون! أخرج محفظته وعد القروش ثم سحب أوراقاً نقدية من جيبه. كل شيء واضح كما في وضح النهار. على بعد عشر دقائق مشياً، عند الشمال، طريق واضحة جداً في قلب غابة سنديان أخضر. على ضوء القمر المشّع، تعرّف المنزل بسرعة. ساعد الرجل الحوذي على جعل الجياد تستدير، ابتعدت العربة وسط قرقعة كبيرة تلاشت رويداً رويداً.

4

على جانبي الجادة، أشجار قزمة معوجة الجذوع، لها وريقات لمّاعة قليلة الكثافة. بسبب جفاف التربة، والحصى في كل مكان، والسماء العالية المصفرّة، قد يحسب المرء نفسه وسط طريق سهلية في الجزائر. لا ينقص سوى الجبال في الأفق وصرخات بنات آوى. وربما بسبب عذوبة الهواء أيضاً. ولكن النجوم تبدو مخنوقة بضوء القمر الهائل المتجعد، المحمر قليلاً، قمر الحروب الذي يحمل المآسي، قمر جمهوري. وإن خدعه الرجل؟ وتركه هنا للتخلص منه؟ ولماذا أيضاً أنزله قبل القصر؟ عندما لا يكون هناك من ينتظرنا، لا يمكننا أن نصل في ساعة كهذه، وبث الذعر في منزل بكامله.

مشى. في البداية بهدوء، مذهولاً لكونه يمشي وحده، وبعيداً جداً صدح نعيق البوم[1] التي كانت تتنادى، وصوت طرطقة الكعوب. جميلة جداً الأحذية النصفية عندما يكون لدينا حصان، وأكثر، عندما تكون طرية بأربطة تشدها جيدا. لكن من أجل المشي، كان من الأفضل له انتعال حذاء طويل. مع سيفه بيده اليسرى وجعبته بيده اليمنى، وجد نفسه هزلياً بعض الشيء. ولذلك، ولكي يبقي إحدى يديه حرة، علق الجعبة بحمالة السيف، ولكن مع كل خطوة كانت ترتطم بخاصرته، لأنها لم تكن مثبتة بشكل جيد. ثم خلع قبعته العسكرية. ها قد وصل إلى الطريق بأسرع مما كان متوقعاً، هناك ممر ضيق عند تخوم الغابة حيث يبدأ جدار من الجدران المرصوصة وسط أشجار الدردار الضخمة. توقف.

(1) وهنا يقصد تحديداً القطط الصارخة، وهي نوع من البوم الذي يعيش في أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا، له فرو رمادي أو أحمر.

لن يقابل الجنرال وهو مغطى بالغبار على هذا النحو؟ نفض قبعته ومسّد شعره، وبيده نفض أطراف سترته وظهر بنطاله. أما الحذاء، فلا شيء يمكن مسحه به. ثم عاد ليمشي بسرعة أقل على الطريق شبه البيضاء، بين جدارين غير متوازيين، متداعيين في بعض مواضعهما، وقد شيّدا بالحجارة نفسها التي تملأ المكان. أهذا قصر؟ برج مربع، جامد وغير شاهق، عند زاوية مبنى بطابقٍ واحد، تعلوه ألواح قرميد لامعة صغيرة. وكأنه واحد من المباني الشعبية العامة. في الخلف سقف كبير من القرميد المسطّح الذي قد يكون المستودع والإصطبل. مزرعة إقطاعي غسقوني[1] صغير، لرجل من آل رواي يذبل في الداخل مع أكاليل الثوم والبصل؟ لمن كانت القصور الكبيرة لأسلافه المملوءة بالدروع والمفروشة بالسجاد، تطل على حدائق فرنسية ومنتزهات من أشجار الزيزفون المعمرة؟ فقط ما يتسع لسيف ذي حدين ولإلقاء لورينزاكيو[2]. مكان هزيل لفارس متقاعد.

دنا من القصر. لا كلاب. لا عربات. من شباك في الطابق السفلي، من خلف المصاريع، يلمع ضوء باهت جداً كضوء الساهرة[3]. ألم يناموا بعد؟ البوم تنعق بصوت أعلى فالقمر يثيرها. إنها مدعاة للشؤم. تقدم النقيب جاعلاً خطاه تتردد في المكان. المدخل من الجهة الخلفية الجنوبية. سياج مفتوح جزئياً، حديقة من العشب المشذّب، بقايا نافورة، حوض صخري فارغ نصف مكسور، تحيط به أشجار الطقسوس[4] الهزيلة وشجرة صنوبر

(1) غسقوني، أي نسبة لمنطقة غسقون (Gascon) جنوب غرب فرنسا.
(2) Lorenzaccio عمل مسرحي شهير لألفريد موسيه (1820 – 1857).
(3) الساهرة مصباح صغير يترك مضاءً طيلة الليل.
(4) الطقسوس هو نوع من أشجار الزينة.

سوداء يبدو أنها تعاني الجفاف. لن يقرع الباب الرئيسي تحت المدخل المزخرف. عاد خطاه، وطرق بهدوء على نافذة الطابق الأرضي بالكاد مضاءة، وتسمّر في مكانه. لا جواب. قرع مرة أخرى، أقوى، بضربات متباعدة ثم عاد إلى الأسيجة. شُقّ الباب قليلاً وفي العتمة وفي ظل القمر، تبين له ظل امرأة قصيرة، إنها خادمة على الأرجح، بثيابٍ سوداء تصل حتى الكاحل.

«أهذا منزل الجنرال دو رواي؟».

لا جواب.

«هل الجنرال هنا؟».

صمت. إن لم يقل شيئاً ما...

«أنا معاونه السابق في الجزائر، النقيب غريبه. مررت من هنا. لا تزعجيه بالطبع. إن كان هنا، فسأنتظره حتى الصباح، ولو أذنتم لي سأستريح على كنبة».

فتحت الباب بشكل أوسع وأخذت تنظر إليه. ربما طمأنتها لهجته أو شارته العسكرية. ثم عادت المرأة أدراجها واختفت في العتمة. خطوة ثم أخرى وبحذر، متحاشياً أن يحرك سيفه، هذا النصل الضوئي إذ كان واقفاً فوق لوح صخري منحرف. وجد نفسه وحيداً مرة أخرى. استدار باحثاً عن القمر. عادت المرأة تحمل شمعداناً ممدوداً أمامها. امرأة قصيرة لا عمر محدداً لها، تضع وشاحاً حريرياً على شعرها. تقدم خلفها في الرواق بخطوات واسعة غير متناسقة. وفي النهاية، دفعت المرأة باباً آخر، وأضاءت شمعة أخرى فوق منضدة وذهبت. كنبات لويس الرابع عشر غير المريحة، الدقيقة الأطراف والمروسة. مناضد صغيرة ولوحات وستائر

تبدو رمادية وشبابيك من المفترض أنها تطل على مصطبة. القليل من السجاد، بيد أن الأرضية جميلة من خشب السنديان ببلاطات متقاطعة. ومكتبة خشبية. لم تكن المصاريع مغلقة والقمر يضيء مساكب إبرة الراعي وتعريشة الورد. عطن الغرفة المقفلة يذكره بمنزل عائلته: هنا رائحة خشب الأثاث ليست كتلك التي في الشمال: يبدو وكأنه التقط رائحة زيت الزيتون وإبر الصنوبر والأوراق المسننة للسنديان الأخضر وثوم الطعام، إلا إذا كانت تلك رائحة الخادمة. كل هذا الغموض... أهي خرساء؟ «لا أريد أن أزعج...» غادرت قبل أن يكمل جملته، حاملة الشمعدان النحاسي، جارة وراءها لهبه الصغير، دمعة ذهبية حمتها بيدها النحيلة.

السقيفة بالكاد تقرقع تحت عوارضها الخشبية. خطوات أخرى، أسرع من خطوات الخادمة التي تمشي من دون أي ضجيج، كخطوات هرة. هناك كنبة يمكنه أن ينام هنا أو على الأرض، بعد نزع حذائه. نزع جعبته، مسحها بطية كمه، ثم نفض سريعاً الغبار مرة أخرى عن ثيابه. فمن خلال كل هذا الصمت، يبدو أن الجنرال هنا وربما أنه سهران، إلا إذا كان مريضاً. فهو متعب دائماً، حسب الرسائل. لم يكتب يوماً كلمة واحدة. فهل يمكن اعتبار هذه الصرخات اليائسة التي تحاصر الجبل حياةً؟ لقد أخطأ الجنرال بمغادرة أفريقيا رافضاً حرق الأدغال بشكل مجاني. ولكن هل سيكون سعيداً بلقائه؟ هل سيكون مخطئاً بالعودة لاستشارة معلمه الروحي؟ ماذا سيقول بعد عشرة أعوام تخللتها كل تلك المآسي؟

حاول النقيب أن يتذكر جبهته العريضة المتعجرفة، شعره الكثيف الرمادي، نظرته الحادة، ذلك الرجل القصير الدائم الأناقة من دون تكلف، فقط ما يكفي للتذكير برتبته من دون كل هذه الشارات التي

يضعها الجنرالات الآخرون ذوو البناطيل الضيقة، وعادته بتسليط نظراته الساخرة على محدثيه، والالتفات المفاجئ باتجاههم مواربًا نظراته قليلاً... جال بنظره على الجدران: لا صور له. يا لرواية الحملة الصغيرة العقابية هذه، كما لو أن رحيله بدّل شيئاً في سياسة الحكومات الحربية أو في سلوك العرب! هل هو هنا فقط؟ وحده؟ السيدة دو رواي[1]، هي الوحيدة التي يفكر بها هكتور، هل تمكنت من مقاومة هذه البطالة وسط هذا القفر؟

لمع ضوء عند الباب. هناك من يقترب. وقف منتصباً. ظهر شمعدان فضي مزدوج ثم وجه امرأة شديدة البياض لها وجه مثلث يعلو فستانها الداكن: رموش ما زالت شبه مغلقة تفتح فجأة على عينين واسعتين سوداوين كعيني طائر ليلي. تقدم خطوة. هل هذه هي؟ ما عاد يتذكر. أكانت ممشوقة القامة إلى هذه الدرجة؟ نحافتها تظهر جلية عند الصدر نصف المغطى بقميص مفتوح عند نصف كتفيها، يكشف عقداً عريضاً من البلاتين.

وفجأة، أضيء الوجه. واستقر وهج الشمعدان.

5

انحنى. اقتربت بسرعة مع صوت حفيف ثوبها، وضعت الشمعدان على المنضدة، جمعت يديها عند صدرها وأخذت تتأمله.

«قالوا لي إنك عسكريّ. اعتقدت أنه واحد من الحرس الوطني في فيلفرانش».

(1) يؤنّث الكاتب لفظ «الجنرال» في تسمية السيدة دو رواي، ليصبح «الجنرالة» لكننا آثرنا استعمال اسمها بدلاً من ذلك.

الصوت المخملي نفسه بذلك الرنين الفاخر.

– لقد كان نيكولا عضواً فيه، أنت تعرف إذن؟

– ماذا؟

– من أين تأتي؟ لقد غدرك الليل؟ لم تأت مشياً على الأقدام على الأقل؟

– جئت من سيدان.

– يا إلهي... كل شيء ضاع، أليس كذلك؟ هل تناولت عشاءك على الأقل؟ تعال.

اختطفت الضوء، لحق بها بحماسة في الرواق، فتحت باب حجرة الطعام المصنوعة من خشب الكستناء، ركنت الشمعدان على المنضدة الطويلة المصقولة، وأضاءت شموعاً أخرى.

«تفضل بالجلوس، سوف أعود».

واختفت. سمعها توزع أوامرها بصوتٍ مرح. عادت ووضعت أمامه إبريق خمر زجاجي وكأساً طويلة من الكريستال.

«اشرب، أتذكر أنك تحب هذا».

وعندما تردد، تناولت كأساً أخرى من الخزانة.

«سأشرب قليلاً معك».

سكب النبيذ بتحفظ، لم يجرؤ على النظر إلى توهج صفائها. قربت كأسها للحظة من شفتيها، مثبتة نظرها عليه.

النبيذ يذكر ببرايساك[1]، بحدة أقل، محتفظا قليلاً بطعم البراميل وخلفها رائحة الصنوبر.

(1) Prayssac مقاطعة فرنسية، في منطقة ميدي بيرينيه.

- لم تكن واضحاً تحت الضوء، كدت أخطئ، لقد تغيّرت ملامحك.

- قصصت شاربي عندما أسروا الإمبراطور.

- يا للعار! أكنت تتوقع ذلك؟

لم يجب. هز كتفيه. هل سيتكلم عن ذلك؟ لقد تألم كثيراً.

«ليس فقط بنية جسمك»، استدركت. «أهو الزواج أم الحرب، أم الاثنان معاً. هل وصلتك أخبار من... البليدة؟»

لماذا تتردد في لفظ اسم مارغريت؟ يشير إليها بالنفي. ربما تكون مارغريت قد راسلته. لكن كيف كان بإمكانه تلقّي الرسائل؟ فهو دائم التنقّل. ما عاد أحد يعرف أين توجد الشعب، وبالطبع الأفواج.

- سأعود، إن كان ما يزال هناك بواخر، لقد كلفوني بمهمة في الجزائر. لذلك مررت من هنا.

- لماذا لن يكن هناك بواخر؟

قام بإيماءة غامضة. إن لم يعد هناك جيش، لماذا سيكون هناك بواخر؟ إن كانوا قد فقدوا كل شيء؟

- أفهمك تماماً. أنا أيضاً ما عدت أحتمل، أريد أن أرحل. وأذهب لأعانق ابنتي بالمعمودية التي أتشوق للتعرف عليها ومعانقة أمها.

- وهل سيسمح لك الجنرال بذلك؟

رمقته بنظرة غريبة. اتسعت عيناها بالطريقة نفسها في لحظة تعرفها إياه هذا المساء، شعّتا ثم انخفضتا.

«لقد تركني نيكول... ليس كما تظن. لم يكن رجلاً يحتمل الخيانة. لقد توفي هذا الصباح. بالأحرى صباح أمس، بما أننا انتقلنا إلى يوم جديد. أنت أتيت من أجل...».

لم تكمل جملتها. اختنق صوتها وبات كقرع أجراس الكنائس. ورغم ذلك لم تذرف أي دمعة.

«قد تظنني معدومة الإحساس».

دخلت الخادمة، ووضعت مفرشاً للطاولة وطبق لحم خنزير بارد، خيار صغير، طبق سلطة، خبز بلدي كبير، وصحن مربى. وخلف صوت حركة الخادمة الخفيف أصوات نحيب بعيدة ولكن حادة.

«أنت بحاجة إلى الطاقة. تفضل كل. فيلوميل، حضري لنا القهوة. سأناديك عندما أحتاج إليك».

بدأ بقطعة اللحمة. مضغ بصمت، ناظراً إلى طبقه، هرباً من الكتفين شبه العاريين والعقد، لم يكن ذلك سلسلة صغيرة من البلاتين بل صفاً ثلاثياً من اللؤلؤ.

«أنت تعرف خصاله. لم أملك بعد الجرأة لأبدل ثيابي. هذا المساء، طلب بشدة أن يراني متزينة وكأننا نستقبل ضيوفاً، بالحلى التي أهدتنا إياها أمه، على طريقة آل رواي كما كان يقول. أنت محظوظ: ما زال هنا. كان يحبك. كان يقول لي دائماً: «رجلي غريبه، سترين... لقد كنت...»».

هل كانت تبحث عن الكلمة أم أنها تحاول إخفاء مشاعرها؟ تهيأ له أن صوتها داخله شيء من التهدّج.

«كنت فرداً من عائلته أكثر من عائلته نفسها التي تمناها. شخص منسي مثله، ما كان قادراً على فعل شيء لك. الحرب قضت عليه. سيدان، بالتحديد. أن ينهار جيشنا هناك...».

انفعلت، وراحت تحرك قليلاً كأسها الذي لم تشرب منه سوى القليل.

«أعرف بالضبط طبيعة مهنتك اليوم: لا تستقل أبداً. في ذلك الوقت،

ما كنت أدرك ذلك. ما كان علي أن أتركه يفعل ذلك. لم يسترد عافيته بعد ذلك. في الجيش يمكن فعل كل شيء بشرط واحد: هو ألا نرحل. يجب الاستمرار».

توقفت عن الكلام، نظر إليها. سالت دموع على وجنتيها، وسقطت على حبيبات اللؤلؤ واختلطت بها وتركت آثاراً لامعة على صدرها الممتلئ قليلاً، بالكاد. قديماً، سابين دو رواي الجميلة، كانت تبدو له بالأحرى فظة. قد نخطئ كثيراً في أمور النساء. هذا العقد من فينوس الذي ألهب مخيلته عندما كان عازباً، والذي تملكه مذ ذاك. كان الجنرال يغمزها بابتسامات متواطئة، وكانت تبدو كل شيء بالنسبة إليه، وبأنه يعشقها. ربما أراد أن يثبت لها أنه قادر على ترك كل شيء من أجلها، في هذه المسألة تماماً أخطأ. أن يترك كل شيء، ولكن ما الذي حصل عليه مقابل قصر الآغا وضجر الجزائر الشهير؟ راحة الضمير وأيضاً، وبعد انهيار أوهام وظيفة سفير أو وزير، مملكة من الحصى.

– كيف فقدت صوابي؟ كان عليّ أن أفتح لك علبة كبد الأوز بالكمأة. فيلومين لم تفكر في ذلك.

– انسي الأمر، لم أعد جائعاً. ماذا ستفعلين الآن؟

– قلت لك: سأذهب إلى البليدة، وسأمضي الشتاء هناك إن ساندتني مارغريت. يمكنني أن أستأجر منزلاً. سأرى الأولاد. هنا، ما الذي سيحصل؟ إلى أين ستجرنا هذه الحرب؟ وماذا سيبقى بعد أن تنتهي؟

كم تبلغ من العمر؟ أربعون عاماً؟ ما زالت حياتها أمامها. سيحاصرونها هناك. فإن قسّمت الحرب فرنسا، ستتحول الجزائر وطناً بديلاً، الوحيد

ربما الذي لم يتصدّع، المنتصر. ومن هناك سيعدّون العدّة للانتقام.

«تذوق المربى. لقد أعددناها من البرتقال الذي أرسلتموه لنا العام الماضي».

في فمه، تذكر شذى الفواكهة هناك التي كاد ينساها، الورود التي تزهر كل عام، شجر الكينا بأوراقه الطويلة الرفيعة وبالجذوع التي تتقشر، الجبل المغطى بأشجار المصطكى والقطلب.

«لقد استطال الليل. هل ستقضيه معي؟ إلا إذا كنت تفضل أن ترتاح؟».

دفع بطبقه.

«سأتبعك».

نهضت. وفي لمح البصر، تبادلا النظرات. في وجهها رقة لم تكن تملكها قديماً ربما لأنها تأتي من جرح. رقة جديدة.

«عندما أقول لك إنك تغيرت، فهذا قليل. ما عدت الرجل الذي كان».

كاد أن يقول لها، إنه بالنسبة إليها... ولكنه سكت. للحظة شعر برغبة في العودة إلى الصالون لإحضار قبعته العسكرية وسيفه، لكي يقدم نفسه أمام سيده الجنرال بلباسه الرسمي. لكنه بدل رأيه. حملت سابين دو رواي المشعل وتوقفت امام المطبخ.

«احفظي القهوة ساخنة. سنعود لنشربها».

6

انتهى الأمر بالنساء في أوائل منازل إيفرحونن مدفوعين بالخيالة وسط

الهتاف، ليقدمن للعسكر. وفي كل فرقة جرى سحب لاختيار المتطوعين. فمن المستحيل أن يحصلوا جميعاً على النساء. صف بدأ يتشكل وبدأ التركو يتصادمون، فتدخل الضباط. استبعدت المسنات وجرى اقتيادهن إلى جوار المقبرة حيث كان يغطي النحيب الطويل أحياناً على الموسيقى.

أدار النقيب ظهره لكريجيه وصعد باتجاه الجامع، مقابل الدخان الذي كان يحمله الهواء إلى ما فوقه. أهو حاقد على صمت مارغريت؟ ما عاد يعرف. كان بإمكان مارغريت على الأقل أن تجعل الأولاد يكتبون. كل الأبواب محطمة، الجرار محطّمة، جلود غنم، أغطية ممزقة وأسمال مكدسة في الساحات. ماذا إذن؟ لن يرق قلبه؟ فالقبائل هم من بحثوا عن الحرب، وقد جرت هنا. أوليس لهذا السبب ينتابنا الشعور بالرغبة بالتقيؤ عندما نتفوق، لقد جرى ذلك من عام على الأكثر، في جبال البليدة. ومارغريت... فجأة، بدت مارغريت بعيدة. ووجد نفسه وسط الليل، وحفل البوم، يصعد خلف سابين دو رواي وشمعدانها الفقير، درجاً صخرياً يؤدي إلى عرف الطابق الأعلى، وهو يفكر بالقبعة والسيف اللذين نسيهما... لم يكن اسم مارغريت الذي سمعه كريجيه. الآن فقط يعرف.

«لقد أصبحت مجنوناً»، كلم نفسه. «ها، أنا لم أفكر إلا بالجنرال، لا بل استغللت العتمة لكي أنفض الغبار عن سترتي...».

مصاريع نوافذ الرواق الذي يطل على الغابة لم تكن مغلقة. ضوء القمر ينساب عبرها. توقفت السيدة دو رواي للحظة ونظرت إلى الجبل. قالت: «في مثل هذه الليالي، قد تحسب نفسك في الجزائر. خلالها لا نحتاج تقريباً إلى الضوء في المنازل...». قالت «أجل».. وتذكرت كبير الخدم

وهو يشعل القناديل ويوزع المشاعل بست أو سبع شموع في كل الغرف وعند المدخل. أين ذهب ألق الماضي؟

أمام باب الجنرال. أمسكت سابين دو رواي بالمقبض وانتظرت للحظة، «ستجده وقد شاخ، ونحف كثيراً. لقد عانينا لإلباسه. الثياب فضفاضة كثيراً عليه...». سبقتني. في الغرفة المضاءة جيداً، الوحيدة التي لم يحسب فيها حساب كلفة الإضاءة، كان الجو حاراً. في البداية رأيته، هو. السرير بالكاد تقوس تحت جسده. خصل شعره الرمادي تلمع فوق كتفين مزدانين بالنياشين. جبهته العريضة جداً، المنتفخة، الممتلئة بالنجوم التي تسبح في داخله. على المنضدة بجوار السرير، باقة ورد ذابلة معرقة بالأحمر، منهكة بسبب الحرارة. في يديه مسبحة. بزة الجنرال الجميلة، صحيح أنه يبدو وكأنه يتلحف بها فما عادت على مقاسه، إنها كبيرة جداً. النطاق الحريري يلفه مع الكثير من الطيات. وفي نهاية البنطال الأحمر ذي النطاق الأسود، زوج الأحذية الملمع. وإلى جانبه، على السرير، قبعته، التي فقدت بريقها. قبعة متقاعد لا يتم إخراجها إلا في المناسبات الوطنية ولقاءات قدامى المحاربين.

ركعت سابين على الأرضية إلى جانبي، فكان شعرها في مستوى خاصرتي. للحظة لم أعرف ماذا أفعل. أن ألقي التحية بخبط الرجلين؟ فهو لا يحب هذا. مع قبعتي وسيفي، كان بإمكاني أن ألقي التحية العسكرية. بقيت واقفاً، مرخياً يدي، طعم مربى البرتقال ما زال في فمي. الغرفة بستائرها المقفلة، ستائر صفر بنقوش بيض، يفترض أنها تطل على الحديقة. للمرة الأولى في حياتي، شعرت بالارتباك. جعلت أحدثه سراً. قلت له: «جنرال، لقد تعرضنا لهجمات متتالية. تذكرت كل ما قلته لنا: نحن نخدع

أنفسنا ونُخدع عندما نستنتج الدروس مما حصل في المكسيك والصين وحتى في القرم. فالعدو هو من يعطي معنى للحرب. لقد انتصرنا لأن هذه الحروب لم تدم، وبالنسبة للجزائر، لأن الثوار لم تكن لديهم المدافع. لنأمل ألا يتحدّانا في أوروبا خصم أقوى منا...». هذا يجعلني أبتسم. أين يمكنه أن يتشكل يوماً هذا الخصم؟ نصف قرنٍ بعد الإمبراطورية ونحن نعيش نشوة الاشتراك في النصر. يكفينا أن نظهر، لينهار كل شيء. فقيادتنا العليا تعتقد أنها ملهَمة بهذا النصر. لدينا نابوليون آخر على رأسها اليوم، ولكن عذراً، لقد توفي المارشال سانت – أرنو. شيء من كل هذا لم يبدأ ورائحة الهزيمة تفوح في كل مكان. شعبتي فخورة لأنها سبقت العدو: لقد سحقت تحت أقدام البافاريين[1] الذين تسللوا عبر الغابة من دون أن تراهم. لا يمكننا إصلاح فرقة ما عادت تؤمن بشيء. فقائدنا الأعلى ما عاد قادراً سوى على توجيه الأوامر للمتقاعدين. لقد رحل الإمبراطور أسيراً في عربة فاتلاً شاربيه. ومن أصل ثلاث فرقٍ بقيت اثنان، ثم واحدة. وحالياً لا نعرف. ماك – ماهون انتهى وبازين معتقل في متز، ويقال إن الإمبراطورة تفاوض سراً مع الألمان لضمان سلامة الإمبراطورية، هناك أيضاً شتات شُعبٍ في شالون[2]، جيش آخر في الشمال، وباريس بدأت تعاني من نقص في الخبز، وحرسها الوطني الذي يبلغ عديده الأربعة آلاف لا يعرفون كيف يلقمون بندقية شاسبو. في جيش ماك – ماهون، وعند أول إصابة للمارشال، تناوب ثلاثة قادة عامين في ظرف أربع ساعات، لكل منهم مخطط مختلف. ما عاد الجنود يلتزمون بأوامر ضباطهم. والضباط ما

(1) نسبة لبافاريا، إحدى الولايات الست عشرة المكونة للأراضي الألمانية.

(2) Chalons مقاطعة فرنسية.

عادوا يتلقون الأوامر. تقاتلوا على أبواب سيدان على اللجوء إلى القلعة. جنود مشاة، خيالة، رماة، جنود قطار، مسعفون، الجميع يفرّون باتجاه المدينة. الحشود تسد الجسور المتحركة. نساء يصرخن : «إنها نهاية العالم». رأيت ذلك وأنا راحل. لأني راحل ولا أعرف لماذا، حاملاً رسالة أجهل مضمونها. هل يمكن أن نحمّل ضابطاً رسالة إلى حاكم الجزائر بالنيابة؟ هل يقتلعونه من وحدته العسكرية – صحيح أنه ما عاد لدي كتيبة منذ بداية الحملة – ليرموه على الطرقات في حين أنهم يستطيعون استعمال التلغراف والرسائل المشفّرة؟ ما عاد هناك، سوى العبث فقط. ما عاد هناك قيادة ولا ضباط ولا جنود ولا جياد ولا مكاتب ولا تموين ولا ذخائر ولا خدمات صحية، لا شيء سوى العار والعلم الأبيض فوق سيدان، مئات آلاف الرجال ومعهم الإمبراطور أسرى. فر الجنرالات. والخيالة في الصف الثاني أو الثالث تقهقروا إلى الخلف بدلاً من أن يكونوا هم من يتقدّمون الطريق، وذلك لأنه لم يعد لديهم علف للجياد. الميرة؟ طمرت. ومن أجل أن تأكل، عليك ان تنهب المزارع...».

بدا، للحظات أنه يهز رأسه أو أصابعه موافقاً. خيّل لي أنني رأيت مسبحته الحمراء تتحرك، وسمعته يتنهد.

7

هنا، ما عدت أعرف ماذا أقول. كان في مقدوري أن أصمت. فهو يعرف كل ما جرى أكثر مني. وهذا ما قتله، في حين أني ما زلت حياً. فهل من الضروري أن نلقي الخطب أمام الرب عندما نكون حزينين ونذهب إلى الكنيسة؟ الكلام، هو مؤاساة للذات، كنت أريد أن يساعدني على

فهم سبب عذابي. أعلى المرء أن يكون أكليريكياً كبيراً ليعرف أن الشرف العسكري ليس في التجهيزات والمرتبات، ولا حتى بالنسبة لجنرال أن يحتفظ بسيفه، وشاراته وجياده؟ فأمام هذا الرجل بالثياب المهلهلة المزينة بالنياشين والنجوم، أصلّي بقلب منقبض. لقد أكلت وشربت كثيراً. كان على خبر وفاته أن يقطع شهيتي. لم يقطعها البتة. لا أعرف: الليل، سحر هذا القصر الصغير تحت ضوء القمر، الشمعدانات، المفرش الأبيض الذي فرشته فيلوميل على الطاولة، مفاجأة اللقاء بالسيدة دو رواي، النبيذ الذي يحمل طعم القطاف، الخنزير المشوي المعطر بالثوم، الخبز اللذيذ، المربى، إنها لمأدبة حقيقية. الجمهورية التي يبدو أنها صدمت كثيراً السيدة دو رواي، والتي ينتابني شعور بالتدنيس عندما ألفظ اسمها، فانا مقتنع في قرارة نفسي بأنها كانت النتيجة الحقيقية لإمبراطوريتنا التي غمرها الخزي. الدموع على هذا الصدر المزين بالماس، هذه الدموع، لا يمكنها أن تحزنني أو تحركني، كم كان شهياً... والآن، ببطني الملآن، أضغط على نفسي كي أرق، كي أهز جثة. هيا. لو أعطيت لي القدرة على الحكم على الموت، وأن أقول للجنرال الذي خدمته: إنهض وامشِ! هل كنت لأقول الجملة المقدسة؟

خيل لي أنني سمعت جوابه وأن شفتيه تتحركان وتبتسمان. «ياعزيزي، يا عزيزي، لستَ ضعيفاً. لا يجب أن تتركهم يطيحون بك مثلي...».

لا أعرف ما الذي جرى لي. كان الأمر يستلزم الكثير من الجرأة لفعل ذلك وسط كل هذا الضوء. من دون تفكير، وضعت يدي على كتف سابين دو رواي. مرت لحظة رهيبة. وفي اللحظة التي أردت فيها رفع يدي، أمالت رأسها فوق يدي وشعرت بخدها الملتهب الرطب.

وقفت. وغادرنا سوياً الغرفة. رأيت المفتاح في القفل، في الداخل. كدت أن أسحبه وأضعه من الخارج لكي أقفل الباب، كم رغبت في إقفاله. في الرواق، استقبلنا القمر الذي استقر في النصف الثاني من السماء. توقفنا أمام إحدى النوافذ. بدا وجه سابين جميلاً بطريقة مخيفة. جمال يفوق الطبيعة، شجي. لم أرها قط بهذا الشكل، حتى ليلة الوداع الراقصة، عندما أثّرت بها الحفلة ورقصت معي على وقع موسيقى البولكا تحت نظر مارغريت وسط كل بهاء الزينة والبزات. اليوم لست ثملاً من الشمبانيا. مم إذن؟ من الألم؟ لا أعرف. أشياء تحصل، جرأة تمدك بها الظروف: الحرب، الكارثة، الليل، نعيق البوم التعبة التي سكتت أو التي ما عدت أسمعها، هذه المرأة التي لطالما رغبت فيها في عزوبيتي لأنها لم تكن متاحة والتي توقفت عن التفكير بها منذ عشر سنوات، لقد قطعت كل هذه الطريق لكي أكتشفها، وزوجها جثة باردة يباركنا. أقول هذا اليوم، وأنا أصرّ على أسناني، غير فخور بنفسي.

كان فمها ينتظر فمي.

بعد ذلك، قادتني إلى غرفتها في البرج على بعد خطوات من هنا. جلست على ركبتي، خلعت لها ثيابها. وعندما أمست عارية بالكامل، مددتها على السرير، نزعت حذائي ورميت ثيابي. لم أعرف شهوة كهذه في حياتي. لم تهدأ العاصفة في داخلنا، أنا وسابين. أكان ذلك القدر، أم الإحباط اللذان كانا ينقصاني لغاية الآن؟ لم أكن أعرف أن ذلك لم يكن سوى الشغف.

استمر ذلك لساعة، ساعتين، أو ربما أكثر؟ الى الأبد. للحظات شعرت بحركة بقربي. أهي فيلوميل أحضرت لنا القهوة، أم هو الذي نهض،

يبحثان عنا، وسيكتشفان أمرنا؟ لبثت بلا حراك. الفجر هو الذي جعلني أنهض. الفجر أم الخزي؟ لبست ثيابي، أغرقت وجهي في ماء الحوض. سابين كانت نائمة. بخطى حذرة، اقتربت منها. وجلست ثانية على ركبتي. أحطت وجهها بيدي، وكان شعرها على كتفيها، وقبلت برقة فمها. وقلت لها: «زينة الجنرال، صليب قيادته وسيفه، يجب وضعها على وسادة عند طرف سريره...». ونزلت. أخذت سيفي، وجعبتي وقبعتي العسكرية من الصالون. وعندما مررت بالمطبخ، فتح الباب وقالت لي فيلوميل: «القهوة جاهزة». ترددت. هناك مفرشان في غرفة الطعام، إذ أضيف مفرش آخر، جديد نظيف. جلست إلى الطاولة. وسكبت لي فيلوميل القهوة. وعكس ما اعتقدت، فأنا لم أرها من قبل جيداً، لم تكن مسنة، في الثلاثينات ربما، بوجه رهباني. قدمت لي الخبز المحمص والزبدة، مربى البرتقال الذي قدم في الليلة الماضية. التهمتها وغادرت.

في منتصف الطريق، استدرت. في الليل بدا لي القصر صغيراً، ولكن في النهاية له طابع خاص. مع طلوع النهار، ما عاد هناك ما يخدع. لم يكن شيئاً: علبة كارتون. بيد أن ما أشعله في داخلي جعل قلبي ينفجر. إيفرحونن، حيث يريد القائد الأعلى أن يتناول غداءه على وقع الموسيقى ويأكل الكرز تحت المنصة البهية التي نصبها قسم الهندسة في حين تخيّم الألوية في العراء، عند المنحدرات، وسط البساتين المنكوبة، إيفرحونن هذه تبدو أقل فقراً.

8

«سيدي النقيب!».

اقترب كريجيه، بلحيته التي تأكل وجنتيه، مستثاراً.

«لا أصدق أنك هنا. هناك نساء للضباط، فتيات بديعات، تعال...».

كان غرييه يحلم متكئاً على حائط الجامع أمام فوضى الجبال.

«شكرا، عزيزي. اذهب أنت، أنا لن أبرح مكاني».

استلّ سيفه من نطاقه، وضعه على البلاطات الصخرية، واتكأ عليه. السيف نفسه، الشيء الوحيد الذي حمله من الحرب، على الرغم من أنه ليس ملكه. من يعلم؟ ربما كان سيف جندي ميت. عندما غادر قصر الجنرال دو رواي، شكر السماء أنها أنقذته من إهانات أخرى: إذ أوقف البروسيون المنتصرون والذين كانوا يحتفلون أمام قصور الضباط المزينة بالأعلام الفرنسية، قطارات الضباط المأسورين. تعجّله للعودة إلى الجزائر أنبت له جناحين لكي يهرب. فموطنه الحقيقي هناك في الطرف الآخر من البحر، تحت الشمس. حتى الآن، لا شيء غير الصمت، ينظرون إليه شذراً، يدققون في الرسالة التي يحملها، ولكن دون أن يقولوا شيئاً. غير أنه مع وصوله إلى الجزائر، بدأت الشتائم. يتوقفون لرؤيته يمر. يلتفتون إليه «هذا، لا يمكن لأحد أن ينسى أنه هرب...»، يقولون بصوتٍ عالٍ، البورجوازيون الذين كانوا يتنزهون حاملين العصي، على الجادة القديمة للإمبراطورة. الصحافة تشتم، وفي المقاهي يتظاهر النذل بعدم رؤية الضباط، كما سمّي حاكم المنطقة «بارون مصطفى[1]» حتى لا ينادونه بالجنرال مصطفى. ما عاد هناك شيء من الأجواء السابقة. كانوا في شبه

(1) مصطفى هنا اسم منطقة في الجزائر لا اسم شخص.

مأتمٍ: صفة الحاكم الحقيقي ما زالت للمارشال ماك – ماهون الذي سرت شائعة عن موته. في ظلّ هذا الحرّ، تحت السماء الباهرة، مع جيش أفريقيا ببرانسه الحمر، والسيف يلمع عند مدخل القصر، وكل هذه الزهور أمام البحر الهادئ الأزرق، يمكن أن نصدق خبر الموت!

لقي النقيب غريبه اهتماماً خاصاً، نقل بعربة القيادة العامة للشعبة حيث شرح لهم معركة سبيشيرين[1]. «لقد عشت المحن»، قال له نقيب كولونيل، «ولكن على الأقل يعزيك أنك ضربت، أما نحن هنا...»، لم يسألوه شيئاً عن رحلة العودة. سوف يلتحق بثكنة كتيبته في البليدة بعد ثمانية أيام من الراحة مع عائلته.

في فرنسا، توالت الأحداث ووصل البروسيون إلى مشارف باريس. استقل هكتور القطار إلى بوفاريك ومن هناك حنتوراً إلى المزرعة.

كل شيء يبدو له هنا أصغر مما كان. السهل اليابس بدأ يخضر. عرب محتشدون. مستوطنون مع أسلحة الصيد معلقة على أكتافهم. جنود يقومون بدورية. أما المزرعة فمستغرقة في حياتها البائسة وأشجار الدلب كبرت.

ماري ألدبرام، التي تكون دائماً عند عتبة بابها تراقب، كانت أول من رآه. فركت عينيها وتقدمت ومدت له ذراعيها. في وجهها الموسوم، المحفّر بالتجاعيد، بدت عيناها وقد اغرورقتا بالدمع.

«هكتور!...».

كادت مارغريت أن تقع وهي مندفعة نحوه.

---

(1) Spicheren مقاطعة فرنسية.

«يا إلهي، يا إلهي...».

وسال دمعها الذي بلل هكتور، ثم راحت تتأمله وقد ابتعدت عنه قليلاً.

«لكم تغيرت!».

الكلمة نفسها التي قالتها السيدة دو رواي. بسبب الشاربين.

نظر إلى يدي مارغريت. في بنصرها الأيسر، خاتم زواجهما. لا شيء آخر. تذكر سخريته القديمة من الخاتم الذي أهدتها إياه السيدة دور رواي. اشتاق فجأة لهذا الخاتم. هي أيضاً تغيرت. ما زالت مشعة، وردة بكامل ألقها مع عينين أكثر حميمية. بالنسبة إلى ماري ألدبرام، التغيرات تظهر في تجويفات الخدود والجبهة.

– وأنطفأن يسمعني، قال العجوز. لقد تطوع وينتظر الرحيل بالقرب من الجزائر، في حين أن كل الباريسيين هنا.

أزاح محمد الستارة فأضيئت الغرفة، مد يده للنقيب ثم ردها إلى صدره. خلف كل هذه المصافحات والعجلة، نظرة غريبة. بمَ يفكر، هذا؟

الفصل الثالث

غضب النقيب غريبه من المعاملة المسيئة للنساء.

تم الفراغ من نساء إيفرحونن. فكلّ من تقدم، نال طلبه، ربما ليس الجميع، كان هناك من تأخر، مثل الموسيقيين الذين كانوا ينفخون في الآلات النحاسية أو يقرعون على الصناديق تلبية لرغبة الجنرال. وآخرون من أمثال حملة الرايات، والممرضين، والطهاة، وعمال السخرة، الخفر الذين يحرسون المؤن أو قطيع المسنات، والجرحى والموتى، كل هؤلاء كان عليهم أن يمروا على النساء، سيتم تعويضهم مرة أخرى، حتى الموتى، لَمَ لا؟ وحتى المشاة والخيالة. جنود القطار، الرجال المكلفون بنقل حمولات العربات، وأولئك الذين ينقلون المؤن أو يحضرون الخيم للضباط، الطهاة، المساعدون والحراس، وكلاء النقل، هل يحتجّ هؤلاء؟ سيتمّ تدبير مناسبة أخرى لهم، يمكن أن يجلبوا إلى الحصن الوطني مجموعة من المومسات من القصبة في الجزائر أو من بجاية[1]، وسيشاركون في الاحتفال وسيكون لديهم متسع أكبر من الوقت، ولكن لن يكون لذلك الطعم نفسه. وسط الطبيعة أو تقريباً، في قرية محتلة تحت سقفٍ مليء بالدخان، ومع نساء غير محترفات يخبئن وجوههن بأذرعهن أو ينظرن إليك بيأس حيوانات مقتولة، شيء ما يعتريك ويتملكك، لا تعرف ما هو. لا يمكن اختبار شيءٍ كهذا في الأوقات العادية. هنا، وبسبب الحرارة والقذارة والتعجل واللهو والمزاح، نصبح رجالاً نحيط بنساء شبقات، مستعدين للذبح للحصول

(1) بجاية مدينة ساحلية تطل على البحر اللمتوسط وهي واحدة من أكبر المدن الجزائرية.

على حقوقنا، وكما لو كان ذلك فعل حب، فذلك يشعرنا بالانتصار. ولكن وحده الرب يعرف إن لم تكن هؤلاء النسوة يرغبن بذلك! النسوة المحطمات. لقد حاولن ربما أن يقاومن، في البداية ثم استسلمن وانتظرن النهاية، نزفن الدم، وصرخن ولكن ليس من الحب. أما الرجال فلم يرحموا، جميعهم حسبوا أنفسهم قيصراً وهو يضاجع الملكة كليوباترا التي قُدمت له وسط بهاء قصره. بعد ذلك، يُدفعون خارجاً ليجدوا أنفسهم على البلاط الصخري والرخام المهشّم الذي يعبد الطريق، يشعلون سيجارة ويلتحقون بوحداتهم مبتهجين، يمكن تمييزهم، ليسوا هم أنفسهم الذين كانوا قبل قليل: يتكلمون كثيراً أو يصمتون، محاولين دون جدوى الاختباء من أنفسهم.

بالنسبة إلى الضباط، فرزت بعض الفتيات الأكثر جمالاً على حدة في منزل بعيدٍ عن الفرق. وكلفت مجموعة من الزواويين بسد الطريق على الجنود العاديين، كان هناك طبيب لواء ساخر، أغطية، ضحكات مكبوتة، ملاطفات، ما يشبه الوضع الخاص: فهؤلاء النساء حصلن على المغازلة. على أية حال لم يكن هناك احتشاد: شباب شاركوا في الهجوم، النقيب قُصَيري، نقيب القناصة، رجل ضخم متورد له ندبة كبيرة على جبهته حملها معه من الصين. هذا الرجل كان دائماً جاهزاً لاقتناص اللحظة، وربما هو من اقترح الفكرة على القيادة العامة، فهو يعتقد أن تلك لعبة الحروب التي لن يفهم الكروميون تخلي الفرنسيين عنها، بأن تكون النساء أول غنائم الحرب، وأن هذا ما يحصل تحت كل سماء في العالم، هو الذي جاب العالم، وبأنهم، أي الكروميون، لو انتصروا في فرنسا، لكانوا

بدأوا بالنساء. «هل تتذكرون باليسترو[1]. لو غزوا يوماً متيجة، سترون كيف سيتصرفون مع المستوطنين...». هذه الفكرة سيطرت على الضباط: عليهم أن يكونوا في الطليعة. وقُصَيري، يا لشبقه! عربي أيضاً من منطقة تلمسان، ذو لون داكن وشعر شديد السواد، ليس طويلاً جداً، مضغوط قليلاً وله رجلان قصيرتان وجبهة ضيقة ونظرة متوحشة مراوغة، لا يعتمر قبعة عسكرية بل طربوشاً مائلاً، طربوش مغربي مع شريطين مذهبين عند الأطراف. وعندما يقاتل يضع العمامة. يدعي أنه يتحدر من عائلة كبيرة اختارت التحالف مع فرنسا. ومع بعض الرعاية يمكنه أن يغدو نقيباً. جنوده يخافونه، إذ أرسى سياسة حديدية ويتم التعامل معه كأنه سلطان. هذا هو قُصَيري، الذي يتكلم بفرنسية رديئة والذي لم يسمع بالقبائل، يؤكد أن كل ذلك طبيعي، وبأن العرب لطالما تصرفوا على هذا النحو وأنه ليس هناك، هنا تماماً، طرق أخرى لإثبات النصر. قاتل في الجنوب، وشارك في الكثير من الغزوات. نعم ليس هناك من غزوات بلا نساء، فرجاله، وحتى أولئك الذين ينتمون للقبائل، ما كانوا ليفهموا. هذا هو القانون. كانوا يشتبهون بامتلاكه حريماً، لم ينكر ذلك. في الحقيقة ليس لديه سوى امرأة واحدة تنتظره في شرشال[2]، ولكنه سيستبدلها عندما

---

(1) Palestro هي مستوطنة أنشأها الفرنسيون في الجزائر وأطلقوا عليها اسم باليسترو تخليداً لذكرى معركة باليسترو شمال إيطاليا، وبعد الاحتلال باتت معروفة بالأخضرية نسبة للشهيد رابح المقراني المدعو «سي لخضر»، والمدينة معروفة بالهجوم الذي شنه المقاومون عليها في أبريل 1871 بقيادة الشيخ محمد المقراني مستغلين حالة الفوضى التي كانت تعيشها فرنسا بسبب حربها مع البروسيين، وأسفر الهجوم عن مقتل 46 شخصاً وتدبير كامل للمدينة مما استلزم إعادة بنائها من جديد.

(2) شرشال منطقة جزائرية تطل على البحر الابيض المتوسط، على بعد 90 كلم غرب العاصمة الجزائر.

تشيخ أو عندما يضجر منها. وعندما يمازحونه حول هذا الموضوع يرد عليهم: «وماذا عنكم؟».

وحده القائد الأعلى من قال: «ستستبقون النساء حتى وقت العشاء، وبعدها ستعيدونهن». وعندما بدأت الأبواق تصدح معلنة وقت الطعام، أعلن ضابط من القيادة العامة بوجه بارد، أن الوقت انتهى ويجب جمع النساء، من دون أن تعاد لهن ثيابهن، فكرة من تلك؟ ضابط، ضابط مساعد، كبير نقباء القناصة؟ دُفعن وسط صيحات السخرية إلى جوار المقبرة حيث كان الخيالة بانتظارهن.

إذن، حمل النقيب غرييه السيف، ووضعه في غمده، قفز من الجامع، حيث كان يحلم وراح يتدحرج بين البيوت، حتى وصل إلى موقع الحشد. دفع بالناس، شقّ بعنف طريقاً له ووصل حتى الصف الأول من المتفرجين من الضباط. ابتعدت النساء وهن يلملمن الخرق والأحجار المسطحة وقطع الكرتون كي يسترن عريهن. بعضهن كن يقعن أرضاً، فتساعدهن رفيقاتهن على النهوض. مذعورات، من المفترض انهن كن خائفات من أن يطلقوا النار فوق رؤوسهن. الأكثر شباباً بينهن أطلقن العنان لأرجلهن وهربن باتجاه واقنون، آخريات لجهة اليمين في إحدى الوهاد، عبر البساتين المقطعة التي تصل حتى الوادي. العار جعلهن غاضبات يصرخن بالشتائم، بعضهن يستدرن باعثات بإشارات تحقير وبصاق، فتهتاج جياد قناصة جيش أفريقيا وتنبش الأرض بحوافرها، وتشب صاهلة. الجميع يعتقدون أن الأفواج سوف يطعنوهن بالسيوف، ولكن لا، القائد الأعلى أبدى نبلاً وتركهن يتفرقن في الأجمات ولم يتركن خلفهن سوى الموكب الحزين للساحرات العجوزات بخرقهن البالية واللواتي رحلن بحيوية مفاجئة في

خط مستقيم. والتجأن لغور تقاسمن فيه مع الشابات ثيابهن.

وبعد لحظات، صدح صوت صراخ بعيد، في البداية بدا غير مفهوم ليتحول بعد ذلك مريعاً، زغاريد أطلقتها النساء من جديد وهن راكضات.

– لم يوافق قُصَيري. فهذا يضرب فكرة العرب عن حشمتنا.

– هناك، سيقتلونهن.

– لماذا؟ سأله دينيف.

– زوجتك، إن اعتدى عليها غريب، انتهى. يجب أن تموت.

– لا أعتقد ذلك، أكمل دينيف، أن نرسلهن هكذا عاريات، فنحن ربما نبالغ، أليس كذلك؟ على أية حال، وحسب ما تقول، وبما أننا اعتدينا عليهن، فقد احترقن. وهذا لا يغير شيئاً.

– هذا يغير، قال قصيري. سيدي النقيب، إن متّ....

خاطبه دينيف رافعاً الكلفة، كما يخاطبه معظم الفرنسيين، أما قُصَيري فلا يرفع معه الكلفة.

«... إن متّ، فالأمر يتوقف على طريقة موتك. بشرف أم لا. مثل كلبٍ أم لا. هؤلاء النساء، سوف يقتلونهن، ثم...».

كان قُصَيري يبحث عن الكلمات.

– سوف يدهسون الأرض حتى لا يعرف أحد أين دفنّ، قال غريبه، هذا ما أردت قوله؟

– هذا هو، نعم، ولا حتى شاهد قبر واحد، لا شيء. نعم يتركونهن لبنات آوى.

– إنها الصفقة الرابحة، قال دينيف.

2

كان غربيه يبحث عن النسور التي رصدها طوال المعركة، ما عاد يراها. ثم شاهدها تبتعد باتجاه واقنون.

لم يكن يحب قُصَيري، فهو مارق على طريقته. باطني. وإذن؟ هل يتعلم المهنة لكي يخون بشكل أفضل يوماً ما وينقلب إلى جانب المتمردين؟ فهم يرقبونه بشكل دائم، وليس لديهم ما يلومونه عليه ما عدا شدته، وعلى ما يبدو، ابتزازه بعض الشيء لجنود فرقته، فذلك شأنه الخاص. من سوء طالع التركو أنه كانت هناك حرب مع البروسيين وثمة ضرورة لتأكيد ولاء كل الأراضي الخاضعة وإعلان التعبئة العامة في جيش أفريقيا. جرح قُصَيري وقلّد رتبة ملازم أول، ليحمل مثل غربيه الوسام الكئيب للعام 70: شريط أخضر وأسود، تتدلى منه ميدالية جمهورية برونزية، في حين لم يحصل دينيف سوى على بعض الميداليات التذكارية كما ميدالية أراضي الجنوب، ووسام الاستحقاق الزراعي[1]، أما الميدالية الأسقفية فنتساءل من أين نبشها هذه؟ تشبه تحفة صغيرة تتدلى من مشبك الأوسمة يضعها في أيام التفتيش. وفي بقية الوقت، ينشغل بطل مقانق الكبد ويخنة الفاصولياء المعلبة بالسحر، وهذا ما يبهر من لا يعرفه.

(1) وسام الاستحقاق الزراعي هو وسام تقديري، أنشأه في فرنسا العام 1883 وزير الزراعة الفرنسي حينذاك جول ميلين لمكافأة من قدموا خدمات للحقل الزراعي ولتعزيز مكانة الزراعة في الاقتصاد والوعي الفرنسيين، وقد تدرجت هذه الميدالية بدرجة الاستحقاق الذي تقدمه من خيالة، إلى ضابط ومن ثم إلى قائد. وقد قدمت هذه الميدالية أيضاً لفنانين دعموا هذا القطاع بطرق مختلفة منهم لويس باستور، ميشال سيرو، كاترين دونوف وغيرهم.

«قُصَيري محق»، قال غريبه، «لا يهم أن نُقتل بل كيف نقتل».

لا يمكن لدينيف أن يفهم ذلك: عندما نعيش وسط رائحة الفاصولياء وخوابي النبيذ، عندما لا نكون قد شاهدنا معركة، على بعد ما لا يقل عن الكيلومترين خلف القائد الأعلى، عندما لا نسمع صفيراً غير صفير الطلقات الخاطئة والعالية جداً، مثل قبرات متهاويات، وعندما لا نصل إلا بعد انتهاء المعارك لنلعب دور الشجعان... إنه لضابط حقاً!

«هل تعرف بمن تذكرني؟»، سأله دينيف، «بجنرالك القديم، الذي كان يثير أعصابك: الجنرال القصير دو راوي».

«أدعوك إلى حفل عشاء القيادة العامة، وفي جعبتي أخبار جديدة».

أدار له هكتور ظهره فجأة، وتبع ضابطه المساعد. يبدو أن الحرائق في أعالي القرية، قد خبت. فالدخان الوحيد الذي ما زال يتصاعد هو دخان المطابخ الذي يحمل رائحة الطعام. أصوات الأبواق تتردد في نهاية هذا اليوم وكأنهم في قلب مناورات.

وماذا لو أخطأ؟ ماذا لو كان دينيف محقاً بخصوص النساء كما بخصوص للجيش؟ فليس كريجيه من ينبغي سؤاله بهذا الشأن. وماذا لو كان العالم ملك الأقوياء والعابثين؟ لماذا كان عليه أن يعجب لفترة طويلة بسانت – أرنو ثم يتبرأ منه، لأن جنرالاً صغيراً سبب له ألم ضمير أشبه بنوبة حمى؟ أين يكمن انتصار نيكولا، كما تسميه سابين؟ نيقوديموس[1] هذا، نيكولا

(1) نيقوديموس إحدى الشخصيات الوارد ذكرها في العهد الجديد. كان شخصية بارزة ومرموقة في المجتمع اليهودي أيام المسيح، فقد كان تلميذًا سريًا للمسيح أيضًا وعضوًا في جماعة الفريسيين وقد جاء إلى يسوع سرًا ليعلن له إيمانه به، وفي اجتماع للفريسيين وحرس الهيكل بهدف إلقاء القبض على المسيح وقتله، قام نيقوديمس بالدفاع عن يسوع مطالبًا بعدم إلقاء القبض عليه قبل سماع دفاعه عن نفسه أولاً، فاتهم بالخيانة والتواطؤ وتعرض لسخرية سائر أعضاء المجلس.

أنا مرّغت وجهك بالوحل. سانت أرنو انتهى قائداً عاماً للقوات الفرنسية في حملة القرم، والجنرال دو رواي متقاعداً في منزل ريفي متصدع في قلب الصحراء بين مراطبين مقانق الكبد والكتب. ومعلمه، السيد دو فينيي هذا، الذي كان يعتبره نبيهاً، حصل على الأكاديمية والتعويض الكهنوتي والخادمات. لم يكن شديد الحمق. أكان ليظن بأن ضباطاً كسروا سيفهم لأجله؟ وهذا التعفّف عن النساء؟ دينيف كان لديه ما يذهله، هو الذي يتذكر سني شبابه الجميلة في الجزائر، سهرات المرابط وغزوات بئر مراد ريس، كل يوم شيء جديد. ولكن يكفي أن تسيطر صورة سابين على إيفرحونن، ليتغير كل شيء. وردة المساء هذه، التي تفتحت على حين غرة، كما تفتحت الورود في حرارة الشموع، بالقرب من الجبهة الباردة لزوجها الغافي في الأبدية. أليس ذلك جنوناً؟ بمَ ينفع التعفف، الشفقة، ادعاء النبالة؟ رجاله الزواويون، أيفكرون بالحب؟ أينتظرون رسائل؟ أينادون نساء في أحلامهم؟

كفى، كفى! لقد كان دينيف محقاً. كل هؤلاء البشر، أكانوا مدنيين أم عرباً، يجب معاملتهم بالسوط وإعادة الهيبة للجيش. فبمعنى ما، عصيان القبائل جاء في وقته. عن أي رحمة نتكلم؟ من يهتم؟ فدينيف لا يفارق أبداً مسدسه. يعتقد أن مهنته كمسؤول تموين تنطوي على مخاطر، وبأن قوافله قد تقع في الكمائن، ويطلق النار تحت أي حجة. هو أيضاً يريد وساماً مثل دوبوي الذي لم يوجه له أي توبيخ. بدا الكولونيل سعيداً فقد هنأه قائد الفرقة. لقد أخضعت إيفرحونن وسوف يقومون بحرقها ما إن تصل الأوامر بذلك، وبعدها سوف يمشطون واقنون[1]. أفكرت ملياً يا

(1) واقنون هي دائرة في ولاية تيزي وزو في منطقة القبائل.

غربيه؟ لا، على الإطلاق. فقط عند نهاية اللقاء، طلب هكتور من دوبوي أن يكلمه على انفراد. لم يكن دوبوي بالرجل المهم. رجل مراوغ، دبق، يحمي نفسه دوماً تحت قبعات القماش، فلا يكتسب أيّ سمرة، ويقضي وقته بالتملق للكولونيل. قال له وهو يحيطه بذراعه: «إن كررت مرة أخرى حقارة هذا الصباح، فسوف أحطم رأسك» وتركه واقفاً هناك من دون أن يقدم له أي شرح.

غزل ولطف؟ لا يمكن أن نمزح بهذه الطريقة. دينيف ومسدسه. «ليس هناك ما له قيمة سوى هذا...» ليس فقط للكروميديين، بل لكل من يتلاعب بحياة الآخرين. ولكن أيضاً هذه التهديدات وهذه الشراسة تجاه زميل، لم يكن أحد يتوقعها. لم يهن دوبوي أمام رجاله وإنما كلمه على انفراد. كلمة بلا شاهد. وضع يده على رقبته، يمكن أن يحسبها من يراها من بعيد تعبيراً عن الصداقة. تحدث بصوت خفيض، بلا أي انفعال، وتركه بسرعة.

3

«لقد بالغت قليلاً، سيدي النقيب».

لدى كريجيه الكثير من العيوب، أحياناً شيء من النفاق، ويمكن أن نكره شعره ووجباته الخفيفة بالدجاج، والرائحة الكريهة التي يتركها خلفه وكل هذه الأمور، ولكن يجب الاعتراف له بمقدرته على الحراسة من المخاطر. نصائحه كانت حكيمة، تحمي إلى حدٍ ما وتنبه للقواعد.

«أحد عشر ميتاً لدينا، ألا يكفيك كريجيه؟ لم يكن هناك سوى خمسة قبل الهجوم المرتد. هذا ولم أسأل عن أرقام جيراني، كم كبدت ضميرك

أنت دوبوي؟ أنا، أنا أدافع عن رجالي».

حرك يده بغضب. هذا الذباب الذي يغط على الرقبة واليدين ويغرز إبره حتى الشرايين. يأتي من كل منطقة القبائل، تجذبه روائح الحيوانات والرجال والعرق والجروح والزيت المسكوب واللحم المهدور والدخان والضجيج والجياد والبغال والنساء ربما والخراب والمذبحة. بيد أنه كان على هبوب الهواء أن يطرده، يحمله إلى الوهاد، أن يسحبه إلى السماء باتجاه الجبال، أن يرميه في الأجمات، ولكن لا. عند أول هبوب للهواء يختبئ خلف حجرٍ، يلتصق خلف شقة جدار في المكان الآمن أو بك، على ظهرك، لذا يجب أن تملك مثل الجياد ذيلاً لتقتله به. يتجمع بعيداً قليلاً ثم يعود بإصرار.

يبدو أن العاصفة ستهبّ، لكنها تعود لتنزلق في منحدرات الجنوب وتطبق على خاصرة جبال جرجرة وتغطي جزءاً منها. قطيع ضخم من الجواميس والحملان السود ترعى الحصى والصخور، تنزلق عند السفوح ثم تتشتت. اختفى الجبل، اختنق. نشعر به هنا يسحق الغيوم، يدفعها، لتلمع في بعض الأماكن نتوءات الصخور عروقاً ضخمة، سناماً من الغرانيت، هوات من الظلال الزرقاء. إن وجب الذهاب إلى هناك لملاحقة المتمردين... بالنسبة لكريجيه، فإن الذباب والعاصفة تعقد كل شيء.

ولو كان رجلاً، دوبوي... هل سمعتم ماذا همست له؟

كما الجميع.

لقد سُحق. بهت لونه، وبدأ يتعرق. لقد أحسن فعلاً. لو تحرك... لكنت... مثل البزّاق...

الكلمة جعلته يبتسم. بزّاق، إن كان هناك منها، لا يجب أن تكون في

هذه الحفلة هنا، وسط هذا الجفاف، في هذه الأرض المفروشة بالحصى المسكونة بالصقور والنسور. في أدغال لوت[1]، لا يجب أن نجد أيضاً البزاق. فقط، كما هنا، حلازين صغيرة بيض تتكوم في الأجمات، ملتصقة بفروع أشجارها على شكل عناقيد الحبوب، قوقعاتها مقفلة إلى حد أننا نتساءل متى ستستفيق، في الربيع ربما؟ وممّ تعيش؟ البزاقةً، وصف يليق بدوبوي. لقد أذّله هكتور أو ببساطة أكبر سحقه بعقب عصاه الحديدية التي يستعين بها للمشي.

4

عشاء القيادة العامة؟ دينيف يبالغ. في النهاية، ستكون واحدة من عشاءات صغار الضباط وجنود القطارات وقسم الهندسة وعمال الطرقات وقطارات البغال. الخيالة وضباط سلاح المدفعية يأكلون على حدة. أصحاب الامتياز والضباط المساعدون ومسؤولو المكاتب والنخبة يحصلون على شرف العشاء الحقيقي لدى الجنرال في مكانٍ أبعد بالقرب من راية القيادة، مع رجال قوم[2] بأحزمتهم الحمر وعماماتهم ولحاهم السود ووجوههم الشبيهة بوجوه قراصنة شوهها الجدري. كراسٍ للجنرال والقائد العام، ومقاعد للآخرين. في عشاء دينيف، نجلس على علب خشبية. ولكن يا لهذه العشاءات الشهية. أفضل الطهاة في الطابور هو المرتزق المغربي. أما القسيس فقد حصل على مسكن هنا بعد أن تبناه دينيف. فهو يرفع مستوى الفرق ويعطيها خصوصية. رجل مطموس،

(1) Lot هي منطقة جبلية جنوب غرب فرنسا.

(2) قوم: رجال القبائل الذين كانوا يخدمون في إطار جيش أفريقيا الفرنسي.

مربك بردائه الذي يلمّه بنطاق عسكري، وعلى رأسه قلنسوة سوداء، بضفيرة حمراء شبك بها صليب صغير ذهبي.

رفع دينيف ذراعه، ابتلع لقمته، أدارعينيه وتنحى قليلاً مفسحاً المكان للنقيب غربيه:

«لقد بدأنا من دونك. كنا نتساءل إن كنت ستأتي. تعال، اجلس هنا. وأنت كريجيه إلى جانب السيد القسيس».

ملأ بنفسه أقداح الضيوف.

«تذوقوا هذا».

نبيذ أحمر من الجزائر بعبق شجر الكينا، نبيذ عنب ينبت في أرض السهل الموحلة الرملية نسبياً.

- هذه الرحلة؟ قال غربيه ممرراً مقانق الكبد إلى كريجيه.

- لقد سبق ورويتها. رحلة خالية من الأحداث. كانت الطريق محروسة جيداً، قبضنا على القتلة في مستعمرات باليسترو وتم إنهاء الأمر. والقصة أنه ساد رعب في مدينة الجزائر الأحد الماضي خلال مسيرة عيد القربان، في شارع لير. كانت فرقة الجيش الشعبي الموسيقية بالكاد أخذت مكانها أمام الكاتدرائية وكان الإكليروس على أهبة الظهور وإذا بفيضان من... كيف نقول ذلك، سيدي القسيس؟ من المشاهدين، من المسيحيين؟

- لا أعرف.

- ... خرب كل شيء. فرّ الجميع من الجهة الأخرى من ساحة الجمهورية، عند جادة، كدت أقول الإمبراطورة، لن أعيدها أبداً: جادة الجمهورية. أقفلت المحلات، اعتقدنا أنها هزة أرضية، تشكل

الجيش في مجموعات. ثم استعيد الهدوء. لم يكن بالأمر الجلل. كان اشتباكاً في مكان أعلى، بين العرب والرهبانية المالطية. ما زالوا يتكلمون عن الموضوع. غداً، سنحتفل، مع قليل من التأخير، بذكرى الإنزال في الجزائر. سيكون هناك قداس في سيدي فرج، استعراض ومسيرة ليلية بالشموع. ما عدا ذلك... حاكمنا، لا أعرف إن كان مشغولاً أو إن كان مسيحياً مؤمناً...

– إنه أميرال، قال القسيس.

– لقد خدم المستوطنات. ليس لدينا ما نلومه عليه. عين من الحكومة الشرعية ووصل بلباسه المدني كي يثبت ذلك... مسؤول كهذا، له لحية بيضاء مثل الثلج، ووجنتان حليقتان، لا مجال للشك، إنه لذئب بحري حقيقي. إنه رجل، هذا الأميرال دي غايدون[1]! سليمان، هات باقي الأطباق...

المزيد من الغنم ولكن مع الصلصة وبطاطا مشوية.

– ومن فرنسا، ما الجديد؟ سأل هكتور.

– انتهى الأمر. قضي على التمرد. أرسل ثيرز ثمانين ألف رجل لتمشيط لونغشان، وعلى رأسهم المارشال ماك – ماهون. ولمن يعرف بينكم باريس، يبدو أنهم قاموا بالكثير من الإعدامات في ساتوري، في حديقة لوكسمبورغ، في منتزه مونسو، في شان دي مار. يحكون عن عشرين ألف إعدام. محرضون وأنذال والعلم الأحمر فوق ليزانفاليد وعند الحواجز، أتتخيلون؟ كلاب مسعورة. لقد كنا

(1) Louis Henri de Gueydon هو الحاكم الأول للجزائر في ظل الجمهورية الفرنسية الثالثة، وهو فرنسي من أصل إيطالي تدرج من المدرسة البحرية.

طيبين جداً. رجالنا، مثلاً، عندما أغرقونا بالشتائم لا بل كادوا يرمون جنرالنا ولسن إيسترهازي في البحر، حتى لم نسجنهم.

أفلتت من هكتور صفرة اشمئزاز.

«في الجزائر، لم يكن سوى حفل تهريج. لم يُقتل أحد. المتشدقون عندنا اكتفوا بالتصويت لغاريبالدي[1] واستضافوا غامبيتا[2] ليأتي لاستكمال الحرب هنا لمدة عشرين عاماً إن لزم. رجلهم هذا غامبيتا انتفخ مثل بالونه لكنه لم يطفُ طويلاً. ورغم ذلك، وبعد لوار وبوردو واجتياز البحر...».

توقفوا جميعاً عن الأكل. أطرق الضباط رؤوسهم، ناظرين في أطباقهم، وراح بعضهم يقلب الأقداح ساهياً، طارداً الذباب الملتصق بحوافها. تجرّع كريجيه من كأسه. لو كان ما يقال صحيحاً[3] من أن

(1) Giuseppe Garibaldi جوزيبي غاريبالدي هو إيطالي ولد عام 1907 في مدينة نيس، وكان والده صائد سمك، وقد سلك طريق البحر بالرغم من جهود أبيه لتعليمه، وأصبح مغامراً كبيراً عبر العالم، يساند الحركات التحررية في أمريكا الجنوبية وأوروبا، وكان أساساً محكوماً بالإعدام في إيطاليا التي هرب منها لينطلق في رحلةٍ في العالم، متنقلاً في وظائف كثيرة ليعيش ويقاتل، وفي العام 1870، وجهت له حكومة الدفاع الوطني الفرنسية نداء للمساعدة في حربها مع الألمان، بعد خسارتها في الحرب مع بروسيا، ليتمكن مع اثنين من ابنائه وعلى رأس عشرة آلاف من مشاة الجيش الفرنسي من تحقيق النصر في معركة ديجون (منطقة وسط فرنسا)، ليرشح وينتخب بعدها دون منافس العام 1871 في مجلس العموم الفرنسي نائباً عن ساحل العاج والجزائر ونيس (إيطاليا).

(2) Léon Gambetta (1838–1882) سياسي جمهوري مهم، عين وزيراً للداخلية في حكومة الدفاع الوطني العام 1870، والذي تم إرساله، بعد الحصار الذي اشتد على باريس، بالمنطاد (البالون الذي يشار إليه في النص) إلى مدينة تور (وسط غرب فرنسا) للالتحاق بزملائه الثلاثة وهناك أضيفت إلى مسؤولياته وزارة الحرب، ليصبح وزيراً للداخلية وللحرب في الآن معاً، ويعمل على استنهاض الجمهوريين في المنطقة.

(3) هنا يقصد الانتفاضة التي حصلت في باريس في 1871 (commune) أو «الكومونة» كما تسمى بالعربية وهي حركة نقابية وعمالية يسارية، قامت بثورة تعتبر أول ثورة =

الرهائن أعدموا والمدينة مشتعلة مع تقدم الجيش، وأنه ثمة حركة مقاومة يقودها قتلة محترفون وصحافيون فاسدون وعمال مضربون وقتلة وسلابون ومخمورون يصعدون إلى المتاريس حاملين الزجاجات على مرأى من البروسيين الساخرين، وامرأة تريد لعب دور شارلوت كورداي[1] مع السيد ثيرز[2] اسمها لويز ميشيل. كل ذلك انتهى، لحسن الحظ! استعراض لونغشان[3] قضى على كل العار.

«عندما نفكر»، قال دينيف، «بأنه من الممكن وجود ضباط احتياط من الجيش في صفوف أولئك الناس...».

ها قد بدأ المتشدق بالكلام. قيادته الحقيقية يمارسها في الطبخ، ولكن

= اشتراكية في العصر الحديث، استولت على السلطة في فرنسا لمدة شهرين. قامت بتعديل لون العلم الفرنسي إلى اللون الأحمر، وأجرت العديد من الإصلاحات أهمها الإصلاحات التربوية ثم فصل الدولة عن الدين، وتم إلغاء العمل الليلي، ومنع الغرامات والضرائب المفروضة على أجور العمال، واستطاعت تشغيل المعامل التي تركها أصحابها هرباً ولجؤوا إلى فرساي، تحول العمال والعاملات إلى جنود فوق المتاريس للدفاع عن إنجازهم لكن تم قمع الثورة دموياً بشكل فظيع على يد تيير Adolphe Thiers.

(1) Marie-Anne-Charlotte de Corday d'Armont المعروفة بشارلوت كورداي، وهي صحافية فرنسية (1768 – 1793) أعدمت بعد قتلها جان بول مارات عام 1793 والذي كان مسؤولاً عن الكثير من الإعدامات بحجة العداء للثورة وللوطن.

(2) Adolphe Thiers ولد في مارسيليا (1797 – 1877) وهو محام وصحافي ومؤرخ وسياسيّ فرنسي، بعد الهزيمة في معركة سيدان وانهيار الإمبراطورية الفرنسية، وعودة الجمهورية باسم حكومة الدفاع الوطني، عين رئيساً للسلطة التنفيذية للجمهورية الثالثة الفرنسية أي رئيساً للبلاد ورئيساً للحكومة، والذي اضطر لاحقاً لتوقيع اتفاق بسمارك مع الألمان، إلا أن ثورة في باريس «الكومونة» قامت رفضاً للاتفاقية ولأسباب معيشية، استعمل فيها أدولف أقصى درجات العنف وسجن وأعدم وذاع صيته على أنه البورجوازي الذي يقتل بدم بارد.

(3) يقصد هنا الاستعراض الذي أقيم لنخبة خيالة الجيش الفرنسي وذلك بعد انتهاء المعارك الداخلية وقمع الانتفاضة الشعبية، والذي كان المقصود به إعادة الهيبة للسلطة.

هنا، أي سلطة هذه، وأيّ وعي!

فهو يشعر بنفسه سيد المائدة على رأس مساعديه وطباخيه.

5

الحملة قائمة منذ أكثر من ثلاثة أشهر. وربما تفادياً للمياه الملوثة في القرى، كان هذا الإقبال على شرب النبيذ. كل ذلك بدأ بتهديد الباش آغا المقراني(1) وبعض التابعين له بانتزاع أرضهم وسلطتهم لصالح أسياد آخرين أكثر انصياعاً. وعلى نحو مثير للاستغراب، فقد ترافقت هذه السياسة مع تخفيض للسلطة العسكرية: لا مزيد من العائلات الكبيرة والامتيازات والإقطاع.

رداً على التهديدات، أعلن المقراني أنه لن يقبل بعزله دون ثمن، ولن يبقى مثل ضبعٍ في عرينه ينتظر أن يقتلعوا له قوائمه لكي يموت مهاناً في

(1) الشيخ محمد المقراني هو أحد قادة الثورات الشعبية التي شهدتها الجزائر بعد الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830. محمد المقراني ابن أحمد المقراني أحد حكام (خليفة) منطقة مجانة (الهضاب العليا). وبعد وفاة الأب عيّن مكانه ابنه محمد المقراني لكن بلقب «باش آغا» وامتيازاته أقل من امتيازات أبيه. في مارس 1871م قدّم استقالته للسلطات الفرنسية وفي السنة نفسها ثار على الاحتلال الفرنسي وقاد المقاومة وزحف بجيشه إلى مدينة برج بو عريريج بمساعدة أخيه بو مزراق وابن عمّه الحاج بوزيد. ثمّ انضمّ إلى الثورة الشيخ الحداد. وفي 5 مايو 1871م استشهد محمد المقراني إثر إصابته برصاص جيش الاحتلال. وهو الآن مدفون في بني عباس قرب مدينة بجاية. وكان أخوه قد واصل المقاومة إلى أن أوقفته السلطات الاستعمارية في 20 يناير 1872م. خلّفت هذه الثورة قرابة 100,000 قتيل جزائري، كما أدّت إلى مصادرة الأراضي وتوزيعها على المستوطنين الأوروبيين. نفي الآلاف من الجزائريين الضالعين في الثورة إلى كاليدونيا الجديدة (وهو اقليم تابع لفرنسا يقع في قارة أوقيانوسيا جنوب المحيط الهادئ)، كما نفيت عائلة المقراني إلى الجنوب. وإثر هذه الأحداث الدامية وإصدار قانون الأهالي عام 1881م، ازدادت هجرة الجزائريين إلى خارج الوطن وبخاصّة إلى سوريا.

وضح النهار. فقد صدق وعده ودعا مناصريه إلى العصيان. لم يكن من الصعب على المقراني إقناع كبير القادة الروحيين الشيخ الحداد، المولج بإصدار الفتاوى الدينية: «إن كنتم مؤمنين، انهضوا للموت...». وجاء الرد في التاسع من أبريل، في أحد الفصح، حين أحرق الجنرال سوسييه البرج وكل قرى مجانة[1]. وعلى الفور شنت مجازر ضد مستوطني باليسترو، وقطعت الطرقات مع مدينة الجزئر وحوصرت تيزي أوزو وآيت ايراثن. وانترعت كامل السلطات من القبائل.

«لقد وقعت الخسارة»، قال دينيف، «لن يقبل المقراني بسلبه مئتي ألف هكتار من الأراضي مع كل امتيازاته وعبيده وحقوقه. هذا أيضاً ربما يمكن حله. لكن أن يكون يهودياً واضع مرسوم كريميو[2] هو الذي يتكلم مع المسلمين وكأنه رئيس دولة ويقودهم، فهذه مسألة أخرى. يمكن أن نزعم أن مراسيم التجنيس تعود إلى عهد الإمبراطورية وبأن الجمهورية لم تفعل سوى تطبيقها، ومن دون هذه الضربة ما كان المسلمون لينتفضوا أبداً. فقد رأوا الجيش منتهكاً وقادته مهانين مطاردين من قبل أنذل الناس، والضباط الذين يديرونهم مهانين من قبل المستوطنين المستعدين للسيطرة على كل

(1) مجانة هي بلدية جزائرية في إحدى دوائر ولاية برج بوعريريج.

(2) مرسوم كريميو نسبة لأدولف كريميو اليهودي Adolphe Crémieux، الذي كان وزيراً للعدل في فرنسا، والذي أصدر مرسوماً في أكتوبر 1870 يعطي الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر، مميزاً هنا اليهود عن المسلمين. ثم جاء مشروع «بلوم– فيوليت» في 1936 وقد هدف إلى منح الجنسية الفرنسية إلى ما يزيد على 20000 مسلم فقط اختيروا على أساس درجة «تماهيهم مع الوطن الأم» (متعلمون وتجار وحاملو أوسمة من الحرب العالمية الأولى الخ – كما يقول نص المرسوم)، ولكن دون إجبارهم على التخلي عن شريعتهم الإسلامية. وقد فجر هذا المشروع المتواضع حملة معارضة عارمة في كل مجتمع البيض الاستعماري أدت إلى سحبه في العام 1937 وإلى فوز غالبية كبرى من رؤساء البلديات من أوساط اليمين المتطرف في المعركة الانتخابية التي تلت ذلك.

الأراضي، وفوق كل هذا بدا لهم اليهود منتصرين! والجواب هنا: الحرب المقدسة والمجاهدون».

بالنسبة للمؤمنين، كلام فرنسا لا قيمة له. لقد قال المقراني «أفضّل أن أضع رأسي تحت السيف ليقطع من أن أكون تحت رحمة يهودي»[1]. الباش آغا المقراني، سي الحاج محمد ابن الحاج أحمد المقراني، قد يوحي بأنه أحد المتحدرين من حرس سانت لويس، مونتمورنسي[2] الذين بقوا في الجزائر بعد معركة المنصورة وتحولوا إلى الإسلام!

منذ ثلاثة أشهر، لم تتوقف المعارك والقتل والحرق. أرتال أخرى من المستوطنين من بجاية وديللي تقدمت وجعلت تنهب المشتبه بهم وتعدمهم. في المقلب الآخر من جبال جرجرة قبل مرتفعات البيبان[3]، كانت مستوطنة السهل[4] مسيطرة تماماً على السهل، هي التي قتلت المقراني في الخامس من مايو. لم يعد هناك لدى الثوار سوى الاختباء مع الجرحى في قمم لالا خديجة، التي تغطيها الثلوج على امتداد العام، والتحول إلى ذئاب والموت، أو إن تمكنوا من الوصول إلى منطقة نفوذ بني عباس والتي تبعد ثلاثة أيام سيراً على الأقدام باتجاه الشرق في سلسلة من الجبال، يمكن تركهم يرحلون بانتظار الانقضاض عليهم بين وادي سمامة وبرج بو عريريج عندما نصبح أقوياء بما فيه الكفاية. ولكن من يجرؤ على الصمود أكثر من ذلك عندما يعلم أن أبطال إيفرحونن هزموا؟ لقد تعلموا

(1) وهي العبارة التي قالها الشيخ محمد مقراني، قاصداً بها أدولف كريميو الذي كان وراء مرسوم التجنيس، وأيضاً وراء سلب الأراضي من الجزائريين وتوزيعها على أوروبيي الجزائر.

(2) نسبة لمنطقة Montmorency الفرنسية.

(3) البيبان هي سلسلة من الجبال شمال الجزائر.

(4) السهل هنا منطقة في الجزائر.

الكثير من الدروس حتى الآن. ولم يعد أحد لديه أوهام حول الشهامة الفرنسية. أناس انتظروا لإطلاق ثورتهم عندما رأوا فرنسا مهزومة، مسلوبة، خربة، منهوبة من قبل الإلمان، والآن غارقة في حرب أهلية. فهل نترك هنا عصابات من المشاغبين تذلّ احتلالاً عادلاً؟

يجب القضاء عليهم بالنار والحديد، لأن جميع القبائل، ما عدا قلة قليلة صغيرة، تحولت إلى الثورة. أيّ كتلة رهيبة هذه! كتلة لا يمكن تقريباً اختراقها، فهي تنتشر على مساحة عشرين ألف كيلومتر مربع، حول جبال جرجرة. الثلج شتاء والجراد صيفاً، وديان في كل مكان وأجمات ومنحدرات وقلاع يظنونها غير قابلة للاختراق وخزان لا ينضب من الثوار المعلقين في الصخور من البحر حيث تمزق العواصف السفن، حتى اليابسة جنوبا، من أعالي البيبان، باتجاه الأراضي الجرداء لجبال الأوراس! يردد القبائل إعلان عقيدتهم ويسكرون بها: «رجال أحرار، اسمكم رجال أحرار، آه يوغرطة[1]، الشمس تشرق، وريح الثورة تعصف...».

6

يشكّل العشاء، بالنسبة إلى النقيب غريبه وإلى كريجيه وكل البقية، لحظة من السعادة، يعومون خلالها على مشاعر من الرقة وحنان الصداقة الذكورية. ينسون تقريباً ظروفهم ويطلقون العنان لمشاعرهم.

«لنتكلم في شأن آخر»، قال دينيف، «يا سليمان، هات الحلوى».

أيضاً صحون من الكرز مسروقة من البساتين المدمرة. وأقداح

(1) يوغرطة، ملك نوميديا، قتل أخويه بالتبني، ابني عمه مكيبسا، وكنتيجة لذلك واجه الجمهورية الرومانية. كلمة يوغرطة أو يوكَرتن أو يوجيرتن Jugurtha في المعجم الأمازيغي تعني أكبر القوم سناً.

للقهوة.

لوى دينيف فمه والتفت نحو كريجيه:

«لقد وعدتك بأن أنقل أخبارك إلى السيدة كريجيه. لا تلمني على ذلك. لم يكن لدي الوقت. كل شيء يجري بسرعة. عليك أن تساوم التجار. الحياة أصبحت مكلفة جداً بسبب مواطنيكم الذين يأتون ببواخر كاملة. وهم محقون بالمجيء فهنا ما يكفي من الأرض».

تحركت لدى كريجيه مشاعر كرهه القديمة للألمان. فالألزاس وجزء من اللورين، ما عدا بلفور، كانت ثمناً للسلام، بالإضافة إلى الخمسة مليارات[1]. ومنذ يناير، سمحوا لسكان الألزاس بالتمركز في سهل يسر ومملكة المقراني المصادرة.

«لم يكن لديه وقت» فكر هكتور. كان عليه أن يرى عاهرته، زوجة أحد البقالين بالجملة. في صوت دينيف مرارة ما: حفلة الترقيات خلال حصار باريس، التقدم الفاضح للضباط الذين تملقوا السلطة، في حين أنهم هنا بعيدون عن الشموس المذهبة على القبعات العسكرية.

---

(1) الألزاس واللورين إقليم في الشمال الشرقي من فرنسا، على الحدود الألمانية الفرنسية وقد ظل سكانه مئات السنين نصفهم فرنسي والآخر ألماني وظلت الأقليم لفترة طويلة منطقة متنازعاً عليها بين فرنسا وألمانيا. بقيت الألزاس واللورين تحت الحكم الألماني حتى القرن السادس عشر الميلادي، عندما استعادت فرنسا السيطرة عليها تدريجيًا. وكافح الشعب ضد الجهود الرامية إلى جعلها فرنسية. لكن الثورة الفرنسية عام 1789 أحدثت تغييرًا في الصميم. فأصبح الشعب الألزاسي فرنسي الروح، إذ انتقل إلى فرنسا أكثر من خمسين ألفًا، عندما استولت ألمانيا على كل الألزاس تقريبًا في 1871. وافق الألمان على التنازل عن الألزاس واللورين بعد الحرب العالمية الأولى. واستعادوا السيطرة على الإقليم في الحرب العالمية الثانية. وقاموا بترحيل آلاف الناس خارج الإقليم، واستبدلوهم بألمان وبولونيين، وروس. لكن الحلفاء طردوا الألمان من الألزاس واللورين في عامي 1944 1945 واستعادت فرنسا السيطرة على كامل الإقليم ثانية.

فك أزرار سترته، وأخرج محفظته وأخرج أوراقاً جديدة من فئة العشرين فرنكاً التي حلت مكان ذهبية لويس[1]. تناوب الضباط على رؤية الورقة الجديدة وتفحصها.

– رأس الجمهورية، قال دينيف، يمكن رؤيته بوضوح. بالطبع إنها ورقية ولكن ألم يكن من الأفضل أن تكون قطعاً نقدية. في الجزائر، سرق اليهود كل الذهب. فهل تفاجأون إن ضربهم العرب.

– وهل ما زال ذلك مستمراً؟

– لقد حطموا محلات شارع باب أزون وشارع لير ونهبوا الكنيس.

انفجر دينيف بالضحك ماداً يده ليتناول الكرز:

«كرز إيفرحونن»، قال وهو يضع البذور في صحنه، «لذيذة، أليس كذلك؟ ممتلئة، حلوة».

تخيل هكتور ثكنته وقد شغلها ضباط آخرون، مقاهي ساحة العرض العسكريّ تغصّ بهم بأحذيتهم اللمّاعة، ملاحقين النساء وباحثين عن المغامرات. أليس هذا هو السبب الحقيقي وراء صمت مارغريت؟ أنها تعرفت إلى نقيب آخر، يرتدي سترة زرقاء فاتحة ويضع الشارات الفضية، شاهراً سيفه ومتقدماً وراء الأبواق على رأس وحدته العسكرية، مثلما كان يمشي هو قديماً، إلى جانب جنراله، عندما ظهر في المزرعة...

حرب، بعض مفرقعات، هزيمة، نغضب، ننهض، ننحني تحت أثقال الخزي والأحزان. ليلة قصر باخ تلك، التي يتحاشى الكلام عنها، ما زال يعيشها. حاولت مارغريت مراراً أن تعرف بحجج مختلفة، لكنه تردد في الاعتراف، فهي لن تفهم ولن تسامحه البتة. ستنهي كل شيء وترحل.

(1) Louis d'or هي عملة فرنسية أطلقها لويس الثالث عشر عام 1640.

بعد عشر سنوات من الزواج، هذا التمزق؟ يظن المرء نفسه محمياً خلف أسوار الألفة والرقة وبالكاد ينظر إلى نساء أخريات. جسد الآخر يضاف إلى جسده ويمسي جسده الخاص، وتحلّ عينان أخريان محلّ عينيه ويشعر بالعذاب إن فصلته الظروف عن هذا الآخر، ولكن تكفي مغامرة واحدة لتقلب كل شيء رأساً على عقب. السيدة دو رواي، التي لم يحسب يوماً أنها ستتنازل؟ ربما كان قد عانق وهماً في تلك الحفلة عندما جعلته الشمبانيا والبريق والأضواء والموسيقى والرقص والعالم والنجوم يشعر بالدوار... أحسّ برغبة في النهوض والذهاب إلى أنطوان لسؤاله. أختك مارغريت... علماً أن ماري هي التي يحبها أنطوان أكثر، أما مارغريت بالنسبة إليه فهي نجم مذنّب... أختك مارغريت، قبل أن تعرفني، ماذا كانت تقول؟ تخيله يجيبه بأنه لا يتذكر، وبأنه كان ما يزال صغيراً جداً، وبان مارغريت كانت أقرب إلى عائلة الدبرام، وهو وماري أقرب إلى بويشو، إذن حكماً...

عليه أن يجد أنطوان في أسرع وقت، ليتحدث معه عن مارغريت. تأخرتَ كثيراً يا عزيزي. لقد وقعت الخسارة. كان لديك كنز وسلب منك.

«أين تذهب يا هكتور؟ آه لا، يا صديقي. أنهِ قهوتك. ومن ثم، من ثم...».

ناداه دينيف واتكأ بذراعيه على الطاولة.

«أليس كذلك، سادتي؟ في يوم كهذا حارب فيه النقيب غريبه كالأسد، نحن نعرفه، لا يمكن أن تغادرنا هكذا. هكتور، أغنية!».

في الخيم الأخرى على مائدة الخيّالة، يصل صوت غنائهم، أغنية دي

لاسال، أفضل جنرالات الجيش في عهد الإمبراطورية، والذي قتل خلال مهمة إلى وغرام.

إن... كانت قاسية أحياناً...

يغنّون هذه الأغنية منذ يوم الحصن الوطني. فالأغاني التي ستتوطن القلب عبر الهزيمة، تنتشر بين الجنود في زحفهم، أو في المساءات التي يمضونها قرب النار. وقد بدأ هكتور بإنشادها في البليدة، في الجبل، وسط رائحة الأكواخ المحترقة، عندما كانوا يفتتحون العشاء تحت حراسة الخفر وعندما تلمع أولى النجوم، وتشعّ أمام أنظارهم المدينة في الأسفل، وحتى إنه يمكن رؤية أضواء مدينة الجزائر عندما يكون الضباب منقشعاً، ذلك الطوق من الأنوار في جادة الإمبراطورة المليئة بالمصابيح التي تعمل على الغاز. ما كانوا يهتمون بالكلفة في ذلك الوقت. أما اليوم – أتراها إشارة؟ – وبعد أن حملت الجادة اسم الجمهورية، ما عادت تضاء إلا حتى العاشرة ليلاً. يقتصدون بغرض توفير الفحم الآتي من فرنسا. لم يكن هكتور من بدأ بالغناء، بل أحد ضباطه: لو سير دي فرومبوازي[1]، عائداً من الحرب بعد خمس سنوات ونصف السنة، لم يجد أحداً في منزله، بحث في كل مكان من القبو وحتى وجار الكلب، طاف باريس كلها، ليجد امرأته الجميلة في حفل في كليشيه[2]. كل عبارات الأغنية تنتهي بـ إي. أغنية حزينة ككل أغنيات الجنود والمحكومين بالأشغال الشاقة. أعجبتهم. بدأ

(1) أغنية Le Sire de Framboisy ألفت في العام 1855، وهي واحدة من الأغنيات التي درجت في تلك الحقبة، وعرفت رواجاً كبيراً وما زالت لغاية الآن في أساس الكثير من الأغاني القديمة. وتحكي عن رجل يتزوج امرأة رائعة الجمال تصغره بسنين كثيرة، عند عودته من الحرب، يجد البيت فارغاً، يبحث عن زوجته ليجدها ترقص مع الشبان، فيقتلها، وتنتهي الأغنية بالقول إن المرأة الفتية يلزمها شاب يافع.

(2) من كلمات الأغنية.

النقيب بغناء أغنيته الخاصة، هي نفسها دائماً، لي زاديو دي توليب[1]، التي تذكّرها، الأغنية في معركة الحصن الوطني، كانوا منتصرين حينذاك، كان أكبر انتصارٍ، وكانت نهاية شهيرة. عادة، لا يعيد الأغنية مرتين. ولكن في عشاء دينيف، كان عليه أن يدفع حصته. هذه المرة حقاً...

«وقوفاً هكتور، لاتوليب!».

هناك الكثير من الأساليب لغنائها، أغنية جنود المارشال دي ساكس هذه، في فونتينوي. الأسلوب الساخر أو الاحتفالي أو الفظ.

رغم المعركة التي نخوضها غداً...

تبدأ الأغنية بإيقاع راقصٍ فرح، ثم فجأة، مع آخر مقطع لفظي من كلمة «غداً[2]» شهقة صغيرة، تنتقل بعدها الأغنية إلى نغمة أهدأ إيقاعاً:

هيا، فلنأكل ولنشرب بشراهة، أيتها العاهرة الفاتنة...

هذه المرة، لفظ هكتور الكلمة بصيغة الجمع: «أيتها العاهرات الفاتنات...» وأهدى الأغنية إلى السيدة دو رواي ومارغريت.

كان لهكتور صوت جميل، قوي، جهوري، عميق، لا تظهر فيه لكنته الغاسكونية. يتحول عندما يغني إلى ذلك النقيب المفطور القلب، الخائف من أن يكون قد أذلّ. أما دوبوي، ذلك المتباهي دوبوي، فقد كان بعيداً. كان يرغب هكتور في أن يكون أنطوان هنا، هو الذي يعمل لتحرير بلاده، لكي يعلمه معنى الأخلاق الحربية. يا صديقي المسكين، جميل جداً كل هذا، ولكن اسأل الندل عن رأيهم بأولئك العرب الشجعان الذين جاؤوا هم أيضاً لمحاربة القبائل في حين أن نسوتهم...

(1) Les Adieux de la Tulipe أي وداع الخزامى.

(2) أي Demain بالفرنسية كما تأتي في الأغنية.

آه، امسحي دموعك، وانسي حزنك
النصر، الذي تطلبين...

كان دينيف يدندن معه، ضارباً على الطاولة، مرافقاً الإيقاع الذي ينشز دوماً، ولكنه يعاود الانطلاق بنبرة حزينة:

... وداعاً، أيها الحب.

نسوا حاضرهم، أشعلوا سجائرهم، ذهبوا للقاء طلائعهم، قوافل بغالهم، تماماً مثل الخروج من حلم بطعم كرز في الفم، بدوا متسامحين، وقضوا الأصيل يرددون: لا توليب.

7

وصل البريد. هرع إلى مكتب القيادة. إذا كانت قد وصلته رسالة، فسيودعها ساعي البريد العسكري هنا. لم يجد شيئاً. كان ثمة الكثير من الرسائل لكريجيه الذي أخذ يفضها، يلتهم كلماتها متذوقاً إياها كلمة كلمة؛ إنه لمشهد يُروى. لقد فقد كريجيه صوابه. لم يعد يقابل أحداً. يجلس على صندوق ذخيرة، ويقرأ ويقرأ، متمتاً أحياناً شفتيه، ومبتسماً في أحيان أخرى. ينتقل من رسالةٍ إلى أخرى، يفحص الختم البريدي، يريد أن يقرأ الرسائل بالترتيب. كانوا يعتقدون أنه يتواصل مع السيدة دو سيفينيي. عما ستكلمه السيدة كريجيه؟ عن موسم الخضار، عن الأفكار التي تسود في الجزائر، عن متاعبها مع صاحبة السكن؟ لن يكون كلامها عن الحب على أي حال. رسالة حب لا تُقرأ بين الناس، وتحت نظر الأصحاب. نقرأ سريعاً ربما بداية الرسالة وخاتمتها، ثم نبتعد، نختبئ، ننفرد بأنفسنا قبل أن نقرأ الكتاب المقدّس. الجميع تلقوا الرسائل، ما عدا دلفيني، الذي

بدا كأنما يسخر من الرسائل ويقرّع رجاله. كان النقيب يكنّ له شيئاً من المودة «علينا أن نمنع الضباط في الحملة من تلقي الرسائل»، قال هكتور، «يجب ألا نسلمهم إياها إلا في النهاية. انظر كريجيه. ما عدنا نعرفه. ها هو غارق في عالم آخر، غائب بالكامل، ثم هكذا لن تتعرض السيدة كريجيه للخيانة. صحته، أخبار بلا معنى، ثرثرة، لغو، لقد عوض كل ما فاته. لحسن الحظ، لم تُوزّع الرسائل قبل الهجوم، وإلا...».

«دلفيني، استدعِ الجندي بويشو».

تلك العاهرة مارغريت. إنها مشغولة جداً. ربما مع نقيب قناصة. من يعرف؟ قائد سرية، كولونيل؟ أو أن السيدة دو رواي قد وصلت، وجلست الاثنتان تثرثران، ساردتين قصص حياتهما ومتنزهتين معاً. وتخيل حينئذ، هي التي تجد صعوبة في الإمساك بالريشة، أن تكتب لزوجها. يا إلهي، نعتقد بأننا أصبحنا أقلّ تعلقاً بها، رؤيتها دائماً إلى جانبنا تبلد مشاعرنا، نتركها من أجل الحرب، نلتقيها بعد شهرين، نعتقد بأننا نعود من مناورات عظيمة، لقد سبق وحصل ذلك، ولكن لا، إطلاقاً، إننا نسير وسط الخراب، يمكننا أن نتماسك ولكن كل شيء قابل للانهيار، أولادك يصبحون غرباء عنك، وزوجتك... هل هي التي تغيرت أم أنك أنت من لم تعد تراها بالطريقة نفسها؟ قديماً، كان يتساءل إن كان سيتذكرهن... نساء المواعيد، يضيع ويخلط بينهن. دائماً، لحظات الترقّب القلقة اللذيذة. في البداية لا يكون متأكداً أنها ستأتي، ثم سيذهب للقاء من؟ هي نفسها، كيف هو شكلها؟ امرأة أخرى؟ يبحث عنها في ذاكرته، يعيد رسم ملامحها، قامتها، صوتها. أحياناً، يشعر برغبة في تركها، ثم يستبدّ به الكسل، الفضول... فيبقى. وفي الغالب يصاب بالإحباط. لذلك فهو يتحاشى التواصل.

مغامرته مع مارغريت بدت له في البداية كارثية. لو كان مع جنرالٍ آخر غير السيد دو رواي، لكان أفلت من العاقبة، أما في ظلّ قيم الجنرال ومبادئه الأخلاقية! ليس نادماً على ذلك. حتى إنه وجد شيئاً غريباً في مارغريت... ماذا؟ حسناً إنها الكائن الذي خلق لأجله، إنها نصفه الآخر وليست صدفة، إنها الجانب العذب منه، المضيء، زوجته. فهي التي تكسبه الرقة، تذيب الحديد الذي يتكوّن منه. أحياناً ينتفض متسائلاً إن لم يكن في طريقه للتحول إلى بورجوازي. ضباط عهد الوصاية سيعتبرونه قد تبدّل للأسوأ. حياة الفوضى القديمة لا يمكن أن تستمر. بالطبع مثل سيده المارشال سان – أرنو، كان يحلم بالاقتران بفتاة من الأثرياء، امرأة لامعة تدفعه إلى العالم وتعزز مسيرته المهنية. وبدلاً من ذلك لم يحصل سوى على امرأة أمية، لا تملك إلا عينيها، نعم ولكن أيّ عينين! وقامتها، وشبابها وشغفها. ما عاد يستطيع رؤية غيرها، يسمونها السيدة غرييه الجميلة، هذه الفاخرة، يقولون، لم يضع وقته هذا الرجل المتأنق، أين اكتشفها؟ شيئاً فشيئاً بدأ يتفاخر بها، ويشكر القدر الذي أرغمه على الزواج منها. كانا فقيرين، ولكن أيّ غنى! الأولاد اللذان أنجبتهم مارغريت على دفعات، لم يجعلوها سوى فرسٍ ضاجة بالحياة، نحيفة، مشتعلة. تعلمت الكتابة والقراءة بسهولة. لم يكن ينقصها سوى الأسلوب، فقد بقيت برّية منغلقة على نفسها ولم تهذب علاقاتها.

خبط أنطوان قدميه بالأرض محيياً وصافحه. تقدم غرييه وأحاط كتفه بذراعيه.

«أتلقيت أيّ رسائل؟».

رسالة من لاتيتيا، لا تقول فيها الشيء الكثير: مشتاقة له، ابن محمد

يعمل في المزرعة، والوالد متوعّك قليلاً، فذلك أمر طبيعي نسبة لعمره، إذ اقترب من الخامسة والسبعين. والكلبة زهرة ثقبت إحدى أذنيها، وهي الأخرى شاخت.

«ألم تخبرك شيئاً عن مارغريت؟».

نظر أنطوان مستغرباً. مارغريت في البليدة، على بعد عشرة كيلومترات...

«في المزرعة، أنت تعرف، لا يمكن رؤية أحد. نعيش كالكلاب».

أنطوان لا يرفع الكلفة مع صهره: إنه نقيب! كان دائما يتساءل كيف يمكن مناداته مع فارق عمرٍ بهذا القدر وهذه الرتبة العسكرية. يتذكر زيارة هكتور الأولى للمزرعة مع الجنرال: نوع من السراب يزيده الزمن سحراً، نقيب زواويين في العائلة. عندما وصل هكتور، تغيّر كل شيء. باتت لديهم سلطة. الأم تقول: «هكتور هذا، إنه رجل...» لم يكن يبهره شيء. الغرفة القديمة لمارغريت، تركتها لاتيتيا كي تنتقل إلى غرفة شقيقها أنطوان الذي بات ينام على فراش من القش. مدوا سريراً كبيراً ووضعوا خزانة للزينة ورثتها لاتيتيا من مارغريت. في المرة الأولى شعر أنطوان بالغيرة، لكن هكتور ومارغريت وجدا هذا التغيير طبيعياً جداً. لم تعد مارغريت هي نفسها. لم يشعر في الأساس، تجاهها بأي عاطفة استثنائية. كانت بعيدة، ضائعة في أحلامها وبجمالها الذي لم يكفّوا عن الاحتفاء به، في حين أن ماري، يا لذاك الشعور بالانسلاخ عندما تزوجت، وانتقلت إلى سيدي موسى! أي فراغٍ تركته! وكأن المزرعة تقلصت. أما بالنسبة إلى بيار ودولوريس، فلم يكن الأمر كذلك، إذ بقيا في الخارج. وفجأة، وجد أنطوان نفسه يتقاسم المنزل الواسع مع لاتيتيا. المزرعة صغيرة جداً والمنزل

كبير جداً، وخلال الحرب، وعلى حين غرة، تعود مارغريت مع أولادها، ويكون على أنطوان أن ينحى مرة أخرى جانباً. أقام تخشيبة مقابل الإصطبل وأسماها كوخه. كان الوقت صيفاً وفي تلك السنّ، كان يشعر بالحاجة ليكون له حيزه الخاص. ارتاح فيه فرغب في البقاء. وبغتة، وعند وصول خبر الكارثة قرر أن يرحل. يا صغيري، يا صغيري، لا تعرف. ماذا ستصبح؟ هذا لو كنت مجبراً على الذهاب، لو تشكلت أساساً الجيوش، لو جاءوا يقتلعونك... قالت الأم للأب: «إنه خطؤك، دمك الذي يجري في عروقه، لقد حدثته كثيراً عن حملتك في الجزائر عندما فقدت عقلك، وهو الآن يريد أن يفعل مثلك...». إنه أمر آخر لا يمكن شرحه. عناد لا يمكن لأحد أن يفقه كنهه. غريزة. شعوره بأنه سيصبح شخصاً مهماً. وماذا لو فقد حياته؟ نهض دون أي كلمة وذهب إلى الدرك. قالوا له: حسناً، سنستدعيك. شدوا على يده. عاد صامتاً، كما هو دائماً، ولكنه تغير. لا يمكن أن يغدو رجلاً إلا على هذا النحو.

«ومن سيدي موسى، أمن أخبار؟ كيف حال أورتينس؟».

على صخرةٍ، وسط الضوضاء الكبيرة للجيش، صراخ ونقاشات حادة، وخيول تصهل، مدافع تُركّز على قمة تلة مخلفةً غيوماً من الغبار، أوتاد خيم تغرز في الحصى، قرع أبواق. أما الموسيقى فقد صمتت، وأنهى القائد العام عشاءه.

«اليوم عيد القديس جان»، قال هكتور، «هذا المساء سنشعل الأنوار في كل مكان. هل سبق أن رأيت هذا؟ عندنا، في الجير[1]، يعمّر الشباب

(1) Gers منطقة في فرنسا.

محاطب في أسفل المدينة، عند سفح النهر. وعندما يأتي المساء، يضرمون فيها النار. نسهر ونغني حول النار، نقفز فوقها. هنا في الجزائر، أنت محق، نعيش مثل الكلاب. فالعرب وحدهم الذين يصنعون الفصول. عيد الميلاد والفصح وعيد جميع القديسين، هذا كل ما نحتفل به. لا أقول إن عيد سان جان هو عيد ديني كبير... انقلاب الشمس في الصيف، عيد وثني ربما، ولكنه عيد، الوقت الذي تكون فيه الشمس في أعلى سمت، سماء ذهبية، ليال تملؤها النجوم المذنبة، إنه وقت الحب. الشمس هنا لاسعة كالسوط...».

في المقابل، أمام الفوضى الكبيرة للقمم التي ما زال الدخان يتصاعد منها، نشعر أن هذه القرى سيلزمها سنوات لإزالة الدمار وبناء السقوف. يمكن توفير العوارض الخشبية بوجود كل هذه الأشجار المحطمة، ولكن كيف يمكن العيش بلا أشجار التين؟ سيلزمهم نصف قرن للحصول على شجرة تين جيدة.

«على الطرف الشمالي، أيضاً، يتصاعد الدخان»، قال انطوان.

فتح هكتور خريطته. إنها القرى التي دكتها المدفعية قبل الهجوم للقضاء على الخطر الذي قد يأتي من جهة «بني يني». باتجاه الحصن الوطني كل شيء يبدو هادئاً الآن. الليل الذي يدنو صبغ بالزرقة القمم التي يجري خلفها نهر وادي سيباو وفوقه الجبال، والشريط الساحلي.

«وبعده البحر».

على الخريطة، فراغ كبير، مع تعرجات تتباعد تدريجياً حتى تصل إلى الشاطئ.

– أنت وأورتينس، ليس ذلك بسيء، كم عمرها؟

– ثلاثة وعشرون عاماً. بالضبط. وتشعر بأنها مسنة. قالت لي: «أنت فتي» تعتقد أن على الرجل أن يكون أكبر منها.

سحب أنطوان من جيبه رزمة رسائل ملفوفة في منديل فتحها قليلاً ليكتشف داخلها خطاً كبيراً طفولياً. لا يتذكر هكتور جيداً أورتينس، رآها مرة أو اثنتين. وجه قاسٍ، كئيب، شعر كستنائي، شيء من العجرفة والشرود في نظرتها، فتاة تبدو عليها المعاناة من حياتها في المزرعة، من رفقة رجال الشرطة، فليس لدى آل باري سوى الشرطة. أخذ يفلفش الرسائل.

«إليك هذه، أحياناً، سطران فقط: «أفكر بك. لقد جاء الطبيب. أتمنى أن أكون قد شفيت مع عودتك»».

كما الأخريات. لا تأمل سوى بأن تجد الحب. قصة الهروب تلك عند العرب، التي يتحدثون عنها دائماً بنوع من الافتتان، ماذا تعني سوى أن أورتينس تبحث عما تفتقده؟ ما أهمية فرق السنين الثلاث بينها وبين أنطوان؟ بينه وبين السيدة دو رواي فارق العمر نفسه أو ما يقاربه. أكان بالإمكان ملاحظة ذلك؟ هناك شيء آخر تتقاسمه أورتينس مع سابين: ذلك الجانب الرهباني. لنتكلم عنه! هذه الأرواح القلقة، عندما تنفلت...

– أهي متدينة؟

– تقصد القداس كل أحد، عندما تسنح لها الفرصة.

– وماذا عنك، أأنت مؤمن؟ سيكون جيداً. أنا أتساءل... هل العرب مؤمنون. والقبائل أيضاً. ربما لهذا السبب ينتفضون. لا يخافون. هل تعرف كيف يتخاطبون في لغتهم السرية؟ أيمازغين: الرجال الأحرار. لا يمكنك أن تعرف من هم سوى عندما يعرف العربي

الذي يعمل مع والدك، كما سكان جبال البليدة، بخبر السيطرة على إيفرحونن.

– ماذا تعني إيفرحونن؟

– حسب مترجمينا، تعني العلامات، الشارات، الندبات. كان عليهم دائماً أن يتحاربوا هنا.

تأمل هكتور أنطوان وهو يبتعد، بالكاد بلغ العشرين. ماري ألدبرام تؤكد أنه يشبه أباه في شبابه. بالطبع، أكثر نحافة وطيبةً. لديه شيء من البراءة والنقاء، لا شيء من تلك الشراسة المصحوبة بالسخرية التي ما زلنا نلمسها لدى الأب، وهو كل ما تبقى من عنف أيامه الغابرة. قامة جميلة، كتفان عريضان يمكنهما أن يشقا سترة، وعينان رقيقتان، وهو ما يلزمه كي يكسب قلب أورتينس.

أصاخ السمع. في بستان قريب جداً، قرقف[1] يغني، نحل يطن، لقد استعاد البستان سلامه. غيوم تسبح فوق القمم، العاصفة تتبدد ساحبة معها أوشحة الغيم، كاشفة بالتدريج عن سلسلة صخور جبال جرجرة ونتوءات صخرية سوداء متشابكة وظلال تشبه بحيرات وسلسلة يغطيها الثلج. وداعاً، أيها الحب. أراد أن يرى أنطوان ليعرف أكثر عن مارغريت، فلم يتحدثا سوى عن أورتينس.

كم تبدو مارغريت، على نحو مفاجئ، بعيدة! أن يغادر هذه السعادة الرهيبة للقتال، منذ أسبوع فقط، من أجل إرباك عاطفي بسيط، كما لو كان إرباكاً في المعدة؟ يكفي أن يتقيأ في ركن ما، ثم أن يغمر وجهه في دلو ماء. هذا وهو ما كان عليه فعله. كان قد فك أساساً أزرار سترته، وتخلص

(1) قرقف هو نوع طير من الجواثم.

من منظاريه الثقيلين، وفك أيضاً حزام سيفه. ولكي يدخل إلى خيمته، أحنى رأسه.

8

في خيمته، في العتمة، وفي التماعة ضوء رأى دوبوي.

«هذا أنت؟ كنت فقط...».

لم يكن لديه الوقت كي ينهض. فقد أردته الطلقة النارية أرضاً بين الغبار، متحشرجاً.

«فقط... أردت أن أقول...».

«أردت أن أعتذر. لقد تصرفت بفظاظة. هل تريدني أن أعترف؟ شعرت بالغيرة، عزيزي. لقد سرقت مني مجدي لذلك هددتك. حتى إني ذهبت أبعد من ذلك. شبهتك بالبزّاق. حسناً. حسناً ليس هناك بزّاق في المرتفعات، بين الحصى... أثور وأمضغ التراب ولا يعود بإمكاني أن أبصق... نعم، ساعدني. أرى ناراً. فقد تحولت إيفرحونن إلى مجمرة، والليل أصبح شعلة نارٍ، تتدحرج، تتشقلب، تنقلب رأساً على عقب، ألسنة نار تتصاعد في السماء وتسقط فوقي، يا لهذه الألعاب النارية، الجنرال قديسٌ.

«اذهب واستدعِ لي... الملازم أول... قُصَيري...».

«لقد جمعت النساء في إيفرحونن، ذهبت للبحث عنهن في واقنون إزم، أو إنهن عدن من تلقاء أنفسهن لأنهن طردن؟ ولكن لا، إن كن هنا في المنازل التي تحترق، تحت السقوف التي تنهار مع كل هذا الشرر، لكان انتهى بهن الأمر بأن يسكتن، فهل أن غناءهن غناءٌ؟ لا إنه صرخة حيوان وهذه الحيوانات يجب أن تقتل كي تصمت. نساء مغتصبات. يا

عزيزي، يحتفلن بالحب وبقوة الفرسان المنتصرين وبانتصار الرجال الذين يصلون مباشرة بعد هدير المدافع وانفجار القذائف التي تحول قرية هانئة إلى دمار، مشهد مسالم في جهنم أو حديث كهنةٍ وسط ضجيج الأبدية. فهن يشكرن على طريقتهن الرجال الذين كرمونهن، وقبل ذلك، أنت الملازم أول قُصَيري، ابن تلمسين في الطرف الآخر من الجزائر، قريباً جداً من المغرب، يقال إنكم متمدنون جيداً هناك، وإن تعلمكم الإسلام هو فعل لباقة فحسب، هناك أيضاً لديكم جبال ولكن ليس لديكم ما يجمعكم بالقبائل، جبال شبه صحراوية ترتفع فقط لمراقبة الناس في السهل.

– قُصَيري، هل تسمح لي بان أناديك هكذا، من دون إشارة إلى رتبتك، لمرة على الأقل، بصداقة؟

– أنا هنا، سيدي النقيب، أسمعك.

– قل لي، يا قُصَيري، أنت العربي المسلم، لم أرك يوماً تقيم صلاتك، أو أنك تصلي عندما لا نراك، في الليل في ساعة متأخرة جداً أو في الصباح الباكر أو أيضاً ربما داخل خيمتك، أنت الذي دخلت إلى الجيش الفرنسي والذي تُعتبر شريكنا في الحرب، الذي كدت تحترق في القرى حيث ذهب جيش المارشال الطيب ماك – ماهون ليحصد ثمار أولى ضرباته، انت الذي انسحبت مع بعض رجالك الذين كنا نتمنى لو رأيناهم، واعترافاً بالشرف الذي قدمناه لهم بمقاسمتنا المصير، ممددين بين القمح، ما رأيك؟ ألا تسمع؟ هذه ليست هسهسة اللهب، ولا عويل الهواء، ولا قرع الطبول، ولا نشيد الزواوين. إنها يا عزيزي وبالضبط زغاريد، الزغاريد التي سمعناها لحظة الهجوم، الذي من المفترض أنه حصل عند الحادية عشرة. «ما هذا يا

قُصَيري؟» لقد فهِمَ كريجيه بسرعة فالنساء متيقنات جداً من النصر ومن بعيد بدأن يحمسن الرجال. أجبت أنت: إنهن متوحشات. عزيزي اعترف بأن لأهل القبائل عاداتهم الغريبة فهم ليسوا مؤمنين كالآخرين. إذن هل تسمع الآن؟ الزغاريد نفسها، لا بل أقوى، إنها تثقب أذني. حسناً من أين تأتي هذه الزغاريد؟ من إيفرحونن؟ من واقنون إزم أو من كل مكان؟ يجب أن تملك الجواب، أنت الذي يعرف نساء القبائل بما أنه يقال إنك حظيت باثنتين منهن. هذا شأنك. بما أنك قررت أن تخدم علمنا وأن تؤمن بأن مستقبل الجزائر هو مع فرنسا، أنا معجب بك وأحترمك. قد تصل في نهاية المطاف لتصبح حاكماً عاماً، وإن فاجأ ذلك المستوطنين. في البداية، كان من الطبيعي، أن أشك في تصرفاتك ونواياك، ولكن الآن، وقد عرفتك، فانا أحترمك. كما أننا نتشارك الرأي نفسه: ما كان علينا إرسال النساء كما فعلنا.

– ها أنا، قُصَيري، سيدي النقيب...

– كنت أريد أن أسألك عن أمر آخر لكنني لم أجرؤ. لماذا لا نرى الكثير من القبائل بيننا؟ لماذا انتفضوا؟ لدى القبائل، يا عزيزي، هناك ما يحصل، هذا البريق الذي يشعل السماء، هذا الأتون الذي يهدر، ويتقيأ دخاناً، يزأر، يرتفع في الليل، يصل حتى البساتين، وجنبات الوديان، يسقط في الوهاد، كمفرش ذهبي ويحول الجبل إلى بركان، أي روعة! النار حيوان. مثل حيوان تركض وتفرقع وتنوح وتنادي وتتألم. أما عدت تسمع؟ أنا لديّ سمع مرهف، عزيزي، أو أنه بالضبط في اللحظة التي انحنيت فيها لأدخل إلى خيمتي، بمنتهى

السعادة للقاء دوبوي الذي حضرت له الأعذار، والذي ضربني بقوة بالهراوة، نعم أنا عنيف، الكلمات تتجاوز دائماً أفكاري، إنها الحرب، لا يمكننا أن نسيطر على أنفسنا دائماً، نحقد على بعضنا من أجل لا شيء، نقتل بعضنا من أجل نظرة أو كلمة، نحزن بسبب رسالة لم تصل، ما الذي حصل؟ أنا أحبه كثيراً، دوبوي، وهو أيضاً يحبني، والدليل، هو وجهه الذي أراه عبر إيفرحونن، وكأننا احتفلنا لأجله بعيد سان - جان، سان جان وسط النار مضرجاً بالدموع. لا، لست مخطئاً: الزغاريد تخرج من كل مكان، لقد حللن مكان بنات آوى، في كل الجزائر النساء يطلقن صرخات الحرب والنصر من أجل الأبطال الذين سقطوا... لو مت، لا تحملوني إلى مقبرة الحصن الوطني، اتركوني هنا وكرموني. نسيت: إن التقيت زوجتي، قل لها إني أحبها وإنها سببت لي الألم، وإننا لا يمكن أن نحَب بعضنا دون أن نغدو نسوراً، دون أن نتمزّق... هذا هو الأمر، قُصَيري، خذ بيدي، لا تلمس كتفي، إني موجوع، الألم يلتهمني. لو كنت رافقتني إلى القمم، فوق البليدة، لكنا أشعلنا معاً الأكواخ وأكلنا المشاوي وتقاسمنا الفتيات. في قصر الجنرال دو رواي، لا، لم يكن الأمر نفسه، كنت لتخرب عليّ ليلتي، أعترف لك، لو رافقتني، يا كريجيه!

– سيدي النقيب...

– كرزاتك، كريجيه، أين هي؟ أعطني بعضاً من كرز إيفرحونن..

الجزء الثاني

نسوة السهل

لكنك أيتها المرأة، يا كدسة أحشاء، ويا رأفة طيبة،
لست أبداً الأخت المحسنة، أبداً
لا نظرتك السوداء ولا بطنك الذي يرقد فيه ظل أصهب،
لا أصابعك الرشيقة، ولا نهداك هذان في نحتهما الرائع.

أيتها العمياء، غير المستيقظة، ببؤبؤيك المديدين
ما عناقاتنا لك سوى سؤال:
أنت يا من بنا تعلقين، مزدانة بحلمتين
ونحن من نهدهدك، عذاباً ساحراً، خطيراً[1]

أرثور رامبو، 1871

الفصل الأول

إصابة النقيب غربيه تعيده إلى بوفاريك. عودة مدام دو رواي. التمرد من خلال أفكار محمد، الخادم العربي.

(1) هذه الترجمة هي للمترجم والشاعر العراقي كاظم جهاد، آرتور رامبو: الآثار الشعرية، دار الجمل، 2007.

1

مارغريت هنا.

جالسة إلى طاولة المزرعة، قبالته، إلى يمين الأم في مكانها الأبدي، وكأن ثمة تواطؤاً بينهما. كلتاهما تحملقان به باستغراب، وكأنه طريدة، أو عابر سبيل أو عدو. عيونهما، خلف ستار رباطة الجأش، واليقظة، وأحيانا الكلمات المتكلّفة، تبدو طيوراً لا تطير كما هي العادة، بل تدور، تحوم في مكانها، تستطلع، متأهبة للهرب سريعاً.

الشيخ لا يقول شيئاً، لا مجال لذلك، فهو لا يرى.

في الوقت نفسه، هو خلف متراس أفكاره السرية، يراقب حركاتهما، سلوكهما، فالمرأتان تبالغان في الاحترام، مستعدتان لتخطيء نفسيهما؟ فبينه وبين مارغريت انسلاخ، بعد ومسافة. فهم هكتور ذلك بسرعة، ما إن وصلت أمس إلى مستشفى سالبيترِيار في الجزائر، وهو ما لم يكن ينتظره. ارتمت مارغريت بين ذراعيه، عانقته برقة، كانت تريد أن ترى ضمادته تحت المبذل والقميص المطرز بنجوم كبيرة. لقد توقفت الحمى وشفي جرحه وبدا محاطاً بهالة من النجومية وبحماسة الممرضات. التخدير بالكلوروفورم الذي أنهكه طوال أيام، لم يبقَ منه سوى ذكراه المقرفة. فقد استخرج الجراحون طلقة المسدس التي استقرت في الكتف، من دون تلك الطريقة البربرية القديمة في نزع الأنسجة. فالجرح، الذي لم يتضمن كسوراً ولا شظايا، لم يتقيح. إنه محظوظ. حتى عندما لا تخترق الرصاصة سوى العضلات، فقد تقطع أحياناً الأعصاب، وتشلّ الأعضاء.

– أنت لا تأكل، هكتور، قال العجوز. ماعدت تحب يخنة الغنم؟

– بلى، بلى. لكنني أشعر بالغرابة، لكوني هنا...

كنتُ... أكمل الشيخ وهو يمضغ لأنه لم يفقد يوماً شهيته، كنت أريد أن أعرف كيف أصبت يا هكتور.

تدخلت ماري ألدبرام. لا يجب الضغط على هكتور: شرارات غريبة لمعت في عينيه، وكأن إصابته كانت في القلب وليس في الكتف.

- سأقول لكم. على الرغم من أنه يصعب معرفة ذلك... فقد يتحرك المرء أو قد يلتزم هادئاً بمكانه، وفجأة يجد نفسه في المستشفى. هذه هي الحرب. ستكونون سعيدين لأنكم أفقتم ولأن أصدقاءكم لا يبكونكم ويهيلون التراب عليكم.

- على أية حال، لقد ظفرت بوسام، وهذا ليس بالقليل.. وأنطوان، أكمل الشيخ بعد أن مسح فمه، لم يجرح على الأقل؟

- تركته بصحة جيدة. وأئتمنت عليه مساعدي الملازم أول كريجر....

- توجه هكتور بالكلام إلى ماري ألدبرام. فما إن يحكى عن أنطوان حتى تغرورق عيني والدته بالدموع.

- اطمئني، سيعود.

- لقد حارب القبائل، قال الشيخ، هو الآخر سيقلدونه وساماً؟

- لمَ لا، إنه رجل حقيقي. وعند عودته يجب تزويجه.

- ممّن؟

- سوف يخبركم.

- من أورتينس، قالت مارغريت. هكتور يظن أنهما مغرمان بواحدهما الآخر. وهذا ما لا أستغربه.

تمتم الشيخ. مرة أخرى عائلة باري. لن يسامحهم البتة لأنهم سلبوه

ماري.آل باري قادرون دائماً على استثارة غضبه.

ماري، زوجة جان بيار، أسمت ابنها الأول أنطوان، وعلى الرغم ذلك، لم يدفعه ذلك إلى إقامة هدنة معهم.

«إذن، السيدة دو رواي ستكون في البليدة»، قال.

2

انزاحت الستارة، ودخل ظلّ أحدهم.

«لقد جئت في الوقت المناسب»، قال الشيخ.

نظر هكتور إلى محمد وهو يتقدم. لقد شاخ محمد. ما عاد ذلك الرجل النشيط الذي راقبه خلال ذلك الغداء الشهير للجنرال عندهم. اليوم، بات فرداً من العائلة، جزءاً من حياتهم. ماذا كان ليحصل من دونه؟ على وجهه يمكن أم نلمح انعكاس سخرية أهل السهل. شابت ذقنه وغارت وجنتاه، أما عيناه المليئتان احتيالاً وأنساً فما زالتا تخفيان شيئاً ما مقلقاً. حضر صباح وصول هكتور ومارغريت في الحنتور الذي حملهما من المحطة. لمس يد هكتور، فرح بالشارة الحمراء التي تزين سترته إلى جانب الميدالية الداكنة التي حصل عليها عام 70، فالفخر هو بالطبع للشيخ ولمزرعة سيدي عياد أيضاً، ومن بعدها توارى عن الأنظار. عاد بخطى صعلوك، خطى عربي، خطى لا يشعر بها أحد، والتف حول الطاولة.

ماري ألدبرام سكبت الماء المغلي في الإبريق، ففاحت رائحة القهوة، ممزوجة بروائح أخرى، روائح اللحم.

«إنه العيد»، أضاف الشيخ بالعربية، «لقد خضع سي عزيز».

سي عزيز، احد أبناء الزعيم الديني عند العرب، الشيخ حداد المهيب

الذي أعلن الجهاد، إنها نهاية تحالف الوجهاء. فقد لوحق بومزراق، شقيق المقراني، مثل ضبع، مخدوعاً، مباعاً، ملعوناً. هز محمد رأسه:

– القبائل، ليسوا مثلنا.

– أكنت تعرف ذلك عن سي عزيز؟

أجاب بإيماءة غامضة. هو يعرف، نعم. فالخبر شاع منذ أمس. لم يكن ذلك أكيداً. سي عزيز أيضاً... لا يبدو أن الشيخ حداد كان موافقاً. فقد أكمل بومزراق الحرب.

«سأسكب لك القهوة»، قالت ماري ألدبرام.

مدت له كوباً تناوله من الأطراف، من الأعلى، حتى لا يحرق يديه، جلس القرفصاء قرب المدفأة تحت المصلوب المعلق، حزيناً، وبنظرة بدت بغتةً غريبة. قهوة الروم[1] أقل ضوعاً من قهوة العرب، أقل حلاوة ودسماً. عند شمها، تبدو قهوة، ولكن عند ارتشافها بذلك الصوت العالي، يتبين أن لها طعم الماء. هنا، في مكان منخفض، مكان البؤس والذل، بالقرب من الكلب المترهل الذي يبلل الأرض بلعابه، من هنا بالكاد يرى الظهر المحدودب للشيخ، والنقيب القوي الذي انتفخت كتفه اليسرى تحت الضمادة، فمن المفترض أنه علق سترته الجميلة في الغرفة على كرسي، مع النجمة البيضاء تحت الشريط الأحمر، والأزرار الذهبية، والشرائط المتسخة قليلاً. ومن هناك تتناهى إلى سمعه أصوات الأولاد يلعبون في الباحة. وفي الجهة المقابلة النساء، الأم إلى رأس الطاولة بوجه كوجه عصفور مسنّ ومارغريت ولاتيتيا. موت بين القبائل وعيد جديد لدى المستوطنين، لم

(1) الروم وهي التسمية التي كان يطلقها الجزائريون على الفرنسيين وعلى المستوطنين الأوروبيين عامة في الجزائر.

يتغير شيء. رغم ذلك، رغم ذلك.... من يجب تصديقهم؟ العرب الذين ينوحون، أم أولئك الذين يقولون إن القبائل ستربح في النهاية، أم الذين يؤكدون إن الساعة لم تحن بعد، أم الذين يؤكدون إن الله يدعم الفرنسيين؟ في صفّ من هو؟ من أين يهب الهواء؟ من يقوده؟ من يمكنه أن يعرف من أين سيهبّ غداً؟ لاتيتيا هذه ناعمة، ضحوكة، نبيهة وتخصه أحياناً بنظرات ودودة. فهي لا تشبه مارغريت المتفاخرة، وكأنها لا تكبر أبداً. لقد تجاوزت العشرين عاماً، إلا أنها تبدو وكأنها لم تخلق لأجل رجل أو حب، وذلك لا يعذبها: شجرة لا تحمل ثماراً؛ فقط أزهار يحملها الهواء، وأوراق ريفية، تشبه، على الأكثر، ماري المستقرة في سيدي موسى، لها جبهة آل بويشو العريضة ووجههم المربع، وأنفهم الصغير المستقيم، وفمهم الصغير المرسوم بدقة، فتاة من هناك، كما تقول الأم، ربما، هل يمكن أن نصدقها؟ أنها كانت تشبه آل ألدبرام مثل أختها مارغريت، وليدة بذور تركها العرب خلال غزواتهم لأوروبا.

هؤلاء النساء يبالغن. لو شعرن بأنهن عرباً، ما كنّ ليعشن في بيوت من الحجر تحت سقوف من القرميد، مع أثاث، والكثير من الملابس والعربات. ثم كن تعاملن مع محمد وعائلته بطريقة أخرى. ما كنّ ترددن بهذا القدر على المدينة، ولا دفعن الرجال إلى العمل في الأرض. العرب، حتى الفقراء مثله، ما عادوا يتعلقون بهذه الطريقة بشجرة، مثل الشيخ. بالكاد ببئر ماء. هم بحاجة بادئ ذي بدئ إلى الإحساس بحريتهم. وبعد الحرية، تأتي النساء، والكرامة، والايمان. الرب خلق الريح، ومن الريح يولد العرب. والريح تمتلك السماء والأرض. أين تنتهي الريح؟ لقد كان حبّ الفضاءات هذا لدى العرب الذي استغله الفرنسيون ليجندوا المشاة، هذه الحاجة إلى

تغيير المكان والقتال، ليرموهم في النهاية في وجه القبائل. الثيران والحملان أيضاً تتصارع في ما بينها، مدفوعةً بشهية النطح بالقرون. وهو محمد، ماذا يفعل؟ ينتظر. فهؤلاء الناس يرغمونكم على التشبه بهم، يجندون عرباً في الإدارة. الجزائر باتت بلاد الغرباء، بار العجم.

قدم له النقيب سيجاراً صغيراً مرّ المذاق.

دائماً يكون العيد عندما يهزم العرب أو القبائل. نهض. شعر بأنهم يراقبونه. حاول أن يتوارى، أشعل ببطء سيجارة بولاعة الشيخ، لن يهدر عود كبريت على هذا. تململ هكتور قليلاً في مقعده، دفع بكوبه، واحداً من أكواب أخرجتها الأم على شرفه؛ وقف محمد قرب الباب، خارج الضوء، مرّر يده على وجهه وكأنه يتوضأ من تلك النظرات التي لاحقته، زمّ شفتيه، ضمّ خديه، حاول أن يبتسم وهو يتذوّق طعم التبغ. «بمَ يفكر، هذا؟» تساءل هكتور، «ماذا يحسب؟ أننا نعيش قريباً منهم دون أن نراهم، نتخذهم أصحاباً ونمازحهم، أنه ليس لدينا ما نؤاخذهم عليه، يذهبون ويأتون، يظهرون ويختفون، دائماً غائبون، دائماً حاضرون، لا يزعجنا أن نتحدث أمامهم، معتقدين أنهم لا يفهمون، لكنهم في الحقيقة يفقهون كل شيء، ويعلمون كل ما يجري. عربنا، يسمّيهم المستوطنون. جميعهم متشابهون، المستوطنون. جميعهم يتخيلون العرب قطاع طرق، ما عدا عربهم الذين عليهم أن يشكروا الرب الذي منحهم أسياداً كرماء. جميعهم يريدون إبادة العرب، باستثناء عربهم هم، وكأن هناك استثناءات. هذا بهيئته الساذجة الخانعة، هذا الخادم النموذجي، صديق العائلة، علينا أن نسمعه عندما يدخل إلى كوخه ويروي لزوجته تفاصيل ما يجري في السهل والبيوت. ربما كان يحبنا، فهو مخلص ويعتقد أن الله أكرمه بخدمة

قادة، أريد قط أن أعرف ماذا يقول لإخوته البغال عندما ينظف جلودهم أو يحمل إليهم العلف. الحقيقة تختبئ في أسرار الزريبة أو في الحقول، عندما يكون وحيداً يحدّث نفسه...».

3

فجأة، أخذت الكلبة تلهث، انتصبت على قوائمها وخرجت تعوي. نادتها لاتيتيا. إنه ساعي البريد، ليس ذلك المعتاد، بل رجل آخر يقترب راجلاً تحت أشجار الدلب. توقف على بعد خطوات من الكلبة.

«تعالي، زهرة!».

هرعت لاتيتيا، لتمسك الكلبة من طوقها. تقدم الرجل، ودخل يتصبب عرقاً، أخرج ورقةً من جعبة جلدية صغيرة، فتحها على الطاولة متردداً. برقية، صفراء اللون.

«إنها بالتاكيد لك، يا هكتور».

أخذها النقيب، قرأ العنوان، وردده بصوتٍ عالٍ:

«عائلة بويشو، مزرعة سيدي عياد، بوفاريك. لا ليست لي».

خلع الرجل قبعته، وجفف عرقه بحركات واثقة. أخرجت الأم كأساً، لتقدمه كما العادة لساعي البريد، كأس ماءٍ أو نبيذٍ وردي. برقية! إنها المرة الأولى.

لقد افلح الأمر إذن، وباتت الرسائل تصل عبر الخطوط المزروعة على جوانب الطرق.

«لاتيتيا»، نادى الشيخ.

كان بإمكانه الآن أن يطلب ذلك من مارغريت، ابنته الكبرى، بعد أن

أمست تعرف القراءة. الرسالة موجهة إلى «آل بويشو...»، فمارغريت ليست هنا سوى بشكل عابر. حملت لاتيتيا الرسالة. ففضّها يخصها هي. أعادت قراءة العنوان. تلك الأحرف الغريبة، المكتوبة جيمعها بالحرف الكبير، المتمايلة والمتآكلة تحت شريط رفيعٍ من الورق اللاصق. قدمت الأم الكأس لساعي البريد، هارقة القليل من النبيذ على الطاولة، إذ كانت ترتجف.

– ها، ماذا هناك؟ قال الشيخ قلقاً.

– عليك أن تفضيها من الخلف، قال ساعي البريد، من هنا.

كانت الورقة مطوية كرسالة، صلبةً، تطقطق. ترددت لاتيتيا، فالأولاد الذين وصلوا يلهثون، يزعجونها.

«لعلك تحسن ذلك أكثر مني؟»، قالت لهكتور.

أخذ الورقة، فضها من دون أن يقرأها، وأعادها للاتيتيا. أرقام مكتوبة في مجموعات، وعلامات غريبة. وفي الأسفل، كلمات. تمتمت، وشحب وجهها، ثم القراءة. فالبرقيات لا تنقل سوى الأخبار السيئة. أعاد ساعي البريد كأسه، واعتمر قبعته وخرج. أخرج محمد الكلبة.

«ماتت أورتينس والجنازة ظهر الغد. ماري».

تنهد الشيخ، مرتاحاً. أن ينقص العالم واحد من أفراد آل باري، ليس بالشيء الفظيع. يمكن اعتبار تنهيدته تلك تعبيراً عن الحزن. الزيزان التي لم يكن صوتها مسموعاً حتى الآن، بدأت بالغناء. مرّرت لاتيتيا البرقية لمارغريت.

ستّ كلمات. في ست كلمات بعد العنوان، يمكننا أن نعرف كل شيء. وفوق العنوان، على ظهر الصفحة، بأحرف مطبوعة كبيرة: «الإمبراطورية

الفرنسية»، لم يجر بعد استبدال الصيغة. يظن المرء نفسه ما زال في العام 70.

– المسكينة أورتينس، قالت الأم. كنت أخشى ذلك.

– ابنكم، قال هكتور، أعلم أن ذلك ليس من شأنه، وإلا لكنت عزيته دون تأخير. في مثل هذه الحالات ندع الأمر للشرطة.

– برقية، قال الشيخ، آل ماري يملكون المال لإهداره هكذا.

– كل شيء يحصل في يوليو. في العام 70، الحرب. هذا العام...

– عند الظهر، تابع الشيخ، كان بإمكانهم أن يختاروا توقيتاً آخر. أين سنأكل؟

– كيف يمكنك أن تفكر بذلك؟ قالت ماري ألدبرام. بناتك سيعتنين بك ثم أنه في حالات كهذه... هل ستأتي معنا، هكتور؟

– سآتي.

– المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، عند زواج ماري، سأل الشيخ، متى كان ذلك؟

– مباشرة بعد زيارة الإمبراطور، قالت زوجته. منذ ست سنوات. في يوليو أيضاً.

– أي عقلية لهذه العائلة! فرانش - كونتي ليست بلاداً صحية. كيف عاشوا فيها؟

سادت لحظة صمت. كانوا بانتظار أن يبتعد الأولاد. فهذه الأحداث يمكن أن تؤثر بهم.

«ماري»، تابعت الأم بصوت أكثر خفوتاً، «هي التي أشفق عليها. كانت تحبها كثيراً، فهي ما زالت ترضع ابنتها ماتيلد التي لم تبلغ بعد شهرها

السادس. ثم الآن، من سيكتب لنا؟ من سيخبرنا بالأخبار الطيبة؟».

أطرق هكتور مفكراً بأنطوان. وهو، ماذا يفعل هنا الآن؟ بعد أن تم ترتيب كل شيء؟ فقد اشتاق لكتيبته. لكتيبته أو لأنطوان؟ امرأة جعلت من أنطوان رجلاً دون أن تدري. امرأة؟ طفلة، بطبعها القلق، الذي يكاد يكون متغطرساً، بحبها للحيوانات والزهور والقمر. بالنسبة إليه، الأمر معكوسٌ: لقد صنع من مارغريت امرأة. ينظر إليها، وقد سئم قليلاً من جمالها، لا بل إنه نوع من غيظٍ صامت: هذا الجمال الفارغ. هذه هي الحياة. نترك أنفسنا نقع في الفخ، نرتبط، ننجب الأولاد، نندس في السرير نفسه، نفقد شيئاً فشيئاً الحماسة، نشيخ. «أما زلت أحبها أم لا؟»، سأل نفسه، «قبل ثمانية أيامٍ فحسب، كان يجتاحني شغف متوحش. نصبح مجانين، نهتاج، وفجأةً يفارقنا كلّ شعور. فاكهة جميلة، هذه هي. شجرة برتقال محملة في الوقت نفسه بالبرتقال والزهور. والسيدة دو رواي التي ربما تنتظرني... لقد تهت. السيدة دو راوي، ماذا ستفعل بمعاون سابق لزوجها، فذلك سيحطّ من قدرها. لماذا عادت إذن؟...». اكتشف في داخله نوعاً من الحقد. فالله وحده يعرف إن كان يحب النساء، وإن كان بحاجة إليهن. بسبب ذلك من دون شك، ومنذ أن ارتبط بواحدة منهن، أكثر مما يمكن تخيله، وهو يشعر بها تتهاوى. لن يسامح مارغريت ولا نفسه، لعدم اكتفاء واحدهما بالآخر. زوجة جان بيار كانت أكثر تواضعاً. لم تكن تحلم بالخيّالة. فزوجها يملأها. فقد تنجب له عشرة أولاد، وهي تدير المزرعة، منذ أن بدأت الحرب، وبدأ يعمل مع الزواويين في الجزائر في الحرس الوطن، كل قوة بويشو وصلابة باري تجتمعان فيها، لم تكن

ألدبرامية. بمَ تفكر مارغريت؟ بمَ ستلبسه في الدفن. كيف ستظهر في يوم كهذا!

«لن تذهبي، على أية حال، لتحضري فستاناً من البليدة؟ يمكن لوالدتك أن تعيرك تنورةً سوداء، صدارة، ووشاحاً. هذا كافٍ. من يهتم باللباس في وقت كهذا؟».

كان صوته حاداً، لاذعاً، كما عندما يخاطب دوبوي. إنها المرة الأولى التي يخاطبها بهذه اللهجة. فعلى نحو مفاجئ، وأمام الموت، تملكه الغضب على النساء. الموت وظيفته الخاصة، ولكن ليس بين المدنيين. في الجيش. موت نظيف، خالص، رجال يقتلون في الوهاد أو في القمم، الرأس مفلوجٌ أو البطن مفتوحة، صخور يغطيها الدم، أعلامٌ، قرع نواقيس الوداع ممزوجة بالأعيرة النارية والقذائف المدفعية، الهواء الذي يحصد كل شيءٍ، النسور، الأوامر، الأسلحة التي نعرضها. الكروميون الذين يقتلون ويهربون في الحفر، ننظر إليهم باحترام، لو نبشت بنات آوى الجثث، لو التهمت الطيور الجارحة عيونهم، فهذا جزء من قواعد اللعبة. لا يمكن لأحد أن تكون له ردة فعل مماثلة: «ليس لديّ ما ألبسه...». فكر: في الزريبة، أيضاً لم يكن لديك، رغم ذلك لم تفكري بالأمر. انتزعت عن تنورتك القش قشة قشة، أتذكر ذلك جيداً، أستعيد صورتك جيداً. كان بالإمكان الاعتقاد بأنك فعلاً متمرسة... لم يكن محقاً، حسناً. تحسّس كفه. كان نبضه سريعاً. لقد أصيب بالحمى. هذه هي. النساء...

– ستذهبون من دوني، قال الشيخ. في سني، ومع هذا التعب والانفعال... سأحرس المزرعة مع زهرة. ثم، هناك، سيتجمع كل رجال الشرطة... اتركوا لي الأولاد إذا شئتم.

– الأولاد سيأتون معنا، قال هكتور.

رجل مسنّ يمكنه أن يقلق حيال وجبة غدائه وحيال الحر، محاولاً أن يبعد عنه الأفكار الجنائزية، ولكن عليه رغم ذلك الاعتياد عليها. الأولاد سيتابعون ويتعلمون ماذا تعني هذه الإغفاءة. ولو حصلت له هو، هكتور، فماذا يمكن أن يقولوا لهم؟

كانت البرقية لتصل إلى البليدة، وتقرع الشرطة الباب. ستنظر مارغريت من الأعلى، عبر المصاريع المقفلة في هذا الفصل وستقلق. رجال شرطة؟ حسناً، اسمعي يا جميلتي. الرجل، يجب السهر عليه، يجب مراسلته. حتى لو لم نكن نعرف ما هي الحرب، فعلينا أن نتخيل. أين سندفنه، هكتورك هذا؟ في أي مقبرة؟ وستسألين نفسك ماذا سترتدين، ستبحثين في الخزانة أو في الصناديق، عن فستان الحفلات الراقصة... حتى لو كان أسود اللون، فهو مفتوح كثيراً. إذن لا أعرف، ضعي شالاً من الكريب الصيني. السيدة دو رواي وأنت، ستذرفان نهراً من الدمع الحار، الحارق، ستثملان واحدتكما الأخرى. وستصبح عيونكما بحيرات تفيض نوراً. في النهاية، ستقول لك السيدة دوي رواي: «كفي عن هذا يا حبيبتي، أنت تسببين الألم لنفسك». وأنت ألن تكون لديك بعض الشكوك عن سبب حزنها؟ ستصدقين أنه ذلك الألم الذي يواكب ألمك، دون أن تفكري أن علاقة عابرة يمكن أن تخلّف أثراً أكبر من حياةٍ كاملة. هل أبالغ إذا قلت إنكما ستكونان أرملتا الرجل نفسه، الحب نفسه؟ لا تضحكينني، فكتفي تؤلمني، والضحك يحرّك الألم.

– كم عمرها؟ سألت ماري ألدبرام.

– أكبر مني بعامٍ واحد، قالت لاتيتيا. بالكاد.

– يا للمصيبة! قالت ماري ألدبرام. هذا الوهن الذي حدثتني عنه السيدة باري... ربما فاقمته الحمى. سأعد لك طبقاً ما قبل أن أذهب، مارجول. ولن يكون عليك سوى تسخينه.

أشعل الشيخ غليونه بطريقة حالمة. لا قيلولة اليوم. نهض متكئاً على عصاه، وخرج، منزعجاً من الزيزان، ذلك الضجيج المزعج الذي يسببه في أشجار الدلب حيث ينهي بناء أعشاشه. ثم يعود مطلقاً صفرة آمرة فتتبعه زهرة مستسلمة وهي تهزّ أذنيها ناخرةً. يذهبان معاً إلى شجرة الحور. رائحة غبار حار وشمس ساطعة. حرارة خانقة مصدرها الجبل، ولا حتى نسمة هواء واحدة. الشجرة السامقة، تبدو وقد استنفدت كل قواها. فقد تغضنت لكنها لم تستطل، وكأنها تعرف أن طولها سيعرضها لخطر العواصف. جذعها تكتل متعنقداً، حاملاً جروحاً وتجاعيد عامودية، أخاديد عميقة تحتشد فيها حشرات غريبة تحت الصفائح الكبيرة للحاء. من سينصفها؟ ستصبح شجرة قرنية، تغرز جذورها في أعماق غائرة، تتعلق بالبئر، تحتضنه، تمصه، تشربه. كانت فخر المزرعة.

زمّ الشيخ عينيه، فقد شحّ نظره. بالكاد يتبين ضباباً خلف القرية، عند قدم جبل البليدة، والسهل الذي يتراقص في الهواء الحار، على الإيقاع المهجوس للأبدية.

4

شجر السرو، الذي زرع في كل مكان لحماية شجر البرتقال من العواصف، يحجب المنازل. يمكن تخيل المزارع الموزّعة هناك حيث تتجمّع البساتين والثقوب الداكنة في الأسيجة. لدى آل باري أيضاً سياج

داكن يضج بالعصافير، والسرو يحيط بأشجار البرتقال. عند مدخل المزرعة، وبعد أجمة القصب الكبيرة، كما لدى آل بويشو، تمضي الطريق المزعجة المليئة بحصى النهر بين شجر البرتقال، على طول خطٍ مشجرٍ بالرمان الذي ما زال مزهراً والذي تنضج ثماره في الخريف. الساعة تقارب العاشرة. الكثير من العربات والناس! خان حقيقي! ركن هكتور العربة في الظل، وأوثق الخيول.

مارغريت ولاتيتيا اعتنتا بالأطفال: مارغريت مع ألكسندر، ولاتيتيا مع سابين التي كادت تتجاوزها طولاً. وبيدها الأخرى أمسكت مارغريت بتنورتها.

ابتعد، والتقى فليبين التي كان يراقبها وهي تنزل الدرج، من دون أن يعرفها. لقد بات لها كتفا حصان وثّاب، مع نعومة ما في عينيها الزرقاوين. عانقت طفلي عائلة بويشو، وقادتهما تحت شجرة التين، التي تستظل الباحة، منفردة عن أشجار الجوز، ليس بعيداً عن المسقى وزريبة الخنازير.

كانت غرفة الطعام تغص بالناس. حيا هكتور رجال الشرطة بهزة خفيفة مترددة من رأسه، فلا مصافحات في ظرفٍ كهذا. كانوا يحتضنون عجوزاً تطلق نحيباً طويلاً، إنها الأم بلا شك. للوصول إلى حجرة أورتينس، يجب المرور بالمطبخ. مرشة ماء فوق المغسلة. سلاسل من النقانق والسجق علقت فوق الطاولة. صواني قهوة تمر.

اقتربت ماري من هكتور، وألقت رأسها للحظة على صدره وصافحه جان بيار. فوق سرير ضيق بسيط، تمددت أورتينس بين شمعتين، شديدة البياض، وقد استلقى شلح زنبق على صدرها. على مقربة منها نعش مفتوح من السنديان البني الفاتح. أخروا مراسم نقل الجثمان إلى النعش،

بانتظار الكاهن. بعد هذه الرحلة تحت الشمس اللاهبة، يلزم بعض الوقت للتأقلم على العتمة. النافذة مفتوحة، بلا مصاريع، ويبدو أنها تطل على الإصطبل، بسبب رائحة التبن والزبل الفوّاحة المكان، وقد امتزجت برائحة العشب الطازج في معالف القش من أجل الحيوانات عند عودتها من المراعي. غصن زيتون في كأس، لوحة دينية داخل إطار معلقة على الحائط، سقف من العوارض الخشبية. الصمت. الأنين المخنوق الآتي من المطبخ. الأم الحقيقية لأورتينس كانت ماري، بوجهها الجميل المتعب، الخالي من الدموع، الذي جمده الألم.

اقترب جان بيار من أورتينس، أبعد الشمعتين والمنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، وأشار إلى رجل كبير في الزاوية، وحملا معاً الجثمان، كان خفيفاً، وسجياه في النعش. كانت أورتينس ترتدي فستان عرسٍ طويل، له ذيل، لم يعرفوا ماذا يفعلوا به، فتركوه في البداية على السرير، يكاد يغطيه، مثل تلك الأوشحة الثلجية المنسية في السماء، حيث تسكن النجوم عندما يأتي الليل كعصافير النار. وقع شلح الزنبق فأعاده الرجل إلى صدر أورتينس. كان هكتور محقاً: إنها تغفو بسلام لا يشبه سوى الفرح. تملك شيئاً ما، معرفة ما، سعادة. محشورة في القارب، الذي سيحملها عبر فضاءات الليل والضوء؟ في المكان الضيق إنما الرحب، وكأنها صنعت لأجل ذلك، خلقت له، وقد تحررت أخيراً. من خلال شاربيه المعقوفين بتفاخر، عرف هكتور الرجل: إنه نجار سيدي موسى. لقد سبق ورآه في حفل زفاف ماري، وتبادلا بعض الكلمات الودودة. ربما كان عاملاً بيد أنه رجل محترم، ذكي، شفاف وطيب. من رجال ثورة [1]1848، ولكن

(1) ثورة 1848 هي الثورة الفرنسية الثانية في القرن التاسع عشر، قامت في باريس بين =

يجب في الوقت نفسه الحذر منه.

إكليل من زهر البرتقال طوّق رأس أورتينس، اشتم هكتور رائحته السكرية. خصلة شعر تتجاوز الرقبة وتصل إلى الكتفين. بين يديها مسبحة شفافة لامعة. صدرها مسطح كصدور الرجال. أقيمت مراسم الدفن باكراً قبل الوقت المتوقع. كان بإمكان الشيخ أن يأتي. سأل جان بيار إن كانت البرقية قد وصلت، ربما أو ربما وصلت ناقصة. فما زالت الرسائل التي تنقل في القطارات والعربات موضع دهشة، فكيف بالبرقيات التي تنقل عبر الأسلاك في الجبال؟ يكفي حصول خطأ صغير، خلط يقوم به عامل التلغراف. ما زال الناس يشكون بأن البرقيات تصل حقاً إلى وجهتها الصحيحة. إنه التقدم، إلا أنه لم يتمكن بعد من منع الموت. أنطوان سيقلق من توقف الرسائل، سيكتب، وسيأتي ساعي البريد حاملاً رسائل منه: «ماديموازيل أورتينس باري، مزرعة باري، سيدي موسى، مقاطعة الجزائر، مع ختم بريد الجيش». من سيفتحها؟ يجب التحدث مع ماري عنها. هكتور يعرف ماذا ستحوي هذه الرسائل. «حبيبتي أورتينس، لم نتوقف

= 22 و25 فبراير 1848. بضغط من الليبراليين والجمهوريين وبعد مواجهة بالنار استولوا على السلطة، وعزلوا نظام لويس فيليب ليعلنوا الجمهورية الثانية بدلاً من الملكية. اما فيما يخص الجزائر: فنظراً لمشاركة المستوطنين الفرنسيين فيها، وبعد توجه وفد منهم طالب بأربعة مقاعد في البرلمان الجديد، تحصّلوا فعلاً على هذا المكسب السياسي بمقتضى الدستور الجديد الصادر بتاريخ 4 نوفمبر 1848، والتي نصّت المادّة 109 منه على اعتبار الجزائر أرضاً فرنسيّة. وقد قُسّمت الجزائر بمقتضى قرار مارس 1848 إلى منطقتين أساسيتين: الجزائر الشمالية وأخضعت للحكم المدني، وقسّمت إلى ثلاث مقاطعات، والجزائر الجنوبية أخضعت للحكم العسكري، ولضبّاط المكاتب العربيّة، وربطت مصالح التعليم العام، والدين والقضاء، والجمارك والوزارات المختصّة بباريس. واهتمت الجمهورية الثانية بأمر الاستيطان الأوروبي ووضعت خطة لإعادة توطين 200 ألف أوروبي في الجزائر في غضون عشر سنوات.

عن السير منذ ثمانية أيام، كنت أتمنى أن أتلقى شيئاً منك خلال توقفنا أمس. يقولون إن هجوماً جديداً سوف يشن على الحصن الوطني...» مع أخطاء إملائية. سيسألها عن طيري الحجل: فأورتينس تربي اثنين من الحجل تطلقهما خلال النهار وتزربهما ليلاً خوفاً من الفئران. من سيعتني بهما الآن؟

على هكتور أن يراقب كل شيء ليرويه لاحقاً لأنطوان، بعد أن يفيق من الصدمة. بيد أنه في مخيلته أجرى معه أساساً هذا الحديث: «أنا من شاء ألا تعلم. سامحني. في مكانك، كنت أفضل ألا أعرف. سوف تلعن لأسبوعٍ تأخر البريد. ستعتقد أن الحرّ هو السبب. لماذا أحرمك من أسبوع من الأمل؟ على أية حال، ما كان بإمكانك أن تصل في الوقت المناسب مع أحد مرافقي دينيف. لقد ألبسوا أورتينس فستان عرسٍ، كان ذلك سيسبب لك الألم. كنت تحلم بها في كنيسة سيدي موسى، معك، بالبدلة التي كان سيعيرك إياها جان بيار، هناك دائماً في الصناديق المليئة بحبوب النفتالين سترة من الساتان للأعراس، يتوارثونها من الأب إلى الابن، ومن أخ لآخر بعد رتقها. كنتما ستستقران في بوفاريك، وكنت ستعمل في المزرعة مناصفة مع بيار. وجه أورتينس هذا، أكنت لتراه في حياتها؟ ربما ذات مرة، صبيحة يومٍ ما، أو عندما تكون قد أفقت قبلها، ولم تتجرأ على إيقاظها، لكنت علمت من خلال ملامحها أنها تمتلك السلام، الرجل الذي تحب، الحياة التي ارتضتها...».

«الذيل»، قال النجار، «ما رأيك، جان بيار؟».

وافق جان بيار. لم يكن النجار معتاداً على حمولة بهذه الخفة، أربكته أطراف الثوب، رفع الذيل حتى النطاق الحريري لأورتينس. تقدّمت

ماري، وغطت اليدين المضمومتين، وتيجان الزنبقة مع القلب الذهبي، وأحاطت الوجه أيضاً.

باتت أورتينس جاهزة، ملفوفةً داخل غيمتها، لتحملها الملائكة. «ليس أنت يا أنطوان، ولا أحد. في هذه اللحظة، شعرت بتمزق داخلي، وبنداء سري. ربما فعلت ما أحببت أن تفعله أنت. انحنيت، وركعت على الأرض. أربكتني قبعتي العسكرية. في تلك اللحظات... بحثت في داخلي. أردت أن أحدثك، وما عدت أعرف ماذا أقول. في سني، وبعد كل ما مرّ عليّ من أيام وليالي، من موسيقى آلآت النفخ والطبول، وشتائم الجنود، والصرخات، والشجارات، ناهيك عن النساء وحفلات السكر والحرب... إنها مراسم الموت التي عليها أن تطلق هذه الأشباح السرية: الشموع، الدموع الفائضة، العتمة الخانقة، الحرارة. لم أفعل ذلك منذ المناولة الأولى[1]، قلت: «أبانا الذي في السماوات...». ما عدت أذكر، البقية بعد ذلك كانت مربكة، وصولاً إلى «... نجنا من الشرير، آمين». لدى أورتينس حب هائل فإن لم تعطه لرجل، فهل سيؤول إلى الرب؟ أنا الملحد، كنت أتساءل إن كنت متيقناً إلى هذه الدرجة من نفسي، وإن كان الأمر أشبه بمطاردتنا العرب في الجبال كي لا نراهم ثانية ولكي نعتقد أنهم ما عادوا موجودين وأننا عالجنا المشكلة، فأنا لم أطارد قطعان الخيل الشاردة التي تعود لتجري بين سهول روحي، نعم، استعمل كلمات من هذا النوع. من الطبيعي، أن العرب ما زالوا موجودين، يختبئون تحت الأرض، نكتشفهم في الغزوات، وفي منطقة القبائل، نكتشف أنهم

(1) المناولة الاولى هي شعيرة دينية مسيحية، تسمّى أيضاً بالقربان الأول، وتعبّر عن بلوغ الطفل مرحلة الوعي الديني من خلال تسليمه الأسرار الإلهية.

جماعات، يتكاثرون وما زالت كل هذه الأرض لهم، كل هذه الوهاد التي ترعى فيها أغنامهم، كل ضوضاء القمم التي علّقت بها قراهم، ككومة من القواقع اللمّاعة، نحرق كل شيء، نخرب كل شيء، نعتقد أننا سوينا كل شيء بالأرض ثم... هناك ما يظهر، شعاع عظيم، سقف ينهار، الأرض، الوديان، الأعالي، بخار كل الأشياء يتداخل مع غبار الأحذية. لم أكن ثملاً: شربت فنجان قهوة قبل أن أغادر بوفاريك. لا شيء آخر. وجرحي لم يسبب لي الحمى. ما عدت أشعر بكتفي.

«ستقول لي إنني في حضرة سيدي الجنرال الراقد... لكنك لا تعرف بما جرى، لم ألمح لك يوماً لهذه الليلة. على طريقتي أخبرت مارغريت. أمام الجنرال... لم أحكِ إلا لكي أعترف. كنت بحاجة إليه، لكنه كان قد رحل. قلت له ما رأيت. انتظرت منه نصيحةً. أجابني من خلال زوجته. يمكن لهذه الفكرة أن تبدو غريبةً أو فظة. لا. أراد أن يؤكد لي أن الحياة تستمر. نقل لي ميراثه. هكذا أفهم الأمر، اليوم. لا صلوات أمامه. في البداية كان مقتنعاً بموته ورتب كل شيء في منزله. لم يكن عليّ أن أتدخل، سوى من أجل نياشينه وسيفه اللذين نسوا أن يضعوهما في أسفل سريره. لم أصلِّ حتى من أجل أورتينس. من أجلي أنا؟ من أجل لا أعرف ماذا؟ «في الجزائر، لا يتركون الموتى ينتظرون كثيراً موعد دفنهم. خاصةً في الصيف. حسناً، ليس أكثر من رائحة زنبق خفيفة جداً وعطر أزهار البرتقال، ولكن كان ذلك في مخيلتي. فأزهار البرتقال ربما كانت اصطناعية، لا نعرف. الروائح الحقيقية تأتي بقوة، من الإصطبل، من المطبخ ومن كل هذا العالم الذي يحتشد في قاعة الطعام، من رجال الشرطة. هم من كانت تنبعث منهم الروائح الكريهة. فجأة حدثت جلبة ما. دخل الكاهن مع ولدين

من جوقة الكورس، باللباس الكهنوتي الأحمر والرداء الأبيض. نهضت. فهذه الصلوات لا تعنيني. لا أفهمها. لا تخترق قلبي. رشّ الكاهن الذي يرتدي قلنسوة وبطرشيلاً مزخرفاً، أورتينس بالماء المقدس، من بعدها غادرت الغرفة. كانت لاتيتيا تنتظر في المطبخ، ابتسمت لي بحزن. وقالت لي: «مارغريت في الخارج مع الأولاد...».

لم أكن مستعجلاً البتة لرؤية مارغريت. كان رجال الشرطة يحيطون الأب الذي صافحته، بدا كشجرة محطمة أمام المدخنة؛ العينان فارغتان والشاربان مبللان والخدان غائران والجبهة متصلبة والوجه مكفهر. توقفت الأم عن النحيب واستبدلته بشهقات مخيفة. أما ماري ألدبرام فتركت يداها تتدليان وأطرقت رأسها وزمّت فمها؛ بدت تائهة وسط حلم آسر.

بعضهم – جيران على الأرجح – واقف وبعضهم الآخر جالس على مقاعد وحتى على الصناديق. على الطاولة فناجين قهوة، كؤوس وأقداح، قطع من السكر، وإناء التقاط الذباب. الجو حار ورقاص الساعة توقف عن العمل. من وراء الباب تظهر أعقاب بنادق. خرجت وعلى الرغم من الحر، شعرت أنني أتنفس. كانت عربة الموتى المجللة بالبياض والتي ربطت بحصانين، مركونة أسفل الدرج، لا يصلها الظل الخفيف لأشجار الجوز. لم يعد هناك متسع للورود، فانتشرت في كل مكان، باقات من اللوف الأصفر، الأقحوان، القرنفل، الزنبق، السوسن، الأضاليا، الأرطنسية البنفسجية. لا كلاب. يبدو أنهم ربطوها من الجهة الأخرى من المزرعة حتى لا تنبح. لماذا تذكرت الشيخ بويشو وكلبته؟ بدأت أكرههما، هما الاثنان. أحسب أن الشيخ يعبث في المطبخ، يضع بعض الحطب في الفرن

لتسخين الطعام. كلي ثقة من أنه لم يخرج طبقاً، بل أكل كالفلاحين من الطنجرة، رامياً من وقت لآخر قطع الخبز لكلبته. ثنائي جميل، أحدهما على صورة الآخر! فهل أراد ألا يزعج نفسه بالمجيء؟ خوفاً على وجبة غدائه أو لكي لا يترك كلبته وحيدة؟

«وجدت مارغريت تحت سقيفة الآلة التي تعمل على البخار، التي اشتراها جان بيار قبل الحرب، لتشغيل الناعورة. فكرة حمقاء. اعتقد آل باري أن بإمكانهم جرّ المزيد من المياه وتوسيع حقل البرتقال في المستقبل. كان ألكسندر يعبث في المكان، يحرك المقود، متحسساً أذرعة التوصيل. إنه نشط! والدته، الشاردة الذهن، تركته يلعب على سجيته. وبسفالة تجاهلتُ الأمر أيضاً. فهذا يعفيني من الرد على الأسئلة التي تقلقني، لكنّ سابين سألتني: «تغط في نوم عميق! ماذا يعني ذلك؟»، يعني أن الأمر سيتطلب سنوات وسنوات كي تستفيق. لذلك لا يمكننا أن نترك النائمين مثلها في المنزل. نأخذهم إلى مكان محايد، إلى المقبرة... «وهل تستفيق يوماً؟» ترددت، ثم أكدت لها نعم. إنها عقيدتنا. أجابت سابين بأنها ترغب في هذا النوم. ولكي أسكتها، طلبت منها أن تتحدث بهذا الأمر مع أمها بالعمادة.

«بالقرب من السقيفة رأيت خادم آل باري بعمامته القذرة. كم عمره؟ خمسون، ستون؟ لقد ذبل لكنه ما زال محتفظاً بابتسامته. وجنتاه باتتا أقل امتلاءً. عائلته التي احتشدت كانت تراقب. كان هناك أيضاً ثلاثة من عرب الدوار المجاور بلا شك، حيوني بتحية عسكرية غامضة. ربما كانوا إن كانوا سيمشون في جنازة أورتينس. لو كان الميت هو الأب باري، أكانوا ليفعلوا؟ لكن بما أنها فتاة شابة، فها هم يقفون صامتين، متسمرين

في مكانهم، مذهولين من بطء مراسم الدفن. قلت لنفسي، إنها لمرة تنقلب فيها الأدوار: الماعز[1] أحياء ونحن نحمل أحد موتانا إلى مثواه الأخير. لماذا أشعر بالضيق؟ أعتقد أني عرفت السبب: كنت في بزتي العسكرية، ومن المفترض انهم يعرفون من أين أتيت، ويعتقدون بذلك أنني حصلت على الوسام لأني قتلت الكثير من رجال القبائل، أو بسبب كل النيران التي من الممكن أن نراها من هنا، التي كنت قد أضرمتها في الجبل. شعرت بما يشبه الخزي. ناديت ألكسندر، وأمسكت بيد سابين وتقدمنا نحو عربة الموتى حيث غطي النعش بشرشف أبيض تعلوه الزهور. وخلف تمثال المسيح المصلوب، أنشد الكاهن بعض الأبيات من «ارحمني يا الله»[2] حتى مدخل المزرعة، في الطريق المحصاة. هنا، صعد الجميع إلى عرباتهم. طلبت من مارغريت أن تلتحق بأمها، وبما أني وجدت النجار قربي، فقد عرضت عليه توصيله. صعد إلى جانبي، وبقيت المقاعد الخلفية فارغة. لم يتجرأ أحد على الصعود. أقفل رجال الشرطة بجيادهم الممر، ما عدا الشاب ديزيريه مع العائلة، كانوا في العربة الأولى.

«مشينا ببطئ. رأيت بطرف عيني النجار شاخصاً نحوي.

– كيف توفيت؟ سألته.

– إن كنت تريد إحساسي، فهي لم تخلق للعيش في الجزائر. هنا يلزمهم نساء تقليديات. مثل أختها فليبين، زوجة الشرطي. أو مثل ماري، شقيقة زوجتك، على الرغم من أنها ليست من النوع نفسه، أبداً.

---

(1) الماعز واحدة من التسميات التحقيرية التي كان يطلقها الفرنسيون والمستوطنون على الجزائريين.

(2) المزمور الواحد والخمسون في الكتاب المقدس وهو شائع في الصلوات المسيحية منذ أواسط القرن السادس عشر.

ماري أعتقد أنها تتمتع بالفضيلة. أورتينس شيء آخر. إنها كتلة من الطاقة إنما موجهة إلى مكان آخر. ليس في اتجاه الأرض، والمنازل أو المال. إلى الأفكار. كيف ترى أنطوان الذي يتحدثون عنه؟

– إنه رجل.

نظرت إلى النجار. ولم أتمكن من رؤية وجهه جيداً تحت قبعته اللباد البنية ذات الحرف العريض. في الخمسين، ذقن حليقة بعناية وأنف مستقيم، وعينان تنطويان على رقة مؤثرة، أنيق إلى حد ما تفوح منه رائحة النظافة. في الثامنة والأربعين؟ لا يمكنني أن أتخيله هكذا.

– مثلك تقريباً، أضفت. ليس بأي شكل ابن أبيه.

– أبوه ليس رجلاً سيئاً. بل إنه أصلي. ملاك. من كانوا الأقل ثروة هناك، هم الأكثر قسوة هنا. هذا مفهوم. يخافون من خسارة ما أعطي لهم. غير أنهم لا يعرفون ما أصبحوا عليه كبشر. بالمزاح، قد يقتلك أحدهم بشطبة ظفر كالطيور الجارحة. وهذا ما يفاجئهم. أما أورتينس، فعلى العكس تماماً. فقد قتلوها هي أيضاً دون أن يدروا. ثروتها الوحيدة: فستان عرسها ونعش من خشب السنديان لملايين السنين، كان هدية مني. كانت تؤمن بعالمٍ آخر. ربما يصدمك كلامي. عندما نعود من حيث جئنا...

– لا يصدمني هذا الكلام.

– انتهى كل شيء هناك، كما يبدو. لقد قمعتموهم. أسأل نفسي. أنا أعرفهم. في النهاية، أعتقد أني أعرفهم. لن يتوقفوا أبداً. سترون، سينهض آخرون لاحقاً، لن ينتهي ذلك أبداً.

– أتظن ذلك؟

– لا أعرف لَمَ أقول لك ذلك. انظر كيف أحكي. بلا أي إرباك، بصوتٍ هادئ تقريباً، أليس كذلك؟ لأنك تسألني عن أورتينس. ففي عمق قلب هذه الصغيرة، كنت لتسمع ذلك.

«قدمت له سيجاراً صغيراً. تردد قليلاً، ثم قال:

– لم لا؟

«وصل الموكب إلى طريق الجزائر فأوقفه رجال الشرطة ليفسحوا الطريق لمرور عربة محملة بالقمح. قافلة من الجياد البولونية، بينها فحل خيل يصهل وقد نزل أحد السائسين لشدّ رسنه. كانت تفوح منه رائحة القمح وأقمشة الأكياس. في البعيد، عند السهل، وعند رؤية رجال الشرطة، أخذ العرب يتفرقون ويبتعدون باتجاه الحقول.

– أنت مع النظام، أضاف، وإلا، لا يمكن أن تكون ضابطاً. أنا أيضاً أؤيد النظام. ولكن من أجل هدف معين. بيجو، أعذرني إن بدوت لك بأني أقلل احترام رجلٍ له نصبه في شارع إسلي، بيجو، أنا أتذكر، كنا نعتبره عدواً اكثر مما كنا نعتبر النمساويين. لقد قتّل فينا كثيراً في باريس.

سحب نفساً من السيجار، نفض على الطريق رماد سيجاره ونظر إليّ مبتسماً.

– لا أحقد عليه. لقد علمني الكثير من الأشياء. البروليتاريا في فرنسا، يُعاملون كما الماعز هنا.

«جادة شجر الكينا تعلن عن بداية القرية، صوت الزيزان يصم الآذان. وبعيداً جداً أمامنا، شراشيب عربة الموتى تهتز مع ارتجاحات العربة. أطفأ النجار عقب سيجاره في وصلة معدنية لغطاء العربة، ثم رماه تحت

الدواليب، بعناية.

- ... ولكنني متعلق بكل ذلك، مثلك بلا شك، لأسباب أخرى أو للأسباب نفسها. إذا قلت لا يهمني شيء، فسأكون كاذباً. فأنا على طريقتي أيضاً متملّك، أما أورتينس فربما تأسف على حجليها. يمكنني أن أفتقد آل باري وحتى أولئك السذج الذين ستراهم في سيدي موسى، الشرطيين والعرب. لكن أورتينس، شأن آخر.

«هنا شعرت أن صوته تحشرج. تابع يقول:

- بعضهم يريد أن تعود كل الأملاك للدولة، وبعضهم الآخر لا يريد دولة في أي شكل. أما أنا أقول: لا تنازل في ذلك، الحرية لكل البشر.

«أنت، لا دخل لك بكل هذا، تابع يقول. ولكني واثق بك، لست ضعيفاً. ولا تسمح لنفسك بالتأثر بأي شيء.

«صدمتني هذه الكلمة. وخيل إلي وكأنّ الجنرال هو من همس لي بها على سرير موته.

«استدارت عربة الموتى إلى اليسار، توقفت أمام الكنيسة المتألقة، بكل أناقتها، حيث سمعت قرع الأجراس منذ لحظات. رُكنت العربات ونزلنا. ساعدني على ربط الجياد.

أترى، قال لي، لدي شعور بأن أورتينس سعيدة وبأنها تهنئ نفسها، ربما أبالغ، بالرحيل عنا وبأن موتها أفاد في شيء ما. والآن أتركك. سأنتظر الرجاء[1]. نلتقي بعد قليل».

---

(1) الرجاء هو واحد من الفضائل الثلاث الإلهية التي تعرّف الحياة الدينية عند المسيحيين: الايمان والرجاء والمحبة. والرجاء يعني الايمان بنهاية إيجابية للأحداث المحيطة بالفرد وظروفه.

«النساء في جهة من الكنيسة والرجال في أخرى. اقتربت من العائلة، ناديت ألكسندر وذهبت معه للجلوس قرب جان بيار. تطّلب نقل الزهور وتركيز النعش على منصته بعض الوقت. اختلطت الثياب السود وتلك الكهنوتية المزخرفة وأردية أطفال الكورس، وكنت، بينها كلها، ببنطالي الأحمر وشارتي، الاستثناء الوحيد.

«أتساءل، يا أنطوان المسكين، إن كنت، بكلامي هذا، وبإخبارك بكل شيء وكأننا جالسان إلى الطاولة معاً، نتشارك الطعام، قبالة منطقة القبائل وقرع الأبواق البعيدة، ودويّ القذائف والفوضى عند القمم، والوديان المحترقة، والضوء المتذرر، لا أسبب لك الحزن. كيف ستحكم عليّ؟ فبالقرب من جثمان أورتينس، كنت ستشعر بكل شيء بطريقة أخرى. وأنا، لو كان الأمر يتعلق... بمن؟ بمارغريت قبل أن أتزوجها؟ لا شيء مشتركاً. فبعد حب سريع كالبرق، وما يحصل بيننا الآن، لو شئت لا شيء، ضباب، كما صبيحة الهجوم على إفرحونن، اسمعني ما يربط بيننا أنا ومارغريت، هو تحديداً ألكسندر. ولدٌ. هذا يجب أن أشكّله على صورتي. أفتقد النجار. أفكر بك. يهيء لي أن كل شيء كان يجري حسب الترتيب. هذه الكلمة أيضاً صدمتني. حسب الترتيب، بينما أورتينس مكفنة تحت الزهور، والكاهن يتلو صلاة الجنازة بصوتٍ خفيض، وبعد ما قاله لي السيد فيرتو؟ كنت لتبكي. شعرت بالاضطراب. فهذه الأناشيد الجنائزية مزعجة. بالنسبة إلي، كما ترى، فأنا معجب أكثر برجال القبائل والعرب فيما يخص فكرتهم عن العالم الآخر. ليس هناك من حواجز. القبور تكاد تكون داخل المنازل، الأموات يختلطون بالأحياء، هذه

الطريقة بإلقاء التحية بالجمع[1] حتى لا ينسوا المرافقين غير المرئيين للبشر. هنا نشعر بالضيق. استنشاق القليل من البخور ينعش الجو المختنق بعرق الحاضرين. كتفي تؤلمني. من حسن الحظ أن الكاهن لا يقيم قداساً.

«فقد بات الكاهن غير مبال، منذ أن دفن في أبرشياته السابقة، عربات كاملة من الأطفال والفتيات الصغيرات خلال فترة استشراء الملاريا. بالطبع، كان لمؤمني سيدي موسى أن يستمروا في الذهاب إلى أربا، ولكن قيل إن سيدي موسى سوف تتمدد لذا بنوا فيها كنيسة وعلقوا ثلاثة أجراسٍ في القبة وعينوا فيها كاهناً في منتصف العمر بلحية شائبة وصوت هادر، لا يبدو سعيداً جداً بوجوده هنا. فهو يؤدّي مهمةً. إلى اليسار معبدٌ صغيرٌ للعذراء، وإلى اليمين معبد للقديس يوسف، وفوق المذبح الرئيس تمثّل سان شارل بلباس الكاردينال يحيط به الفقراء والأيتام، وكأنها رسمٌ للكاردينال لافيجري[2]. لا شيء يثير المشاعر، فالمذبح والمنبر كله هنا من الرخام الأبيض، في حين أن أمكنة العبادة تحتاج لشيء من القدم. الأناشيد تتردد من دون أي سحر. عندنا، في الجيش، عندما يبارك الكهنة رفاتنا، يحصل ذلك تحت السماء ووسط ضجيج المعسكر. كان الشيخ باري جالساً على كرسي، واضعاً رأسه بين يديه، غير قادرٍ على تحمل المزيد.

(1) أي السلام عليكم.

(2) Charles Lavigerie (1825 – 1892) هو كاردينال فرنسي درس في السوربون ثم اتجه إلى سوريا لمساندة الحركة التبشيرية عن طريق التعليم. انتقل إلى الجزائر سنة 1867 حيث أصبح كبير أساقفتها واهتم بالتبشير فأسس سنة 1868 جمعية المبشرين بالجزائر التي تعرف باسم الآباء البيض (Les Pères Blancs) وأسس في السنة الموالية جمعية الأخوات البيضاوات المسماة (Congrégation des Soeurs Missionnaires de Notre Dame d'Afrique)، وكان يهدف بعمله تحويل مسلمي الجزائر إلى الديانة المسيحية، معتبرا الجزائر بابا نحو القارة الإفريقية التي أرسل إليها بالفعل عددا من البعثات التبشيرية.

ربما أنه يتساءل كم ستكلفه هذه المراسم، إذ كان هناك العديد من آلات الهارموني وستة أولاد للكورس، لكن كاهن أربا لم يأتِ. دفن بالكاد من الدرجة الثانية. وأخيراً نبرة فرحة، صيحة ابتهاج: *إن باراديزيوم*... نعم فلتصعد إلى الجنة، ولتتركنا أورتينس لمصيرنا، لتهنأ بالسعادة الأبدية مع الملوك والقادة، ولتسمع كورس الملائكة!

«بحزنٍ، غادرنا سيراً على الأقدام. انعطفنا شمالاً. خرج رجال من مقهى الأمل، وانضموا إلى الموكب. لمحت النجار بينهم. هل أخطأت بشأنه؟ هل يمارس تعبده الخاص في حانة؟ خطابه ذاك عن البروليتاريا، أتراه استلهمه من الأفسنتين؟

«لم تكن المقبرة بعيدة، بعد البلدية والمدرسة، أيضاً لجهة اليسار، خلف سور حجري، ساحة كبيرة بانتظار العمال والسكان، فهي الآن بالكاد مشغولة، نحو العشرين قبراً، في مكان يتسع بسهولة للآلاف. لقد كانت المقبرة، في الواقع، أكبر من الحاجة إليها. أمام المدخل، مدفنان غير مكتملان بلا اسم العائلة. كان على عائلة باري أن تشتري واحداً، ولكن من كان يعتقد؟ ليس الشيخ، لقد كانت حياته فقيرة جداً ليفكر بأمر كهذا، ثم إن هذه الأفكار لا تزهر إلا في رؤوس من ما زالوا في كامل قوتهم يعتقدون أنهم أبديون ويحسبون انهم يحضرون لأهاليهم مسكناً أخيراً جليلاً ونصباً يرضي غرورهم. حفر قبر أورتينس إلى جانب القبور الأخرى، بالقرب من الصليب الذي يرتفع في الوسط.

«ما زالت صلوات تتردد. حرارة الشمس بدأت تشتدّ وذبلت الزهور. في بلدةٍ كسيدي موسى، كانت تلك فرجةً. يحدجونني بتلك الوقاحة البريئة لأهل الجزائر. في فرنسا أيضاً يتفرجون على الغرباء ولكن بطريقة

ماكرة، مدعين الغفلة. هنا، أتكون الشمس المتوسطية التي لا تخفي شيئاً، ناهيك عن حرارة العلاقات، هما السبب؟ يسدّدون إليك نظراتهم الغرامية الواثقة، مثلما يفعل الكلاب لبعضهم بعض، بوقاحةٍ طبيعية جداً، بلا أي مجالٍ للتأويل. يباغتونك بالغمزات. كان هناك شخصان أو ثلاثة يتابعون مارغريت عن قرب. لا... من غير المفيد التسبب بفضيحةٍ، إنها البلاد التي تريد هذا، خليط جميع هذه الأعراق، غياب الرادع ومشقة العيش: الأعراف ما عادت رادعة كما في السابق. فكل ما نشعر به ينبغي التعبير عنه. لا نضايق أنفسنا. أما العرب وعلى الرغم من أنهم ما زالوا محتشمين جداً عندما يتعلق الأمر بهم وبنسائهم، فإنهم يعبرون فجأة عن وقاحة تجاه غير المؤمنين، مما يشعرنا بأن لا مكان للحرمات في الجزائر. يا للكاهن المسكين!

«عندما اقتربوا من إنزال النعش الذي صنعه النجار من خشب السنديان الجميل في الحفرة، سحبت ألكسندر. حاولت الإمسك بيده، كانت متسخة جداً بسبب لعبه بآلة الناعورة، فهززت رأسي متوعداً بالعقاب. في خشب الصنوبر، ما كانت أورتينس لتزن كثيراً. عدنا إلى ساحة الكنيسة، متحاشين لحظة تقديم القهوة، عبر شارعٍ صغيرٍ محاط بمنازل واطئة صنعت سقوفها من القرميد المستدير. ثم صعدنا الطريق مرة أخرى. ترافقنا أسراب من الذباب تحاول الجياد طردها بذيولها. كان الوقت قد تخطى الظهيرة.

7

«أنا وألكسندر لم نتلفظ بكلمة واحدة خلال مسيرتنا كلها. دخنت

سيجاراً آخر. كنا أول الواصلين إلى المزرعة. اقترب مفتاح ولمس يدي مرة أخرى ثم قبل أصبعه فوضعت أنا يدي على قلبي بطريقة واضحة، على طريقة المسلمين. ثم حرر الجياد واقتادها إلى الإصطبل.

«عاد جان بيار بعربته ذات الدولابين، مصطحباً ماري ولاتيتيا. بدت المزرعة مدمرةً. كانت، كيف يمكن قول ذلك؟ كشاطئ بعد انحسار المد. لم يكن بالإمكان التعرف على شيء. الكلب التي أعيدت إلى وجارها، لا تنبح. ما عادت تعرف، تدور عالقة في رسنه. في حجرة الطعام، نظّفت ماري الخوان، وساعدتها لاتيتيا على الرغم من عدم مهارتها بهذا النوع من الأعمال. رتبتا المقاعد، فتحت ماري غطاء البندول وأعادت ضبط العقارب وتشغيل الرقاص، أقفلت باب غرفة أورتينس، حيث خبّأت قفص الأحجال. أحضرت زوجة مفتاح قدراً تبدو ثقيلةً، ثم غسلت الأطباق والأقداح. مدّت ماري المفرش. جان بيار، ألكسندر وأنا بقينا واقفين بصمت، في الظل، ننظر إلى أشجار الجوز والبرتقال والسرو. أظلمت الدنيا، وتوقف شدو الزيزان.

«واحدة واحدة، عادت العربات من حيث أتت. نقلت العربة التي يقودها ديزيريه العائلة مع فليبين وماري ألدبرام ومارغريت وسابين. ثم عاد الأخ الآخر، فرنسوا الذي لا أعرفه، وزوجته التي تكفلت مع دولوريس برعاية الأولاد، بيار بويشو وكل العائلة. وأخيراً النجار. وكأنه جزء من العائلة. لم يغب سوى ليزار، الذي كان عليه الالتحاق بميزان–كاريه.

تفضلوا إلى المائدة، قالت ماري.

«لا أعرف لماذا شعرت بالراحة، لا بل بشيء من السعادة.

الفصل الثاني

في البليدة[1]، طرأ تغيير كبير في روح السيدة دو رواي. انطفأ ودّها القديم تجاه مارغريت، لتستسلم لتأملات خالصةٍ من الأوهام.

1

أكانت البليدة هي السبب؟ طرأ تغيير كبير على السيدة دو رواي. مثل قارة جليدية ذابت في الربيع، اكتشفت تفاهة ما في داخلها، ودانت نفسها لإهمالها واجباتها الكبيرة، وبعيداً عن مشاعر الندم، بدت مستمتعة بذلك. لدى الروس لفظة بديعة، كان الجنرال يحب استعمالها لوصف ذوبان الجليد في الربيع، والذي يجعل الطرقات غير صالحة للعبور: راسبوتيتزا. أجل، ولكن ماذا عن كل هذه الوحول التي نخوض فيها؟

منذ عشر سنوات، ومن فصلٍ لآخر، كانت السيدة دو رواي ترجئ هذه الزيارة للبليدة. في الشمس الساطعة هنا، يمكن الحكم على المغامرة بدمٍ بارد. لأن الرغبة السابقة بإعادة بناء أواصر نسجت مع مارغريت في سهرةٍ كانت مجازفة. ذكرى زوجها تبدو لها ضوءاً ذهبياً في أفق بحري، رقة تتباعد تدريجياً ثم تتلاشى. فارتباطها برجل بقربان مقدس، يعني رجلاً فضلته على كل شيء، أدخلها في عالم لم تدرك جماله إلا بعد ضياعه. فالجنرال كان طيباً، رؤوماً، مرهفاً، يفضل البساطة في الكلام

---

(1) البليدة هي ولاية تقع شمال الجزائر على سفوح جبال الأطلس إلى الجنوب من سهل متيجة.

والتصرف، ولكنه كان «روايياً[1]»، والأعوام الاثنا والعشرون التي تفصل بينها وبين زوجها بدأت تلقي بثقلها في النهاية عليهما. فقط لو لم يترك عمله! لو لم ينتقل إلى الاحتياط، في الوقت الذي كان يجب أن يكون في عداد المستشارين، وفي الوقت الذي بدأت تتكشف لزوجته القيم الحقيقية للعصر. انعكس هذا الانتقال هزيمة مشتركة لهما. يا لهذا الخطأ! فقط، لو رحلوا بصمت، لو لم تأت مارغريت! الرحيل عن الجزائر، بشمسها المتعبة، وهمومها، كم كان سيكون مريحاً! حفلة الوداع فتحت شهيتها على المشاعر التي اعتقدت أنها قد خبت. أن تترك دفعةً واحدة تعلقاً من هذا النوع، دون أن تحظى بشيء في المقابل؟ أكان منطقياً أن تسمح لنفسها بالانجرار وراء صداقة مفعمة بالشغف إلى هذه الدرجة، مع امرأة جميلة بريئة، وأن تقدم لها قلبها حتى دون أن تعترف لها بذلك، لا بل ألم تفكر حتى بالبقاء قربها إلى الأبد؟ لحسن حظها، جرت الاستقالة بلا عراقيل؛ وما إن تقطع الجسور لا يعود بالإمكان العودة عن قرارٍ كهذا. أما الجنرال فقد عزا كآبة زوجته لتبدل الطقس. فبعد عامين من رطوبة الجزائر، هناك ما يتخرّب في داخلنا. لا يمكننا أن نعاود التأقلم بسهولة مع مناخٍ أكثر جفافاً، لا بل مع طقس فونتينيبلو شبه الضبابي.

يا للتحرر من الأوهام! هناك مشاغل أكثر أهمية من جنرال متقاعد عائد من أفريقيا. وحتى بالنسبة إلى سفاراتها، تعين الحكومة موظفين مخلصين غير ملتزمين بالضرورة بكل سياساتها؛ إذ لا يمكن التخلي عن كبار الموظفين والمارشالات، وبصورة أقلّ الوزراء، بسبب حملة عقابية لم يوافق عليها قائد شعبة صغير، وتوّجت في النهاية بالنجاح. وحتى لا

(1) المقصود هنا من آل رواي.

يتعرضا لمزيد من الغضب والاحتجاج، تعجلا في الاختباء في روارغ: الوحدة المطلقة، وحيث التسلية الوحيدة زيارة سوق فيلفرانش في السبت الأخير من كل شهر.

كان عليها أن تطري على زوجها، فالزوار كانوا يعتبرونه رجلاً حالماً، انفعالياً، عاشقاً للصمت. ومن دون مكابرة، خلع البزة والسلاح والأوسمة ولم يعترض على فكرة زوجته بقضاء الربيع في البليدة، والتي لم تزرها أبداً لمّا كانت ما تزال مع زوجها في الجزائر. أما هو فلا، لن تطأ قدماه ثانية هذه البلاد. في كل مرة يعود فيها الحلم مرفرفاً على سطح الضجر، لا ينتفض، بل يغوص في الحزن ويمرض. حقاً. صداع، إرهاق، لهاث، كل ذلك كان حقيقياً، لم يدّع شيئاً منه. كان الطبيب ينصحه بالراحة. كيف يمكن أن تتركه وشأنه؟ الحياة تمر. ثاني أبناء مارغريت فتاة تحمل اسمها، وتبدو أنها تشبهها. هذا... ما يقولونه في الرسائل. «ادعي عائلة غربيه لقضاء العطلة هنا....»، لكن النقيب لم يأخذ يوماً عطلة. رسائل مارغريت كانت ساذجةً جداً، تدفع الجنرال إلى التبسّم، السحر يتبخر في ضباب الغروب، يصل إلى أعالي السماء ثم ينطفئ.

على الرغم من ذلك، وفي العام الذي سبق الحرب، وقبيل عيد الميلاد، عادت تمنيات غربيه ومشروع قضاء الشتاء في أفريقيا ليكسرا الصمت. ذات يوم على الغداء، قال الجنرال بصوته الهادئ: «أنت تفكرين من جديد بالبليدة، أليس كذلك؟ في هذا الوقت، يمكن الإبحار على واحدة من البواخر الإمبراطورية التجارية. كيف تسمى؟» ثم فجأة رفع الكلفة مع زوجته، وعلى عكس عادته، قال بطريقة سوقية: «ليلة الحفلة، تركت نفسك تتغنجين على ضابطي المساعد. لا تعترضي. رأيتك، عندما رقصت

معه. لم أصدّق عيني. ذلك التوهج...». شعرت وكأنها تلقت طعنةً في القلب. «أنت مجنون...» وأكمل بهدوء، بدا مستمتعاً بذلك: «امرأة فاخرة مثلك، وردة تتبدل في لحظة، كل شيء ينقلب وينهار. عندما أقيس السعادة التي تقدمها لنا صداقة الرجال، لماذا سنكون بحاجة إليكن لهذه الدرجة؟ أبسبب الخطر الذي تمثلنه؟ نحن نقدم حياتنا، نصرف كل ما لدينا لأجلكن، وبإمكان غيمة واحدة أن تخرّب سماءنا، فنحن لا نحترس. أي فكرة تلك التي راودتني بالذهاب لرؤية مرافقي القديم! من دون ذلك الشيخ بويشو، لظللت تعتبرين غريبه رجلاً أخرق. زوجناه، دعونا زوجته إلى الجزائر، تفلتت العاصفة وحطمت كل شيء. كائنات عزيزات، لا يمكن استبدالهن! دائماً قلقات، ضحيات ضبابٍ وتمزقات من كل نوع، الحب هو مرضكن، ابنكن المفضل. أنا أعشقك...»، ثم بدّل الحديث.

في ذلك الشتاء، لم تعد البليدة مطروحة على بساط البحث.

حسناً، كان يكفي أن تكون هنا حتى يتبدل كل شيء. وكأن الجيش الفرنسي كله شغل البحر حتى لا يجعلها تقع بين أيدي البروسيين. كم عانت للحصول على مكانٍ على متن سفينة! ثمانية أيام من الانتظار في مرسيليا. وعلى نحو مفاجئ، في البليدة أيضاً، لم تجد منزلاً واحداً فارغاً. أضف إلى ذلك، الذباب.

آه! نعم البليدة... بعد تخطي صدمة الوصول، تعانقا وتعانقا، حماسة شديدة تخفي شيئاً ما، تحاول إيقاظ حرارة انطفأت. «دعيني أتملّاك...» كادت تستعمل صيغة الجمع المتحفظة في مخاطبتها مارغريت، ولكن بعد تردد هنيهات من الطرفين، استعادتا لغة رسائلهما غير المتكلفة. ما زالت مارغريت على جمالها، لا بل أن عيناها بدتا أكثر سحراً من قبل، مع ظلال

تلمع فيها لآلئ ذهبية، عالم كامل من الكواكب، وجه سرقت كآبة الحياة منه بعض وهجه، بالكاد سمنت قليلاً، ثديان بارزان برقة ولكن... مرت عشر سنوات، وهي تعرف ذلك، لم تكن بحاجة إلى النظر في صورتها. القصر، المشاعل، الخدم، نار الحطب في المساء، البزات العسكرية، وحتى العاصفة التي ضربت الجزائر لأسبوعٍ كاملٍ والحواجز التي يفرضها الرجال على ودّ يولد بين امرأتين، كل ذلك انتهى بنوع من البراءة، أعجوبة إلهية وافتتان عكسي؛ أنعرف ماذا تبتدع الروح وكيف تتشكل في السماء هذه الألوان والغيوم التي تحمل الأرواح؟ لا الوقت ولا خسارة التألق هما السبب الحقيقي. كان بالإمكان الإعجاب بمارغريت على نحو أكبر وأشدّ من السابق. خيبة الأمل تعود إلى هشاشة الأشياء الإنسانية نفسها، ولعبور الطيور المهاجرة دائماً صوب السماء، نحو الصحاري أو الموت.

في اليوم التالي، تذرّعت السيدة دو رواي باحتمال عودة النقيب، لكي تنتقل إلى فندق أوريان.

كانت مارغريت تتناول عشاءها أغلب الأحيان مع كولونيل في سلاح المدفيعة، رجل عازب مفتون بالجزائر، معسول اللسان، ذلق بمجامل، عالي الجبهة، معقوف الأنف كطيرٍ جارح. كيف يمكن لرجلٍ مثله أن يقود فوجاً؟ ربما بسبب مرونته أو ابتذاله. كيف يمكن لمارغريت أن تسمح لنفسها بالوقوع تحت تأثير صفة غامضة كهذه، الكونت سانتونْي؟ بمَ فكرت؟ بالانتقام، من دون أن تعي ذلك، لخيانةٍ شعرت بها دون أن تعرف بها؟ أم لأنه أشعرها بالأمان؟ والمرح؟ يبدو أنها لم تقدم له شيئاً ولكنها منحت نفسها له شيئاً فشيئاً. أي منهما، وقد علق في الفخ، بدأ يقاوم؟ لم يرتح ضابط المدفعية لوجود السيدة دو رواي، ثم أعمل دفاعاته، وقدم

خدماته، ومع خبر انتقال السيدة دو رواي إلى الفندق، أعلن بحماسةٍ أن ذلك لا يجوز، وبأنه يمكن له أن يتقاسم معها الفيلا التي يقطنها بالقرب من غابة الشريعة[1]، وسط أشجار البرتقال والزيتون، التي لا يعود إليها قبل المساء، ويمكنها أن تكون فيها سيدة كل شيء. «ثم انسي النميمة في المقاطعة، فأنت أجلّ من ذلك». كان لديه جنوح للجنون. صعوبة الموقف هي التي حسمت ترددها. كولونيل لا يطلب الكثير من الالتزامات لا يسبب الحرج. بعد أسبوعٍ، كانت تسرح وتمرح في المنزل الجزائري. واستعادت البليدة بعض بريقها في ناظريها.

2

أمام مرآتها، تكون تأملات السيدة دو رواي دائماً أكثر حدةً. هنا، يجب الحذر من الحقيقة، التهرب منها، تحاشي مقاربتها، وعند الحاجة محاولة خداعها من خلال حرفها في اتجاهات زائفة، بعثرة الآثار، والتخفي أحياناً، والاختراع. على الرغم من ذلك، ما عاد ممكناً تحت غطاء الابتسامات أو الجدية، مخادعة العدو الذي يقف قبالتنا. في داخلنا للأسف.

هذه المعركة التي تخوضها النساء لرؤية أنفسهن خلف المظاهر، لا تعرف الرحمة. نادراً ما يأخذن استراحة أو هدنة، ومعاهدة السلام توقع في سن التنازلات على هزيمة. تكتيكات واستراتيجيات لتأخير هذا الوقت قدر الإمكان، مع استنزاف كل الدفاعات. لا يمكن اصلاح شيء. هذه المعركة لا تنتهي أبداً.

(1) الشريعة هي غابة جبلية في ولاية البليدة.

هذه التجاعيد الخفيفة عند المآقي، وتلك التشقّقات الصغيرة التي تقاوم كل المراهم الليل والتدليك بماء الخيار، لا تقلق كثيراً السيدة دو رواي. ليست سوى تموجات بالكاد مرئية، في الليل كأثار أقدام عصفور فوق الصدغين، لتظهر بشكل أكثر وضوحاً كل صباح. تكفي نظرة حبٍ من اجل محوها في عين رجل. هل لاحظها يوماً الجنرال؟ «يا إلهي»، قالت لنفسها، «نيكولا...».

لا لم تكن هذه التجاعيد هي ما يشغل السيدة دو رواي، ولا تجاعيد العينين التي ما عادت تشع بسبب آثار السهر والحزن. ولا الخطوط على الجبهة بسبب التفكير والتأمل. وإنما تجاعيد الوجنتين. هذا الثلم الرهيب، الصلب، محراث لا تشعر به يحفر فيك عميقاً من جانبي الأنف والفم. في البداية خدش بسيط، كشطة ظفرٍ، ثم جلف واضح، ليشكل هنا وليس في مكانٍ آخر، مجرىً للدموع نعتقد أنها امّحت، جفّت، كل تلك التي جرت سواء بسبب لا شيء أو بسبب جروح كبيرة. أي غلطة هذه! كل كرة نارية منها تحرق، تحفر، تثقب، تغرز سكةً تصبح أكثر وأكثر عمقاً واتساعاً. عندما نتخطى الأربعين، في مواجهة هذه الشمس الساحقة في البليدة، نكتشف أن تجاعيد الوجنتين تكاد تلتحم بتجاعيد الفم، لتتشكل هنا حفرةً، خندقاً، لا يمكن لشيء أن يردمه، على أية حال ليس الدموع، بالعكس، فلن تداعبها يد، ولن يقبلها فم. ليتتابع بعدها كل شيء، ترهل الذقن، تغضن البشرة، تقصف الشعر. أوليست ذكية، فكرة الحجاب عند الراهبات، ذلك الحجاب الذي يحيط بالوجه مخفياً تماماً اللعنات الأكثر بشاعة للزمن؟ ألكي لا يرى فيها الزوج الأبدي سوى الإشعاع ولتظهر له حتى آخر لحظة من العمر وجهاً بيضاوياً مثالياً، أو حتى لتقدم أقصى صور

السعادة للناس، للكاهن أو لأخواتها؟ ثم أنه لا وجود للمرايا في الدير، سوى الألواح الزجاجية، أو ماء الأنهر ونظرات الآخرين. وفي المقابل، فإن العالم لا يتسامح أبداً. ما دام خطا التجاعيد لم يلتحما بعد، يبقى الإغراء وارداً، مهلة ترى في عيون النساء. لكن ما إن يكتمل الالتحام المحتوم، حتى يشيح الرجال بأنظارهم...

كم هزلي، أن تكتشف ذلك، فقط في اللحظة التي يحصل فيها التغيير، ومع ذلك كانت السيدة دو رواي تشعر بذلك الفرح يتحرك في داخلها. كلمة راسبوتيتزا تلك التي كان الجنرال يحبّ تردادها، والتي تخطر الآن لها، أكانت دقيقة؟ مع حرب القرم، تحولت اللغة الروسية إلى موضة. كان الجنرال يؤكد أن راسبوتيتزا تعني النزوع إلى الشر، فهي العربدة أكثر مما هي تحطّم الجليد، رأى فيها واحدة من الفروقات بين الأفكار ونمط العيش والاتجاهات الثقافية. راسبوتيتزا، ليس هناك من حواجز، كل شيء مسموح، ولا يعود ممكناً التوقف لأن السماء أظهرت عذوبة. فالجليد الذي، طوال أربعة أشهر، جمّد الأرض والأرواح، يبدأ بالتصدع من كل جنب، حتى في الليل، محدثاً جلبة رهيبة: نحيب، ونعيق، ترنيمات، موسيقى فرح جهنمية، هذيان الربيع الذي ينفجر ضاحكاً بعد صمت الشتاء. إنه ما يذوب في داخلها.

يا إلهي، من أين تأتيها كل هذه الأفكار؟ من البليدة. من المرآة. من الفيلا الجزائرية التي ليست سوى ضيفة عليها، من ورود تلقتها. في البليدة لا تعمّر الورود طويلاً. يجب قطافها وهي بعد مجرد أزرار صغيرة، إذ تتفتح بسرعة، وتغدو كبيرة، مفلوشة، شرهةً، باحثة عن الهواء من تويجاتها الثقيلة المحببة، ضائعة وسط فائض عطائها. تساءلت أيّ فستان ستلبس، ترملها لم

يبق لها سوى خيارات قليلة: الأسود الساتان، الأورغندي، المقصّب، غير أن الأسود كان دائماً لونها الضارب.

3

«أيمكنني الدخول؟».

إنها مارغريت. عانقتها جانبياً بسبب أحمر شفاهها وبودرتها. قديماً...

– حسناً؟

– إنه هنا.

الطريقة التي قالت فيها الأشياء، توحي بأنه بلا شك هكتور. كانا عائدين من عزاء. فجأة، شعر هكتور بأنه ضجر من المزارع. وبدل العودة إلى بوفاريك، قرر الذهاب إلى البليدة، إلى بيته وعاداته.

«أعتقد أنه أراد على الأكثر رؤيتك».

إذن هكتور هنا. لكي يتسبب بفضيحة؟ بالتأكيد لا. هل لديه شكوك بما فكر به الكولونيل أو خطط له؟ هل صدق بأنها ببساطة مجرد هدية لها؟ حسناً إذن، فإنه يستحق الاحتفال. اختارت فستاناً مقصباً صينياً مع حزام حريري وتطاريز لتظهر به ذات قامة نحيفة جداً بصدرٍ عريضٍ مشدودٍ، وياقة بالكاد مشقوقة، وتنورة واسعة جداً تذكر بأناقة القرينولين[1] مع سلسلة من الطيات وتنورة تحتية من الدانتيل تلامس الأرض. أما للسفر، فالتنانير كانت أقل عرضاً، والسترات ترافقها برندبورية[2].

---

(1) القرينولين هو قماش قطني يابس لتبطين الثياب، أو تنورة مسلّكة منتفخة قاسية القماش.

(2) Brandebourg أي معطف سميك بأزرار تبكل بشرابات.

«كيف تجدينني؟».

لم تجب مارغريت، بيد أن تقاسيم وجهها لم تحمل سوى الإعجاب. هل يمكنها أن تصبح امرأة مثل سابين، واثقة من نفسها ومن الرجال، تعرف، رغم الإهمال أو النسيان، كيف تعطي قيمة لكل ما تقوم به. تلك الرشاقة الهادئة، والرقة الحاضرة دائماً، ذلك الجمال الذي لم ينل منه الوقت، تلك السكينة الداخلية؟ فقد اكتسبت بعد ترمّلها سحراً أكبر لعله جعل الرجال يحلمون بسرقتها منذ لحظة الدفن، وباقتيادها مرة أخرى إلى مذبح الكنيسة للزواج منها. أي أمير وأي مملكة يليقان بامرأة من آل رواي؟ بدورها شعرت بشيء من الغيرة. إن لم يكن منها، فمن ظروف الولادة، التي تصنع هذه الفروقات بين البشر والأقدار؟ لقد قيل لها كثيراً إنها جميلة، وهي تقرأ ذلك في عيون الرجال، وحتى في عيون باعة الخضار وأصحاب الدكاكين العرب، والتجار اليهود، الذين تراهم كأنما عبر حاجز ضبابي، أهم موجودون حقاً هؤلاء؟

كان بإمكانها أن تميز نفسها عن السيدة دو رواي ما دامت غير موجودة هنا، كانوا يراقبون مرورها، تباغتهم في تسوقها، وذهابها وإيابها تحت الأروقة المقنطرة لساحة السلاح[1]، يحاولون مدّ حديثٍ معها. تبدل بشكل مفاجئ مواقيت تنقلها، تتأخر في المتاجر، أو تعود إلى منزلها مستمتعةً بخيبة متابعيها الذين لا يتجرأون على الإفصاح عن دواخلهم. في المساء، عندما جاء الكولونيل لاصطحابها إلى العشاء، وجدها مع السيدة دو رواي... احتار إلى من ينظر. النحلة الضخمة التي التصقت بالزجاج، تدور وتدور، وتترنح، ما عادت تعرف أين تضع عسلها.

(1) ساحة السلاح هي التي تسمى اليوم ساحة أول نوفمبر.

الكولونيل المسكين! هذا المساء كان يتساءل إن لم يخطئ الطريق: تعقيدات مع امرأة يمكن أن يعود زوجها بين لحظة وأخرى في حين تتوافر أرملةً كهذه... سهم قاتل أفقده توازنه. ما عادت ملكة. فالسيدة دو رواي التي كانت تتظاهر بالجهل بما يحصل حولها، أعادت طرح السؤال: لو تجرأ، لما اكتفى فقط بتقديم منزله لها. فحتى فارق الستة عشر عاماً الذي يفصلها عن مارغريت لم يكن عاملاً حاسماً لصالح الأكثر شباباً. إذن ليس العمر وحده ما يهم الرجال. النبل، الامتيازات التي تأتي بالولادة، كل ما يصنعه المحيط الاجتماعي لامرأة، طريقة الحياة، كل ذلك يؤثر بدرجة أكبر على الرجال. الفستان نفسه على كتفين مختلفين وكأنها ليست يد الخياط نفسه قد خاطته.

«كيف تجدينني؟». لا يمكن القول لها إنها... لماذا غيّر هكتور بهذه الطريقة المفاجئة رأيه؟ هو الذي صدم بمطلب زوجته بالعودة إلى البليدة لإحضار فستان، قرر فجأة أن يعود لينام فيها مع أن عليه أن يعيد العربة والحصان إلى المزرعة. فالمسافة من سيدي موسى إلى المزرعة لم تكن أبعد، ألا تخفي هذه النزوة شيئاً ما؟ ألم يكن هكتور ومنذ وصوله إلى البليدة مهتماً برؤية السيدة دو رواي؟ لطالما تساءلت مارغريت إن لم يكن قد تودد لها عندما كان ضابطاً معاوناً لزوجها. أليس بينهما سر ما؟ قلة الحماسة في البداية، التي بدت أشبه بانزعاجٍ من وجودها في الجزائر، ثم هذا التعجّل المفاجئ... هذه البرودة الداخلية ما أن إشعلتها لهفة المشاعر الأولى... وكأنه مشغول بهموم عميقة سوداء. أهي الهزيمة فحسب؟ لقد مرّ بقصر دو روارغ، لماذا لم يحضر جنازة الجنرال؟ فرسالة ماك - ماهون تلك لم يكن مهماً أن يتأخر وصولها، وقد تأخر أساساً بهذه الزيارة... وماذ عن

كل هذه التحولات، شعرٌ أطول، شاربان شبه حليقين، كآبة تعلو الجبين، وخلف الجبين روحٌ مهشمةٌ، أكل هذا بسبب محنة الوطن؟ أكان الوحيد الذي حمى نفسه من زوجة الجنرال؟ في ليلةٍ صلى فيها أمام جثمان قائده القديم؟ وماذا عن تحفظ سابين عن الكلام عن زيارته: جاء في منتصف الليل وغادر فجراً عبر الغابة مثل دوق كبير...

4

«كيف كان؟» سألت السيدة دو رواي وهي تنثر غيمة من البودرة على وجنتيها وعينيها.

ثم استدارت عارضة علبة البودرة مع ريشة الأوز:

«هل تريدين...»

رفضت مارغريت بابتسامة.

– كيف كان؟، كررت مارغريت. أنا مستغربة، فقد بدا متأثراً بموت أورتينس، لم يحدثني بكلمة واحدة. بقي طوال الوقت مع النجار، عدنا إلى المزرعة وبشكل مفاجئ بدل رأيه: البليدة. لماذا؟ من أجل من؟

– الكولونيل، إن كنت قد حدثته عنه. هيا بنا.

قادت السيدة دو رواي مارغريت مع حفيف ثوبها الحريري. ومن أعلى الدرج الذي يطل على الصالون، توقفت وابتسمت. الرجلان، وهذا ما يبدو جلياً من اللحظة الأولى، أصبحا صديقين.

«كنا نتكلم عنكما»، هتف الكولونيل. «فنحن نعرف واحدنا الآخر، أليس كذلك عزيزي؟ قل لي ما يستحق أكثر من جمال النساء أن يشغل

أحاديث الرجال؟ يبدو النقيب متوتراً بعض الشيء، فهو يعتبرني بعيداً قليلاً، ممتلئاً برتبتي، لا أعرف ماذا أيضاً، أنا... ماركيزة، احتراماتي، وأنت أيضاً سيدتي».

غطى مرحه على كل شيء. اندفع، رافعاً جبهته وفمه، مطلقاً ضحكات خفيفة منادياً الخدم.

انحنى هكتور، ولثم يد السيدة دو رواي. جديدة عليه هذه الحركة. أيعلمونهم إياها في الحرب؟ هو الذي كان متمرداً على تقبيل أيدي النساء؟ أما هي من جهتها، فلم تبد إلا ما يلزم من الاهتمام، والتقدير الذي يليق برتبته، طارحة الأسئلة عن الرتبة التي بلغها.

«مارغريت تؤكد أنك لا تفكر سوى بالعودة إلى منطقة القبائل، أيها النقيب؟».

لم يجب، ابتسم، موارياً نظرته.

أيها النقيب، نادته، أيها النقيب، فقد كانوا في الصالون. فأمام مارغريت، تبدو كلمة «نقيب» في الحديث كلمة محايدة. ولكن فجأة يصبح لها وقع غريب. بدا هكتور خجولاً، متحفظاً، حذراً. هو، الذي منذ ساعة بالكاد، أراد أن يضع حداً للعزاء. لو كان عازباً، لخرج إلى الصيد، ولكن ها هو مع امراة وأولاد...

«ماركيزة»، قال الكولونيل وهو يملأ الكؤوس، «لا تجعلينني أغار. أتمنى أن يعود الجنرال غرييه سريعاً إلى كتيبته. من دونه، يمكنني أن أستحوذ عليك وعلى زوجته. فعند عودته، أشعر، كيف يمكنني القول؟ أنني ملحق به. ها أنا تراجعت رتبةً. أنا أمزح. جميعنا ينتظر عودتك. لقد أقلقتنا إصابتك. حمداً لله، لم يكن الجرح كبيراً... وهذا يتطلب شمبانيا، ولكن

كيف لنا، هنا في هذا الطقس الاحتفاظ بها باردة؟ شمبانيا فاترة، أف...

- ثم إن مرأتان من هذا النوع! أضاف. في النهاية، هذا يشعرنا بالدعم. إنها لنعمة، ابقَ معنا. يمكن لكتيبتك أن تتدبر أمورها من دونك. سنرتب ذلك. فكلما بدت الأمور هنا معقدة، ينتفضون في السهل. أنت الذي تملك فن تحجيم أصدقائنا الصغار، عرفنا كيف نستغل قدراتك.

- لماذا؟ سأل هكتور. أثمة انتفاضة؟

- بالكاد. أنت عائد من عزاء. دعنا لا نبقى في جو كئيب. لنشرب. ماركيز، بصحتك. سيدتي نخب حبك للنقيب. بعد ذلك سأسرقكم: نحن مدعوون لدى البارون دو تونِّر الذي يحتفل لا أعرف بماذا، ربما عيد ميلاده، في مزرعته دي ريفيت، إنها مملكة كما يبدو.

وعندما بدت السيدة دو رواي متفاجئة:

- كنت أريد أن أفاجئكم. فانا أعترف لا يمكن أن يكون هناك وقتاً أنسب من عودة النقيب. ثم ليس هناك أي عائق، أليس كذلك. التقيت البارون في يوم سابق في الاجتماع. تمنى عليّ أن أحضر معي عشرة أشخاص لو رغبت. كنت أجهل أنه المالك الأكثر ثراءً في متيجة، وفي الجزائر ربما. كم؟ مليونان أو ثلاثة ملايين هكتار في منطقتين أو ثلاث؟ ثم إنه أيضاً... أغراني: فهو إقطاعي روسي باروننا هذا. أنت تعرفه،غريبه، إنك تبتسم.

- اعذرني، لكنّ حصاني اسمه بارون. وهذا ذكرني به. أعرف من يكون هذا البارون. وزوجتي أيضاً تعرفه. فعلى الرغم من سكن

عائلة تونّر في الجهة المقابلة لبوفاريك، فهم يحدثون من الضجيج ما يجعلهم مسموعين في آخر السهل. إنه متصلف قليلاً، اليس كذلك؟

– لكلّ منا عيوبه.

– هل قلت إن هناك انتفاضة...

– إنه سبب إضافي لإقامة حفلة، لدينا مرافقتان، ثم هناك ستكون كل البلاد مدعوة وكل الجزائر.

– الوشاح، قالت السيدة دو رواي. أمهلانا قليلاً لنحضر وشاحين. قد يكون الطقس بارداً قليلاً هذه الليلة.

هرولت المرأتان مسرعتين.

استدار الكولونيل باتجاه هكتور.

– لقد قبلت هذه الدعوة، لأننا نضجر قليلاً في البليدة، وهذا يبدو مضاعفاً عندما لا تكون هناك حرب، كما أنه عليّ التعرف على البلاد، فاليهود ما زالوا لغزاً بالنسبة إلي. قيل لي إن هناك أفواجاً وكتائب من التركو بين المتمردين. ما رأيك؟

– لا أعرف.

– لا تقل لي إنهم عقائديون؟

– بدأت أتساءل. يعمل تحت أمرتي نقيب من السكان الأصليين. كلما عبرنا له عن صداقة، يرد عليها بمئة ضعف. ربما عاملهم الثوار باحترام. فالاحترام يشعرهم بالإطراء ويصبحون مباشرة مدفوعين بإحساسهم بالفخر والصداقة، مستعدين لأن يموتوا من أجلك. بيد أنهم قد يقتلوك في اليوم التالي لو تبدلت الرياح، أو من يعرف؟

بدافع الحب.

– يعني أنهم في العموم مرتزقة؟

– هؤلاء الذين يرتضون خدمتنا، ربما. الآخرون معجبون بأسلحتنا ومدافعنا وقوتنا لكنهم يكرهوننا لأننا نغتصب أرضهم، ونلوث الهواء الذي يتنفسونه.

– يقول لي البارون.. آه ها هما امرأتانا. يا للروعة، يا إلهي!

بدلت مارغريت فستانها بآخر من فساتين السيدة دو رواي التي أحضرتها لكل ظروف الطقس في الجزائر، فستان من الساتان الأبيض. ابتسمت السيدة دو رواي لذكرى حفلة الوداع، وللصورة التي احتفظت بها عن مارغريت براقةً في فستانها المقصب بالفضة.

ذكراك في داخلي تضيء كوعاء القربان المقدس...

استعادت أبيات بودلير التي طالما رددتها في فترة حزنها الأولى في القصر الريفي الصغير لباخ، فغمرتها السعادة فجأة. كم كان هناك من جنون في ذلك الوقت، كم من براءة! ففي يدها الآن، كل المتعة التي لم حرمت منها، تعيشها بعد سنوات، والتي كانت تتمناها إلى جانب الجنرال المتألم من تنسكه. تذكرت نظرتها للمرأة الشابة التي فتحت لها العالم، وشغفها المليء بالضوء والنقاء، والطريقة التي كانت تتنصت فيها على الحركة في الغرفة المجاورة. عادت إليها كموجة، لا حزن فيها، ولكن بتواطؤ. كانت كغمزة داخلية. في عمرها، لا يمكن الذهاب إلى حفلةٍ دون شيء. في الليل، وعلى ضوء المشاعل، لا يمكن النظر سوى لهذا العقد من اللآلئ.

5

كانت العربة مجهزة جيداً. دواليب بإطارات من المطاط، بغاية الرهافة. والحوذي جنديّ من سلاح المدفعية بالأزرق والأحمر. ساروا إذن من دون ضجة. فالعربة كانت مسرجة بفرسين كستنائيتين نشطتين. في مواجهة المرأتين، جلس الضابطان وقد أدارا ظهريهما للجياد، وجعلا يتحدثان.

«يتباهى البارون بتعلق عربه به، لديه دوارات كاملة تحت أمرته، بارون حقيقي[1] مع آلاف الأرواح تحت أمرته...».

انحنت السيدة دو رواي على مارغريت، أخذت ذراعها ثم يدها. لم تكن تضع خاتمها. قد يكون ذلك مفهوماً مع العودة من عزاء. مروا بمحاذاة ساحة السلاح حيث رد الكولونيل على التحيات. طرقات رشت بالماء للتو، وما زال الغبار يتصاعد منها، خففوا السير للانعطاف يميناً في الطريق المحاطة بالمطاعم الشعبية ومحلات الخياطة والمجوهرات، ثم وبالقرب من الباب الشمالي للمدينة، أسواق الحبوب والمخازن. شارف النهار على نهايته.

أمامهم، على بعد مئات الأمتار، سرية من القناصة يهرولون. وسيارات أخرى تلحق بهم.

«كم هو عذبٌ هذا الوقت من النهار»، قالت السيدة دو رواي، ضاغطة على أصابع مارغريت بين أصابعها. بماذا يفكران، تساءلت، وهي تنظر للضابطين أمامها. هما لا يسمعان شيئاً، بالتأكيد. فقد أصمّت المدفعية أذانهما في إحدى المرات. حتى نظراتهما تمر علينا من دون أن تلاحظ شيئاً. من هو إذن تونّر هذا؟...».

---

(1) البارين هو النبيل الروسي.

إلى الغرب، أسفل الهضاب، لاحت أولى النجوم، البريق الأول في قعر المغيب الذهبي.

«انظري»، قالت لمارغريت، ضاغطة قليلاً على يدها. «أعتقد أنها فينوس. كنت دائماً أتذكرك، عندما أنظر إليها، صباحاً أو مساء، لأنها نفسها، إن سميناها هسبر[1] أو لوسيفير[2]. يا للاسم الجميل، لوسيفير: حامل الضوء. قد تكون على الجذر نفسه لكلمة الأمل؟ بالنسبة إلي ليس الصباح، بل المساء ما أتمناه مع كل هذه الألوان. أتذكرين؟ كنت أقول دوماً إنّ الليل سيمر عليّ مثل نهرٍ كبير، يحملني إليك...».

في الظل، لمحت نظرة النقيب. فمع الكولونيل، لا داعي للمحادثة: فهو يتكلم ويتكلم. ولكن هل يعتقد فقط بأنهم يستمعون إليه؟ يثمل بالسخافات، كل شيء يذهله، وكاد يرفع قبعته العسكرية ويفك قميصه للاستمتاع أكثر بهذا المساء، والنسيم اللطيف الذي يحركه اندفاع العربة، كمداعبة. إلا إذاكان يخفي شيئاً ما؟

«أترى يا عزيزي، هذا ما أحبه هنا، هذه الساعة قبل النهار وقبل الليل. ينتابنا خلالها إحساس بالاكتشاف. فما إن يطلع النهار، لا يعود هناك ما يذهلنا؛ يهبط الليل فلا أحتك به، خاصة إن كان بلا قمر مثل هذه الليلة. لم أحصل بعد على جواز سفري إلى الليل. فلا شك أنه للحصول عليه لابد من التخلي عن الكثير من الشكليات، ومعرفة العرب والبلاد أكثر».

ربع ساعة فقط، وستضحي الظلمة حالكة. ولن يكون هناك ما ينير الطريق سوى النجوم، والفوانيس المستديرة بعاكسات الضوء التي أشعلت

---

(1) Hesper هي نجمة المساء.

(2) Lucifer نجمة الصباح.

لحظة الانطلاق من البليدة، ومن وقتٍ لآخر، مشاعل الخيالة. كان هكتور يفكر لو أن في إمكانه ممالقة هذا الكولونيل الحيوي جداً، العفوي جداً، بالتودد نفسه. ففي الجيش لا يمكن أن تهدهدنا أوهام رقة الزملاء. لو كان في مكان الكولونيل، في ثكنة فارغة من الضباط... ليس بالأمر السيء... أيقصد الكولونيل خداع الآخرين؟ الآن توقف النقيب عن الكلام. النجوم المعلقة بالغيوم اختطفت مارغريت من قبالته، ورفيقتها من قبالة الكولونيل. ولدى الاقتراب أكثر من الكولونيل مراعاةً له، يمكنه أن يرى سابين بشكل أفضل. وجهها فقط، بالقرب من وجه مارغريت، يشبه ببياضه وجه أورتينس.

مع التماع هذه الفكرة، شعر بتدنيس للمقدسات. أورتينس هي البراءة. فهي تختنق في نعشها. «دعونا لا نزعج أنفسنا»، قال في سره نفسه، «فلنخض في المحرمات...» حاول استرجاع الوجه الذي بدا له في ضوء القمر المكتمل، تلك الليلة حين... من كان بإمكانه مقاومة ذلك؟ الرحلة منذ كاهور[1]، اكتشاف القصر الريفي الصغير في الغابة، عويل البوم. العشاء وجهاً لوجه، صدمة خبر وفاة الجنرال، جثمانه بين الشموع والورود، كل ما يمكن أن يدفعه بين أحضان سابين، أهو جنون؟ تلك الرغبة في أن يلقي رأسه على هذا الصدر المهجور. في نهاية الأمر، أليس هو من حمل المشعل ووضعه على طرف النافذة في الممر؟ ثم، ودون أي كلمةٍ، يداه على وجه سابين، من أجل إحاطته بالحياة، تقديمه للسماء، تجفيف دموعه، ثم فمه على فمها وعلى عينيها. «لأعبّ من هذا النبع...» هذا المساء، وبسبب هذا الفستان الأسود، وبسبب رطوبة الطقس، تحاصره

(1) Cahors مدينة كبيرة تقع جنوب غرب فرنسا.

الغواية نفسها.

بعيداً وراء الجبال يلمع البرق. أصاخوا جميعاً السمع. لا شيء.

«هذا برق حراري»، قال الكولونيل.

كم يحدث هذا البرق في الليالي الحارة، عواصف بلا مطر. الكهرباء التي تشحن بها السماء تنفجر في ألعابٍ نارية صامتة. في وميض الضوء، فوجئت السيدة دو رواي بنظرة أخرى من النقيب. «أنسيتِ؟» نعم، نسيت. فإن كنت أتذكر أحداً فلن يكون أنت. فهل أنت من جاء؟ منذ بداية الزمن وأنا أنتظر الرب، ذلك الذي لم يفعل نيكولا سوى التنبؤ به. أنت لم تكن أنت سوى ملاك كبير يحمل سيفاً، لم تفعل شيئاً سوى الظهور، ولكن الآخر، متى يأتي؟ أنت خرجت من هاوية الحرب، في عز الصيف، عندما زمجرت عاصفة...

6

«كدنا نصل»، قال الكولونيل.

لم يصمت سوى منذ قليل، هو الآخر لفته سحر الليل مع وقع حوافر الجياد والصفير الخفيف للحوذي. بجبهته العالية التي تكاد تكون مقلوبة ويديه على مقبض السيف المعقوف، يبدو الكولونيل وكأنه يتحدى العتمة. فهو يأمل أن يصيب نجاحاً في هذه الحفلة.

أضواء متقاطعة. طبول عربية، مزامير. إنه لفنان، هذا البارون. خيالة من مخزنه[1] الخاص، حول مجمرةٍ تفرقع فيها الأجمات التي رميت فيها

(1) المخزن هو مصطلح مغربي ويعني النخبة الحاكمة في المغرب التي تمحورت حول الملك أو السلطان سابقاً. ويتألف المخزن من النظام الملكي والأعيان ورجال الأعمال وملاك الأراضي الأثرياء، وزعماء القبائل وكبار العسكريين، ومُدراء الأمن ورؤسائه، =

كاملةً، طريق طويلة مشعة، وخلف النخلات، جدران المزرعة بتحصيناتها القديمة. قبة إمبراطورية، خيم مفتوحة، الكثير من من السجاجيد والأرائك، جيش كامل من الخدم يحيط بسيده، الذي كان يتقدم من كلّ عربة برأسه الحليقة، وبمشلح فوق الكتفين.

قفز الكولونيل من العربة وساعد مارغريت والسيدة دو رواي على الترجّل.

«ماركيز، أقدم لك البارون دو تونِّر».

رأته السيدة دو رواي ينحني، لامس أصابعها بشفتيه، ونهض، وانحنى مرةً أخرى أمام مارغريت، ليس بسيء أبداً هذا الرجل، أبداً... فقد تخيلت شيخاً وغداً. شعر داكن مجعد قصير يحيط بجبهته، وذقن صغيرة، أنف مستقيم، عينان برّاقتان تحملان بعض الدهاء، عنق مشدودة بربطة عنق كبيرة من الحرير، صداريّ أحمر، حذاء طري، يمكن تشبيهه بماذا؟ بمستكشف؟ له نظرة رقيقة جداً. آل تونِّر، من هم هؤلاء إذن؟ الأولاد غير الشرعيين للأجداد الذين لا يقرنون هذا الاسم إلا باسم آخر لجعله أكثر تدميراً[1]. كان منهم عائلة قديمة في إيون[2]، التابعة لمقاطعة لوفيا[3].

– مع البارون، قال الكولونيل، سنجد أنفسنا جميعاً في الزمن الأول للحملة، في ملحمة...

– ليس أنا، لم أفعل شيئاً سوى وراثة أبي، والوراثة، أعترف، شيء

= وغيرهم من أعضاء المؤسسة التنفيذية. يحمل مصطلح المخزن اليوم دلالة سلبية تُعبر عن غياب الديموقراطية والحرية أو سادة الديكتاتورية، وحتى عن الفساد.

(1) أكثر تدميراً لان كلمة تونّر Tonnerre بالفرنسية تعني العاصفة.

(2) Yonne إقليم فرنسي اشتق من نهر اليون، يقع شرق فرنسا.

(3) Louvois مقاطعة فرنسية.

يصعب حمله أحياناً. كلّ شيء تغير. فهو يشبه الإقطاع، ظاهرياً فحسب، ما عاد لدينا خدم. شركاء نشعرهم أنه ما إن... أشعر أنني أحرس هبة ستنتقل بالوصية إلى أيدٍ أخرى.

– ليست أيدي العرب، على أية حال؟ سأل الكولونيل.

– هذا يتوقف عليكم، أيها السادة. عندما لا تكون لدينا أرض تربطنا...

– يمكننا أن نتعلق بهذه البلاد دون أن نملك فيها شيئاً، قال هكتور.

نظر إليه البارون برقة.

«هذه الجملة، استفزتك كثيراً، كولونيل. عندما أقول إن الأرض تربطني، فهذه طريقة في التعبير. بالنسبة إلي، إنها بالأحرى السماء. اعذرني، سألتحق بك».

تقدموا. هتف البارون. كانت كل غرف القصر مضاءة. قصر ريفي صغير له أعمدة وقناطر وقبب من الكلس الأبيض طليت بالأزرق، وتطلّ على الباحة حيث ترتفع، بالقرب من الناعورة والشجرة السامقة، فوانيس فينيسية معلقة على جذوعها. كل الجزائر وكل البليدة كانت حاضرة؛ نساء متبرجات، ضباط من أقسام الجيش كافة، نخبة المستوطنين، كبار الموظفين المتحلقين حول مجموعة صغيرة من قادة السكان الأصليين بالبرانس المتوهجة والأحزمة الحمر. يدخنون السيجار. خادمات عربيات يقدمن النبيذ وعصير البرتقال. في مكان أبعد بقليل، تمكن ملاحظة السقوف القوية لمزرعةٍ وسط مشتل البرتقال.

– هذا ما يعنيه أن تكون ساكناً جديداً، فأنا لا أعرف أحداً. ماذا عنك؟ سأل الكولونيل النقيب؟

– ولا أنا، ما عدا بعض الوجوه.

– الحفلة تنقصها ملكة. ماركيزة، لديك كل الحظوظ، لا نرى في المحيط سواك، هيا تقدمي وخذي مكانك. فالبارون عازب عنيد مثلي. عندما نلتقي نجمة مثلك... أضاف هامساً.

عاد السيد دو تونِّر. لاحظت السيدة دو رواي في نظرته نوعاً من السعادة التي لم تلحظها لحظة الاستقبال. كم عمره يا ترى؟ خطوط فضية تتجمع عند صدغيه. ثم إنه أطول قامة بكثير من النقيب، أكثر رشاقة، ونغمة صوته أكثر خفوتاً، على شيء من الحزن.

– لست عسكرياً بحق، الشائعة جعلتني ضابطا للسباهيين. فبسبب تنقله في السهل فوق الحصان مع الوحدات العسكرية، اكتسب أبي لقباً شرفياً. ثم نقلوا إلى جبهتي هذا الإكليل. رغم خشيتي من أن أخذلك لكنني أشعر بنفسي ديبلوماسياً أكثر منه عسكرياً. هنا يخلطون كل شيء ببعضه. هذه المزرعة، أتعرفين ماذا يسمونها؟ مزرعة الإمبراطور. لأنه، وبمناسبة زيارته للجزائر، جهزت لتكون في حال الطوارئ مسكناً لنابوليون الثالث، الذي لم يتوقف فيها أبداً. فهي متواضعة جداً أمام البيوت التي يمكن أن تسكني فيها، ماركيزة. الفضل الوحيد يعود إلى أبي. كان يتمتع بمزاج خاص. من كل ما تركه لي، أتعرفين أكثر ما تمسكت به؟ شجرة الميس التي زرعها بنفسه. شجرة من منطقتنا، غار[1]، والتي من أغصانها، وبسبب صلابة خشبها، تصنع المذرات، مقابض السياط، ويستعمل جذعها في صناعة محاور العربات. إنني أضجرك.

(1) Gard مقاطعة فرنسية.

– لا أبداً، قالت السيدة دو رواي. كانت لدي فكرة أخرى عنك.

– لأنك تتذكرين صور إبينال[1] عن الاحتلال. سوق بوفاريك، مثلاً. في المرة الأولى التي ظهر فيها أبي في بوفاريك مع السيد فيالار وآخرين، أدار لهم الناس ظهورهم، لم يستطيعوا أن يشتروا سوى كلبٍ، إلى أن بنوا فيها معسكراً على شكل صليب.

أشار إلى الخدم، واصطحب ضيوفه إلى الخيم، وأجلسهم على السجاجيد، حول نضد واطئة، توزع حولها القادة البلديون، وبدأت طبول عربية تقرع بصخب. وفجأة دوى طلق ناري، قريباً جداً، تبعته طلقات أخرى. انتفضت النساء، وزم الكولونيل فمه، وصفق المساعدون.

«لا شيء»، قال هكتور، «البارون أعطى شارة بدء المرح بلغة البارود. هنا، البندقية هي الفرح...».

في إفرحونن، كانت الانفجارات أكثر حدةً، ليس مجرد رصاصٍ كما هنا، انفجارات ترمي الرجال على الصخور، تهرق دمهم على مرأى النسور الشرسة، ويحترق مغلاق البندقية بين اليدين. هنا، ينهض القادة البلديون الذين يقدم لهم البارون الأسلحة، واحداً تلو الآخر، يقومون ببضع خطوات راقصة على وقع الطبول، يطلقون الرصاص على النجوم، أو على الأرض ثم يعودون إلى مجالسهم. حمل البارون واحدة للسيدة دو رواي.

«صديقي الباشا سي مصطفى، تمنى عليّ أن أجد له مكاناً بقربك. لا تسيئي الظن به. فإن قلت لك إنه صديقي، فهذا يعني أنه لا يملك ما اعتدنا أن نراه عادة لدى أخوته في الدين: الخضوع للعادات البربرية،

(1) Epinal مدينة فرنسية.

سترين...».

استعجل الكولونيل. برنس أحمر يخفي ياقة وسام الشرف، طلة نبيلة وذقن سوداء قصيرة.

ابتسم الباش آغا.

– قديماً، كانت الأعياد تدوم لأيام وليال.

– بلا توقف؟

– لا نعرف التوقف، تأخذنا الثمالة. الأغاني، الرقص، الأعيرة النارية. كل ذلك انتهى.

– لماذ؟ سأل الكولونيل.

– ما عاد يحق للعرب حمل السلاح.

7

دعا البارون الضباط لإطلاق النار. نهض الكولونيل بحيوية مرحة. «بندقية، أعترف... ما عدت معتاداً على البنادق. فلنجرّب».

اعتذر النقيب.

– ماذا سيحصل إن امتلك العرب السلاح؟ قال للباش آغا، ألن تتحول الجزائر كلها إلى منطقة قبائل؟

– هذا ما يعتقده الأميرال الحاكم، كما يبدو. ولذلك فهو يريد أن يحاكم كل القادة، ويعدمهم أو...

كيف يمكن إجراء حديث وسط إطلاق النار؟ ورائحة البارود هذه، على المرء أن يكون متوحشاً لكي يشمله ذلك. فانطلاقها يحدث صفيراً

أحياناً، عندما تكون طبنجة[1] قديمة محشوة حتى فوهتها. هذا الضجيج الأصّم.

«.. أو يرسلهم إلى كايين[2]».

عاد الكولونيل. حاول بعينين برّاقتين إقناع السيدة دو رواي بالمحاولة. رفضت في البداية، ولكن يبدو أنه لم يكن مضطراً إلى أن يضغط عليها كثيراً. يمكن ملاحظة أنها مذهولةً أمام اكتشافها ميول أخرى في داخلها، تراجعت قليلاً، محاولةً إخفاء الارتعاشات التي هزتها. فالرقص والموسيقى والشمبانيا تحرر الشياطين. جو السحرة هذا والضحكات التي تنفجر، تفلت الغرائز، الانفجارات التي تدنو أكثر فأكثر، قد ينتهي ذلك بشكل سيء، أنتم تلعبون مع الموت، إذن لهذه الأسباب يعشق العرب ذلك، فهو يشعل في النساء هياجاً مخيفاً. أشفق على نفسك يا عزيزي. عما تبحث أنت نفسك؟

استشارت السيدة دو رواي هكتور بنظرة. هز رأسه، لا، فردت بابتسامة خفيفة محايدة. وُضعت أمامها بندقية ونشستر، لماعة، مزدوجة الفوهة، رُصّع زنادها بالفضة.

«تعالي، سأرافقك».

نهضت بظلها الطويل الأسود، تتهادى خلفها المشاعل. كما في ليل باخ، أمام جثمان الجنرال، عندما لمس النقيب كتفها. أي امرأة تستطيع مقاومة ما يتملكها؟ فهن يخضعن للقوة التي تحرك العقارب عبر المحيطات أو الفيلة عبر أدغال أفريقيا، كن ليدسن عليك، ويخضعن للجيش الذي

(1) الطبنجة: بندقية عريضة الفوهة.

(2) Cayenne عاصمة غويانا الفرنسية، أحد أقاليم ما وراء البحار الفرنسية في أمريكا الجنوبية.

يكتسحهن، ويصبحن مسعورات، يقبلن الاجتياح، النار، الدمار، الاغتصاب.

رمى البارون برنساً على كتفيه ورافقها. وصلا إلى منصة يعزف عليها موسيقيون واقفون في نصف دائرة قبالة الضيوف.

«افعلي مثلي».

رفع البارون بندقية صيده فوق رأسها، وأطلق العنان للمعزوفة الحادة، المصحوبة بعذوبة غريبة مخملية لصوت بشري أجش بعض الشيء تثير حماسته ضربات الطبول. بجسدٍ مستقيم، ومشلح أشبه بجناح عملاق، يخبط أحياناً بحذائه، كحصان يضرب الأرض بحوافره، متحفزاً للوثوب، يدور على نفسه، يهز رأسه، متفرساً بالسيدة دو رواي. خضعت، رفعت ذراعها والبندقية، محاولةً وضع يدها الأخرى على الزناد، إنها المرة الأولى التي تحمل فيها سلاحاً، لم يكن ذلك صعباً، لا يتطلب سوى الاستسلام للإيقاع، مع تحريك بسيطة للكتفين، فكل شيء يتركز في الأقدام، في هذا الإيقاع البدائي العنيف للطبول والمزامير، لم تعد امرأة، بل ملاكاً. رأت النساء يرقصن شبه عراة هازات البطون والأرداف، يا لرعب تفلت الحيوان، يا لرعبه أو يا لتوحشه؟ أميرة بربرية محافظة، تكاد تكون متكبرة، تُخضع، في قمة كبريائها، الرجال بفوهة بندقية... دوت الطلقة الأولى للبارون من جانبها الأيسر باتجاه النجوم. قنزعة نارية عند انطلاق الصوت خطفت أنفاسها. لا شيء. ثبتت بندقيتها بشكل مائل، وضغطت على الزناد. بارون أنا السيدة دو رواي، لو رآني زوجي، فسيحسبني قد جننت، ولكن لا، فأنا أرقص رقصة الحرب في الليل مقابل رجل لا أعرفه، أعدو في قلب الظلمات، أصطاد، لماذا لم تصطحبني إلى توغورت، هناك حيث

تبدأ الرمال، وحيث كما يقال تهبّ ريح الصحراء التي لم تعو سوى في روحي، أشعر خلفي بالنظرات الخانقة، إنه خطؤك، لا تبدأ يا عزيزي، فأنا أتحداه ومارغريت لا تفقه شيئاً من ذلك كله. البليدة، عندما كنت أقول البليدة، أكان ذلك من قبيل اللهو في بازار تركي أو دعوة ما؟ من الجبل يمكننا أن نرى المصابيح الفينيسية، وربما قد نسمع صدى الطلقات وانتشار بنات آوى والصوت العميق.

دوّت الطلقتان تقريباً في الوقت نفسه. توقف البارون، انحنى، أخذ منها سلاحها واصطحبها وسط انبهارها الكامل، نهض الضباط.

– للحظة، اعتقدت أنك ستطلقين أيضاً الزغاريد، قال النقيب.

– أسبق وسمعت نساءنا عندما يتفاعلن في الأعياد، قال الباش آغا. لا تعدن قادرات على ضبط أنفسهن، ثم هذه الصرخة...

أجاب هكتور:

– لقد سمعتهن في إفرحونن، إبان الحرب.

8

كان الجميع بانتظار اللحم المشويّ، المغروز في الأوتاد، والذي سيوزع بين الزهور فوق مفرش مائدة عملاقة مدت في لحظات. من اللحم الطري للظهر، انتزع البارون قطعاً ما زالت تلتهب وقدمها للنساء. غمسوا أيديهم في أكتاف الحملان وأفخاذها، التهموا اللحم الطري الذي شوي لساعات على الجمر. أكل النقيب بلا شهية، أما الكولونيل فانغمس في الأمر؛ كانت تلك المرة الأولى بالنسبة إليه. العرب، القادة الكبار بينهم، بدوا في أحسن مزاج، متقنين فن اختيار أفضل قطع الشواء، وتقديمها بكل فخر

للنساء والضباط مبتلعين في لحظة قطعاً كبيرة من الفخذ أو من الأضلاع. توقفت النقاشات، وانشغل الجميع بالطعام. هنا أيضاً اصيبت السيدة دو رواي بالدهشة. لا، هذا في الحقيقة... ليس طبعها. ولا مارغريت أيضاً. أخذ الخدم يمرون بطاساتٍ وأباريق. يغسل المدعوون أيديهم، يجففونها ثم يعودون إلى مقاعدهم. إنه لإقطاعي هذا البارون.

- لا يبدو أنك استمتعت بذلك، قال لها الباش آغا.

- أين تعلمت لغتنا، لتتكلم بهذه الطلاقة. سألته السيدة دو رواي.

- في المدارس الفرنسية في الجزائر، وتخيلي، في باريس. إنها مزايا الولادة. تحت كل هذه الثياب، لدي قلب عربي، وتحت عمامتي عقل عربي. أنا من نفس عودهم، النقيب لم يكن مخطئاً. تعتبرونني مختلفاً لأني أتكلم الفرنسية بشيء من الأناقة. قدّموا لجميع السكان هنا، حتى الأكثر ضعةً بينهم، فرصة النهوض والتعلم والمعرفة وسوف تذهلكم النتائج.

الآن وقت الكسكوس، بالكاد مدّ هكتور يديه على الطبق. أخذ يراقب المدعوين يأكلون بشراهة. ثمة بين الموسيقيين، من يغني بصوت غريب؛ غناء لا جنس له تقريباً، شبيه قليلاً بصوت المؤذن. بين المقاطع، يلتقط أنفاسه، ويخفض رأسه، فتنطلق الطبول بإيقاع أعلى، تردد المزامير نغماتها، دائماً هي نفسها، حادة، لجوجة، فاتنة.

- أنت لا تأكل؟

- لقد تعشيت. تقاليدنا مختلفة. لم أكن مستعداً للمجيء، لكنّ البارون أصرّ.

- سأعترف لك، قالت: حتى الآن، العرب لم يشعروني سوى

بالخوف.

– لأنك لا تعرفينهم. فمنذ عشر سنوات ترك الجنرال دو رواي الجزائر. ربما يجهل المستوطنون السبب، أو ربما نسوا من كان، أما نحن فلا.

– ماذا يغني هذا الرجل؟ سأل الكولونيل.

– شموخ الخيول، جمال النساء، شجاعة الرجال، دائماً الأمر نفسه، فنحن بسطاء.

– ربما عن منطقة القبائل؟ قال هكتور.

– ليس بعد. الأساطير بحاجة إلى الوقت لكي تتشكل. بما أنك عائد من الجبال، أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟

– تفضل.

– هل تحدثت مع رجال القبائل؟

– لا، اللغة هناك...

– لغة المدافع؟ في هذه الحالة، عليكم أن تعتبرونني كلباً تعلمونني حسن التصرف، أو قرداً ترمون له الفستق. كان يمكن أن أولد كواحد من القبائل، إذن أين كنت سأكون؟ المقراني هو أيضاً كان صديقكم. لدينا الكثير من العيوب، ولكننا لا نحتمل المذلة. لكن الأمر نختلف حين تعاملوننا كمساوين لكم... هل هذا ممكن؟ الله وحده يقرر. إن كان هناك ما يمكن فعله، فعلى المنتصر أن يحاول. فالأمر لا يتوقف علينا.

– بلى قليلاً، قال الكولونيل، عندما يبدأ حرق المزارع في متيجة كما اليوم... لم أخبر الجنرال بذلك فهو عائد للتو مع زوجته من عزاء في

سيدي موسى. هنا أيضاً لم تتح لنا الفرصة بعد.

- إنه بالتأكيد مجرد حادثٍ، قال الباش آغا. لولا ذلك أكنا لنقيم سهرةً؟ في هذا الموسم مجرد إهمال صغير يسبب...

- لا أصدق أحداثاً كهذه، قال هكتور. أين هي المزرعة؟

- في بوفاريك.

- مزرعة من؟

- لا أعرف، قال الكولونيل.

- أنا أقول لكم، تدخل الباش آغا. إنها مزرعة سيدي عياد. مزرعة رجل مسنّ.

الفصل الثالث

حادث أم اعتداء؟ مارجول، والكلب وشجرة الحور، احترقوا. انتقاماً، يردّ المستوطنون بحرق دوار مجاور. مراسم دفن مهيبة للشيخ بويشو يتخلله خطاب لرئيس البلدية.

1

كانت النار قد أخمدت في السهول، وسط القش. عندما سطع نور النهار، رأى هكتور هيكل الشجرة بالقرب من البئر حيث كان الجنود يسحبون الماء ليخمدوا النيران. تفحّمت الشجرة. هيكل أسود تتصاعد منه تطاريز دخانية كبيوت العناكب، يحملها الهواء باتجاه الجبل. لحسن الحظ، لم يهب الهواء عند اشتعال الحريق، إذ التهمت النيران كل شيء، دفعةً واحدة، ولكن في خط مستقيم، وإلا...

ما بقي من الشيخ بويشو حمل إلى سقيفة في مزرعة مجاورة. وكأنه جذع شجرة أحرقته صاعقة. قربه عثر كلب عرف من فكه الضخم، دفن في حفرة في الحديقة على طرف حقل الفاصولياء الذي بالكاد وصلت إليه النيران.

«أتعرفون كيف حصل ذلك؟».

انقسمت الآراء. بيد أن المستوطنين اتهموا العرب. حضرت الشرطة واعتقلت الحارس. لو أنهم أعلنوا عن الحريق منذ الليل... ففي وضح النهار، مع العسكر في كل مكان. نعم ولكن أيّ عسكر! وحدات تعتقد

نفسها في فرنسا، ضباط لا يعرفون التمييز بين عربي وقبلي أو ميزاب[1]، أو كيف يبحثون عن الأدلة أو كيف يرفعون الحجارة ليروا ماذا يختبئ تحتها.

أي قصة هذه! في حقلة البارون، قفز النقيب من مكانه، وأراد الكولونيل دو سانتونغ أن يرافقه في عربته مع حرسه. بقيت السيدة دو رواي في الحفلة. في البداية صرخت مارغريت: «الأولاد!...» الأولاد، لقد تكفلت ماري ألدبرام بإحضارهم إلى بوفاريك في العربة مع بيار وكل العائلة، ليس هناك ما يستدعي القلق. ولكن حاول أن تقنع امرأة! ارتمت عليه صارخة. ثم الاتهامات: «إنها غلطتك!» كيف تكون غلطته؟

في بوفاريك، توجهت العربة إلى مزرعة برثيلو، حيث تجمعت العائلة. الأولاد كانوا هنا، بالطبع. كادت أن تخنقهم مارغريت بين أحضانها. هذا الفستان الأبيض، الباهر، بين كل هؤلاء الناس بالأسود! هناك علموا بموت الشيخ. الصراخ، الدموع، طوال اليوم. ذهب النقيب إلى ساحة الجريمة مع الكولونيل. قاما بجولة معاً، لم يتبق هناك أحد سوى الوحدة العسكرية والنقيب. أشرقت الشمس، ولن يطول الوقت قبل أن يكتمل النهار. قال هكتور: «أشكرك سيدي الكولونيل، أفضل البقاء لوحدي...». وعند مغادرته قال له هكتور: «مارغريت محقة، إنها غلطتي. هنا، في الأساس، عندما كنت أضرم النار في المشتى، كانوا يشاهدونني، وكان عليهم أن ينتقموا...».

من بين الركام المتفحم، عاد بيار بزوجين من الكراسي وأبواب خزانة الطعام النصف متفحمة. وضع جانباً طاستين، وطبقاً وأشواك وملاعق

(1) بني ميزاب هم مجموعة أمازيغية بشمال أفريقيا.

ملوثة، ومطحنة قهوة ما زالت سليمة. كان عليه أن يبحث عن مال الشيخ المخبأ في خزانة الغرفة المحطمة، تحت كومة من الياقات والأقمشة الممزقة. يبدو أن رئيس البلدية قال: «سنعيد إعمار المزرعة». عندما تحصل أشياء كهذه، يتشارك الجميع، فقد قدمت الثكنة من جهتها خدمات مهندسيها، لكن هل تملك الأم الجرأة للبدء من جديد؟ يجب إرسال برقية لأنطوان، الذي سيرى مزرعة جديدة بالكامل. في العمق، كان موت الشيخ رحمةً. من له جسد مثله، كان يمكن أن يعيش مائة عام. ولكن بالنسبة لأنطوان، هناك أيضاً أورتينس.

أشعل النقيب سيجاراً صغيراً، ونفخ الدخان على الركام.

ابتعد هكتور في الطريق المسورة بهياكل شجر الدلب. أشجار القصب شُويت وأمست رماحاً سوداء متكسرة. خلف الجدار المائل، قطع قرميد سقطت سليمة في الباحة، ما زالت قابلة للاستعمال، الهيكل الكبير لشجرة الحور الذي ضربته الشمس بدا حسكة سمك عملاقة غُرزت في التراب، بكل أشواكها ومخالبها الظاهرة. عاد هكتور أدراجه. هنا، ظهر للمرة الأولى مع الجنرال، خلف أول سرب خيالة من جيش أفريقيا. تذكر أشجار الدلب والبرتقال التي كانت ما تزال صغيرة جداً، ولم يكن هناك سوى شجرة الحور العملاقة التي تتراقص قمتها في الهواء فوق السطوح. الشيخ في القبعة اللباد أمام المنزل، الأم مع أنطوان والفتيات عند العتبة، خيمة منصوبة تحت شجرة الدردار، الطاولة مغطاة بمفرش. كان ذلك في الوقت نفسه تقريباً من العام، في يوليو، في بداية يوليو، ثم الغداء، ماذا أكلنا؟ ما يتذكره هو عتمة الإصطبل، وبعده، الرائحة السكرية للخروب المخلوطة بالزبل، عيني مارغريت التي كانت حتى ذلك الحين بلا اسم

بالنسبة إليه، فتاة من المستوطنات؛ سكر، كريما، ها يا أصدقائي!

اقترب من جذع شجرة الحور حيث خفت الهواء. جذع يكشف عن أثلام عامودية تنبثق من قشور طويلة. انتزع واحدة، حف لحاء الشجرة بقطعة من القرميد، ثقبها، ووصل حتى الشكير[1] الذي ما زال رياناً. قنزعة لفروع عنقودية، لم يبق شيء، ولكن الشجرة تحمي النسغ وتدفن الحياة تحت طبقة سميكة من اللحاء. جثة الشيخ تحمل إلى المقبرة في حين تزهر شجرة الحور من جديد. فخلال عام ربما، ستضيع بين الفصول، وبين هذه النار وجليد الشتاء القاسي، وتتغطى بالبراعم في الوقت الذي لا يتوقعه أحد.

عاد إلى الملازم أول، شاعراً بالراحة، بل بنوع من السعادة. هواء البحر ينثر الرماد من الجدران المتصدعة ثم يحمله إلى السهل.

نظر الملازم أول إلى ساعته ثانية متثائباً. تحت قبعته، من المفترض أنه يخبئ شعراً أشقر غثاً متموجاً.

في سقيفة مزرعة برثيلو، كان الشيخ ما يزال في النعش. وعلى الرغم من تغطية بقاياه، فهو ما زال يفرض حضوره. نعش جميل من خشب السنديان، مثل نعش أورتينس، لكن أكبر حجماً، نعش رجلٍ، قدمته البلدية للعائلة. جاء الكاهن لمباركة الجثمان وغادر. جمعوا الآلات والمحاريث والمذراة في زاوية السقيفة، وكنسوا تحت الألواح التي تحمل النعش. ووضعت أمامه طاولة، عليها شمعة مضاءة، وقدح مع زيت الزيتون.

جلست الأم ألدبرام على كرسي بالقرب منه، محنية الظهر وكأنها ستقع، ضئيلة جداً، متكورة، ذائبة، مكسورة. وضعت يداً على النعش، وحيدة

(1) الشكير هو الخشب الطري بين اللحاء والخشب الصلب في النبات أو الشجر.

دون بناتها اللواتي أصرت على إبعادهن. الأم المسكينة، كانت مثار شفقة. ما زالت متماسكة، متكئة على زوجها، ولكن يا لقسوة حافة هذا النعش! العينان شاخصتان نحو مقابض النعش أمامها والخشب اللامع. أرادوا أن يصطحبوها، رفضت، تعلقت بكرسيها. دون أي كلمة.

«أحضرنا لها القهوة»، قالت مارغريت.

بدلت مارغريت فستانها، فقد استعارت واحداً مرةً أخرى، أسود بالكامل، عاقدة شعرها إلى الوراء وعاقصة إياه عند الرقبة بشريط.

تقدم هكتور، تردد، وكأنه يصلي أو يخاطب نفسه. على خدي الأم بقع لم يرها من قبل ربما لأنه لا ينظر إليها، أو ربما لأن هذه البقع تنتظر الفرصة لتظهر من تلقاء ذاتها. بلا دموع، وجه مليء بالتجاعيد وبالخطوط حول العينين، مخالب عصافير، أخاديد في كل اتجاه، ثنايا، خطوط، حفر يفضحها انعكاس الضوء، خطان أفقيان كبيران متعرجان عند الجبهة، واثنان عاموديان عند زاوية كل عين، الخدان متشققان، متآكلان، بأثار حفر وانخسافات في الأسفل، الشفة العليا جافة بين فتحتي الأنف العميقتين، وزاويتان أخريان عند الفم...

انحنى.

«سيعود أنطوان»، قال لها.

رأى التماعة عينيها، ارتعاشة على وجهها المسحوق.

«ستأتون وتعيشون مع لاتيتيا عندنا في البليدة».

أحنت رأسها، ماذا تقصد؟ نعم؟ لا؟ رفعت يدها ثم تركتها ترتمي فوق النعش. تحركت شفتاها:

«منذ وقت»، قالت، «وهو يسمع رنين الأجراس».

كانت تكلم نفسها، لا يمكن لأحد أن يفهم. فمنذ أشهر، ما عاد مارجول يكترث بشيء. ترك أمور المزرعة تسير على هواها، وما عاد يطلب شيئاً من بيار. كان قد انتقل إلى الجهة الأخرى وما عادوا يعرفونه. لم يكن يشتاق سوى لأنطوان. وظلّ يذهب إلى شجرته الحور مع كلبته المتذمرة التي تفضل البقاء ممددة في البرودة تحت طاولة غرفة الطعام. الوحيد الذي ظلّ يتكلم معه، وبالعربية، هو محمد. هذا الانكسار حصل عند رحيل أنطوان، ولم يلحظ ذلك أحد سوى زوجته. صار يرتمي على السرير كجذع شجرة، وما عاد يردّ على أحد، يمضي الليل متنهداً، ينهض، يخرج، يعود مرتطماً بأثاث البيت.

الأجراس، بدأ يسمعها قبل وفاة أورتينس بأسبوع. وذات ليلة سأل عن هذه الأجراس، وبأي عيدٍ يتم الاحتفال. ماذا إذن؟ «ألا تسمعين؟». لا. «ألا تسمعين قرع الأجراس؟» حسب أن سمعها غدا خفيفاً. وقفت على العتبة وأصاخت السمع. لا شيء. تظاهرت بأنها سمعت وعادت. زواج أو مناولة أولى، لا أعرف. فاطمأن. كل تلك الأجراس كانت تطير في رأسه، ثم توقف ذلك. كان عليها أن تقلق. نادوه، مارجول، فرحل إلى الأعلى. هي لم تفهم.

أحسّ هكتور بأحدهم يجذبه من كمه. اصطحبه جان بيار باري إلى المنزل حيث كان في انتظاره جوزيف، الابن الأكبر لعائلة برتلو. كان ثمة رجال آخرون أيضاً، نحو عشرة، من المزرعة المجاورة ومزارع القرية، يتكلمون ويهزون رؤوسهم. كان جوزيف قائدهم. عند وصول هكتور، ساد الصمت. صافح هكتور الجميع. رأى الأسلحة في كل مكان: بنادق صيدٍ، وبندقية شاسبو على الطاولة. يبدو ان مزرعة بارثلو مزدهرة.

قروين قدامى ربما، ولكن من طبقة متقدمة، أكثر رخاء. لا يمكن عد المركبات والعربات، إنه لاصطبل واسع. في غرفة الطعام، مقاعد جميلة وثيرة، خزانة طعام على النسق المغربي، ثريا كبيرة تعمل بالزيت، وحتى إن هناك كنبة طويلة.

«قهوة؟».

قرّب هكتور الزبدية من شفاهه، ونفخ على السائل الساخن جداً، وشرب بحذر، ثم رفع قبعته ووضعها بجانب الشاسبو، مرّر يديه على ذقنه التي بدأت تزعجه. كان جان بيار قد وصل للتو من سيدي موسى.

«سيدي النقيب»، قال جوزيف، «نعتقد أنه يجب وقف كل ذلك حالاً. أنت تعرف لأن هذه المنطقة هادئة. أنت تأتي من منطقة القبائل، وتعرف كيف أخمدت التمرّد هناك. لو تركناهم على سجيتهم، فستكون هناك مزرعة أخرى غداً، ثم ثالثة، وبعدها سيقضي الجيش وقته يخمد الحرائق هنا وهناك، في أرجاء السهل. لقد نظمت كل شيء. بادئ ذي بدء، سنحرق بيوت سيدي عياد، على بعد كيلومترين من هنا».

كان الابن برتلو يتكلم بتشنّج. عظمتا عريضتان تبرزان من وجنتيه. الأذنان مسطحتان، شعر أشعث، جبهة ضيقة، عينان مشقوقتان طولياً بعض الشيء، غائرتان تحت حاجبين مقوّسين، أنف صغير مرفوع قليلاً، فم دقيق بشفة حليقة جيداً، عنق غليظة كالثور، مع ذقن طويلة مائلة. من أين تأتي عائلة برتلو، من كروز[1]، أي غزوة حملت هذا الرجل؟ لم يصل القوزاق إلى هنا. بعينيه الزرقاوين ووجهه الناعم، كان جان بيار باري

(1) Creuse مقاطعة في وسط فرنسا.

يبدو بربرياً من الشمال، مع هذه اللهجة المتمهلة في الكلام. بورغوندي[1] ممزوج بقوطي غربي[2].

«لن نمسّ المرابط، ولكنّ الآخرين...ربما لا يكونون مشاركين في المسألة؟ ولكن لا بأس... سيدفعون ثمن المزرعة والقتل، سنرى. إن لم يعاودوا التحرك، فلن نتحرك. وإن استمروا نستمر».

مجلس حربي. عيون مسدلة. رجال لا يتعدى أكبرهم الأربعين، ينتعلون أحذية نصفية، بناطيل وسترات كتانية واسعة الجيوب، زنّرت خصورهم النحيلة بأطواق من الخرطوش. أقفلوا المصاريع واتكأ أحد المستوطنين على الباب. بندقية الشاسبو تخصّ جوزيف. صمت. كانوا ينتظرون قرار هكتور. أبعد زبديته، وبتمهل:

– أتطلبون رأيي كضابط أم كفرد من العائلة؟

– الاثنان.

– كضابط، أقول لكم إن هذا لا يخصكم، وإنكم معنيون فقط بحماية ممتلكاتكم.

– السهل هو ممتلكاتنا.

– ثمة في بوفاريك قائد عسكري وسلطات عسكرية. إن لم يطلبوا مشاركتكم، فلا يمكنكم التدخل، هذا رأيي. أما كصهر، فلست متأكداً من أن ما جرى اعتداء.

---

(1) Burgonde شعوب فرنسية من أصل ألماني.

(2) القوط الغربيون (Visigoth) شعوب ألمانية من أصل سويدي، لعبت دوراً كبيراً في محاربة الإمبراطورية الرومانية إلى جانب العديد من القبائل الجرمانية الأخرى، ويعد القوط الغربيون الشعب البربري الأكثر عراقةً في أوروبا بسبب تاريخهم الطويل وأصولهم الأسطورية.

أخذ الابن برتلو يتفرّس بالنقيب.

– ما هو إذن؟

– حادث ربما. أعرف جيداً حماي. دائماً يحاول إشعال غليونه. ذات مرة أحرق فتيل الصوفان سرواله. هو لا ينام في الليل، وإنما بعد الظهر... ربما يكون قد أشعل النار سهواً، واختنق دون أن يدري.

– وهل أن الكلب بجانبه لم يتمكن من تحذيره؟

– الكلب يبقى في غرفة الطعام، وباب الغرفة يكون موصداً. هو أيضاً بات مسناً وما عاد يمشي سوى زحفاً. إن أحرقتم سيدي عياد، فسيحرق آخرون مزارعكم لاحقاً. لديهم الوقت وسينتظرون. إذا كانت الحرب ما تريدون، فلا تتذمروا. أنا أعرف ماهيتها. ولا أنصحكم بها.

– لقد ظننا العكس...

– لقد انتهيت للتو من حرق الجبل أنا أيضاً. ومع ابن بويشو تحديداً. فلذلك ربما يبدأون بإحراق السهل. أحرقوا إن شئتم دور العرب فلن أمنعكم. ربما كنتم على صواب وربما على خطأ. المسألة برمتها تتوقف على طريقة الحياة التي ترغبون في عيشها هنا.

– وإن ظنوا أننا ضعفاء...

– أنا أقول لكم: اهتموا بشؤونكم الخاصة. وبالنسبة إلى ما تبقى، هناك الشرطة، وبعد الشرطة الجيش. وظيفتي هي هذه بالضبط: القتل والحرق، عندما أتلقى أمراً بالدفاع عنكم. وظيفتكم هي أن تزرعوا الكروم وتحصدوا القمح. سأترككم. اتركوا لي وظيفتي أو تدبروا أموركم. سنرحب بكم.

– المشكلة أنكم تصلون دوماً متأخرين، بئس الأمر. في باليسترو، في تيزي أوزو، في ربيفال[1] مثلاً، بعد أن ذبح المستوطنون، بدأتم بالقمع. نحن نفضل استباق الأمور، لكي تنبت أشجارنا. أرأيت أشجار حماك؟

– رأيتها.

– وهو، إلى جانبها؟

وضع هكتور يديه في جيبي قميصه. كان قلبه يخفق. بعد قليل قد يشتمه هذا الرجل الذي لم تنبت له ذقن بعد.

«اسمعوا. لقد رأيت الكثير من الموتى. منطقة القبائل ملأى بهم. كنا نرميهم في الحفر، بعد أن فاحت روائحم. وما عاد هناك الكثير من الشجر. لقد قطعناها كلها. التين، الدردار، الزيتون، الجوز وحتى الكرز، لقد أصبحت أرضاً سوداء. انتقمنا لمستوطنيكم في باليسترو. أهذا ما تريدونه؟ فإن كان حماي قد مات قتلاً، سننتقم له أيضاً. حتى اللحظة لا تعرفون ما الذي حصل. لقد طلبتم رأيي، أخبرتكم به. فوق ذلك، لم أغمض عيني طوال الليل. أريد أن أنام. سادتي، أحييكم».

اعتمر قبعته بهدوء وغادر.

3

لا موسيقى عسكرية، وإنما جوقة موسيقية. جوقة البلدية بقبعات بيض كقبعة ناظر المحطة، يقرقعون لحناً لم يكن من السهل التعرف عليه سوى في النهاية، إنها الموسيقى الجنائزية لشوبان. في كل فرنسا يعزفونها في المآتم

(1) Rebeval وهو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على منطقة سي مصطفى الجزائرية.

ترا... لا...لا لا... مثل لحن الأعراس لمندلسن، والذي عزف في زفافي، وفي المكان نفسه، بالأرغن. لم يكن هناك الكثير من الموسيقيين، أربعة دفوف وطبل مع الصنوج، أربعة أبواق، آلتا سكهورن، توبا [1]، مزماران، ولكن يا لها من ضوضاء! انتظر قائد الفرقة الموسيقية خروج النعش من الكنيسة ونقله إلى عربة الموتى، أحد الحمّالين كان من الهواة ترنح فوق الدرج وكاد يسقط، وقد عانى الآخرون لكي يتمكنوا من الإمساك بالشيخ، كبت الجميع صرخة فزعٍ. والآن الموكب في الساحة، والكهنة في الطليعة، أربعة كهنة، كل كهنة المنطقة، ثلاثة يرتدون غفارة الكاهن، ورابع بدرع الكاهن يقود عشرة أولادٍ في الكورس خلف مساعد الكاهن الذي يحمل الصليب، الموسيقى تنشز تماماً أمام راية لواء الإطفائية محاطاً بفرقة من القبعات النحاسية، وفجأة، وبعد غناء المقطع الأول من «ارحمني يا الله»، انفجر ذلك النعيب الكئيب، المنطلق من المدفعية.

وخلف مجموعة المنتحبات بالأوشحة السود، كانت الأم المتكئة على بناتها وعلى دولوريس، هكتور بكامل بزته العسكرية وأوشحتها، والسيف على جنبه، والشارة عند القلب، والبنطال الأحمر، بين رجال العائلة، بيار وفرنسوا الذي أتى أخيراً من سوما، جان بيار باري، جميعهم بالسترات الضيقة، الشرطي إذار وعميده، يتبعهم مستوطنون يمشون متهادين بوجوههم القاسية المتوعدة، كانوا محتارين بإيقاع خطواتهم، وما إذا كان عليهم اتباع إيقاع الموسيقى؟ بعدها تأتي مظلة القربان المقدس التي يحملها الابن البكر لبرتلو، رئيس البلدية بوشاحه، المعاونون، ومستشاران بلديان كل منهما بسترة رمادية وعمامة صفراء وسروال، واللذان لم يعرفان

(1) سكهورن وتوبا هما آلتان موسيقيتان بوقيتان.

كيف يتواريان عن الأنظار. كان حاضراً أيضاً، كرمى لهكتور، وفد من ضباط الحامية.

خرج الناس من الحانات وانضموا إلى الحشد، تكدسوا في موكب هائل قطع ببطء نصف المدينة مشياً على الأقدام؛ حشد بديع حزين.

أما السيدة دو رواي التي أحاطها من الجانبين الكولونيل والبارون، فقد سرت الأسئلة حولها. في البداية، لم يعرفوا أين يضعونها، ثم بغية تكريمها، وضعت تماماً خلف النساء وأمام الرجال. لقد تعرفت في النهاية على بوفاريك، ها هي بوفاريك، ليست سوى هذا: طرقات مزروعة بأشجار الدلب، ومقاه، صيدليات، بقالات تقفل مصاريعها، شمس يمكنها أن تطرحك أرضاً، نواعير، وجوه يمكن تخيلها تراقب خلف الشبابيك.

مشى هكتور جليلاً، صلباً، مذهولاً، متنقلاً بنظره بين القامة الأرستقراطية للسيدة دو رواي وعربة الموتى التي يجرها حصانين أبيضين مع سرج جديد وشرابات فوق الأطواق وعلى الأرداف. في النهاية، ليست سوى مسألة عادات، أليس كذلك؟ قال لنفسه إنه سيشارك ربما بمآتم يومية. «هذه المآتم التي تجمعنا، عزيزتي سابين...» مع أنه تهرب من المشاركة في مأتم الجنرال. احتراماً له، لأن سابين كانت لترى أن من الطبيعي أن يشارك. الجنرال، في الوقت الذي كان عليهم أن يحملوه إلى مثواه الأخير، كان مرافقه القديم... هل سيضحك هازئاً هذا الشيخ المهرج، لو رأى المدينة كلها تنكشف أمامه؟ أكان يحلم يوماً باحتفالٍ جميلٍ كهذا؟ ولو عرفوا بمَ كان يلهو، عندما كان يدّعي التصوير، أكان سيمرح مع من يصور هنا، ويتغلغل تحت غطاء كاميرته لكي يثبت الصورة على الحشد في ساحة مزغران؟

لو استمر ذلك، سيتساءل الأولاد إن كان هناك موسم للجنائز. كان يمكن تركهم عند عائلة برتلو ولكنّ نوعاً من الهلع استبدّ بالنساء. ما عدن يردن الابتعاد عن أولادهن. إذن كان الأطفال هنا. ابنة السيدة دو رواي بالمعمودية بدأت تطرح الأسئلة المزعجة أكثر وأكثر، هذا النوم الطويل الذي يتحدثون عنه، لماذا يحيطونه بهذه الاحتفالية المروعة إلى هذا الحدّ؟ وجو الحزن هذا لأن المزرعة احترقت؟ ألكسندر، على العكس، لم يطرح أي سؤال. ما عاد يترك أباه، مشى بالقرب منه، مرفوع الرأس. بما يفكر هذا الولد الغريب الأطوار أساساً. غليظ صغير يعامل العرب على طريقة العسكريين.

نام هكتورجيداً هكتور. ومرّ على الصيدلية لفحص جرحه، لقد شفي. ضمادة شكلية فقط. سكب كل رقته في البرقية وأرسلها لأنطوان. اصطحبه الكولونيل في العربة، الطقس حارٌ ولكن يمكن الشعور بهبوب هواء البحر الذي كان يرتطم بالمنازل. سيجار. لو تمكن من إشعال سيجار لاكتمل المشهد. كان مضحكاً متابعة الموكب الجنائزي لرب العائلة سيراً خلف بناته، بدت مارغريت ذات قامة جميلة، أما السيدة دو رواي، بين فارسيها، فكانت ترفع من وقت لآخر المنديل إلى فمها. ألتؤكد تأثرها بالحدث أم تفادياً للروائح؟ ليست رائحة لشيخ، فلا رائحة له، بل الرجال المتعرقين تحت ثيابهم السود، كما أن طرقات بوفاريك لم تكن نظيفة، إنه الموسم الذي تملأ فيه عربات الحبوب الطرقات، قافلة كاملة من العربات عند بولفار سان لويس أنهى سائسوها للتو وجباتهم السريعة واحتشد حولهم الذباب. وإذ بالنساء يتفرقن أمام كومة طازجة من الروث، مذهبة لمّاعة إلى درجة أن أحد جياد عربة حمل الموتى كاد أن يلحسها. أمسك البارون

بحماسة ذراع السيدة دو رواي كي يمنعها من الدوس في الروث، كان في كامل يقظته؛ أما الكولونيل بجبهته المنتصبة فلم يرَ شيئاً، وعندما ضربت الشمس رأسه، لأن كل الرجال كانوا حاسري الرؤوس ما عدا الموسيقيين ورجال الإطفاء وقسم المدفعية ورجال الدين، بدت جبهته الحليقة جميلة، مقارنة مع الشعر الكثيف المجعد للبارون، مثل شاعر حقيقي.

عند باب شبلي، خفف الموكب الجنائزي سيره واحتشد على بعضه، فالمقبرة باتت على بعد كيلومترٍ واحد، بعد السير طويلاً في الشمس، دون أي فيء. في مناسبات العزاء العادية، يصعد الكاهن مع الماء المقدس في واحدة من العربات التي تتبع عربة الموتى، أما الآن، لا. إنها تظاهرة حاشدة مع الموسيقى والرايات. ترا... لا... لا–لا... فحتى الجوقة الموسيقية لم تكن قادرة على التوقف في الوقت نفسه، نشاز مرعب من آلة التوبا البوقية. استدار رئيس الفرقة الموسيقية بنظرة غاضبة، وسادت لحظة إرباك.

منذ أن صمتت الموسيقى، بدا نشيد الآلام ميزارير متقطعاً حزيناً بائساً.

رفضت الأم ركوب العربة التي قدمت لها ومشت حتى النهاية بين مارغريت وماري اللتين أسندتاها، فقط قدماها كانتا تلمسان الأرض؟ أشبه بفزاعة الحقول، قصيرة جداً، وقد تقلصت على نحو مفاجئ، مثيرة للشفقة تحت وشاحها الطويل الرقيق، في حين حمل الأب باري والفتيات الصغيرات في عربةٍ بمنصة مسورة. انحنى الكولونيل والبارون على السيدة دو رواي. بدت مترددة للحظة تحت قبعتها، ثم تنازلت وصعدت في حنطور. قفز البارون بكياسة وجلس بينها وبين السائق. وعاد الكولونيل

إلى صف الرجال.

ليبيرا مي سانغينيبوس: أرسِل لي رجالاً من الدم. وأخيراً، لم تحصل حملة ضد الدوار، لأن الرجال وجدوا المال في أنقاض الخزانة. أعجوبة. فالأوراق النقدية المرصوصة في الخزانة لم يطاولها اللهب. كان الذهب موجوداً أيضاً. يمكن لأنطوان أن يعيد بناء المزرعة، وربما أجمل من قبل.

انطلق الموكب من جديد. خرج شيئاً فشيئاً إلى الطريق، حيث كانت الحفر تهزهز شراشيب عربة الموتى. تلفّع الرجال، فالشمس ضاربة ولا يمكن المجازفة بضربة شمسٍ. كانت بالكاد العاشرة صباحاً. بين الأجمات وعلى أشجار السنديان التي تتوزع أطراف الطريق بشكل متباعد، وكصوت غليان السهل في الزيت الحامي، كانت الزيزان تصفر، تئز فوق القش وسهول التبغ ذي الوريقات الطويلة الداكنة.

ليس هناك أيّ عربي. الأفواج العسكرية تحتل السهل. لماذا لم يصطحب البارون معه صديقه الباش آغا؟ وصل الموكب. توقفت عربة نقل الموتى، ووقف رجال الدين قبالتها. أنزلوا النعش، ودخلوا إلى المقبرة، لمح هكتور نظرة تطفلية من الكولونيل باتجاه مارغريت.

أجلس هكتور ابنه إلى يساره، كي يحجب عنه مشهد الجياد التي حققت انتصاباً مفاجئاً. آه! السافلة، ماذا دهاها؟ البارون الذي وصلت عربته للتو، وقف أيضاً لكي يحجب المشهد عن السيدة دو رواي. ولكن متأخراً جداً. رأتها، فامتقع وجهها. لم يكن يجدر بأي حال سرج جياد غير مخصية بعربات الموتى. لكز الكولونيل هكتور بطرف كوعه. ربما بسبب ذلك كانت لها ردات فعل غريبة، وبدت منزعجة تفكر وقد أثارتها الروائح، وبكل إخلاصٍ ومن دون مكابرة ولا صهيل كانت تتقدم، باتجاه ماذا؟

لم يكن هناك فرس في المحيط، وإن وجد فبعيداً جداً في سرايا القناصة، فهل هكذا تكون ردات فعل الجياد، عن مسافات كهذه! ثم يتبدد ذلك كما حصل، هكذا بهذه الطريقة الحزينة. رغبة فردية، حزينة، تبدو وكأنها تأخذها إلى الأحشاء، ثم تهجرها. أم لعلها طريقتها في تكريم الشيخ الوغد المحمول إلى التراب؟

جلس السائس على مقعده بأعصاب هادئة، معتمراً قبعة ثنائية الكوز. يبدو أنه شرب الليلة الماضية أو قدم الكثير من الشوفان لجياده، أو لأنه يعرف جياده جيداً ويعرف عاداتها. الحرارة؟ الناس؟ كان بإمكانه على الأقل أن يباعد ما بين جياده المقرونة... فهو لم يشاهد حتى ما الذي حصل.

«إلى الحشود التي هرعت من كل مكان لتكرم السيد بويشو...».

كان رئيس البلدية يقرأ كلمته بصوت حاد متشنّج.

«... ليس من الضروري أن نسألهم عن دوافعهم. بوفاريك، أرض الأبطال هذه...».

تحت الوشاح، وجه الأم الضائع. هاتان العينان اللتان لن تقبلا بعد اليوم، هذا الفم الذي شربه فم مارجول. بناتي، سيأتيكنّ الدور. من يدري إن كان الشيخ في صندوقه يتذكر حيويته المفقودة؟ هذه المقبرة لن يكون فيها وحده. سيحشر مع معابد صغيرة، ومقابر من الرخام، وصلبان جميلة قوية. لقد جعلوا الحفرة في حيّ الفقراء.

«... أقولها بجدية أمام السلطات العسكرية والدينية، وأخوتنا المسلمين الذي يشكل حضورهم دعماً لنا...».

ارتعش صوت رئيس البلدية، إذ شعر بأنه المدافع عن مواطنيه، وعلى رأسه الأصلع كان العرق يلمع. وشاح من الضباب يغطي أعالي بلدة

الشريعة، التي تعلو البليدة. «ستهب ريح شرقية هذا المساء»، فكر هكتور.

صمت رئيس البلدية، بدأ الكاهن يردد آخر الصلوات وهو يرش المياه المقدسة. بدا شدو الزيزان وكأنه انطلق الآن فحسب من الأشجار المغبرة عند السياج، وانتشرت خفيفة جداً رائحة السرو، رائحة دافئة، مسكرة سكرية العبق. كان المشاركون يتألمون من الأحذية العالية الضيقة، وأخذوا يفكون ياقتهم. لو قتل النقيب غريبه، في الحصن الوطني، فلن تكون هناك أطواق الزهور الموجودة هنا اليوم، بل ببساطة بعض وريقات شجر، وشارات ثلاثية الألوان. ما كانوا انتظروا في الصف ليهيلوا حفنة تراب على النعش. وكانت مارغريت ستصل متأخرة، لن يكون من الضروري أن يغمى عليها لحظة معرفتها بالخبر، مثل هذه المرأة العجوز التي على اسم نجمةٍ والتي تجرها بناتها. عند مدخل المقبرة، وقف أفراد العائلة في صف لتلقي التعازي، وتعجل آل باري في مصافحة آل بويشو، وخرجوا يفتشون عن عربتهم. سيعودون من جهة الشريعة. فسيدي موسى ليست بعيدة من هناك. شدت السيدة دو رواي مارغريت إلى قلبها ثم تركت البارون يقودها.

نزع الكولونيل قبعته.

«قل لي عزيزي، أتعرفها جيداً؟».

أدار هكتور قليلاً رأسه:

«لقد عرفت على الأكثر زوجها»

لا اعترافات متهورة. خاصة لكولونيل لا يعلم جيداً بالعادات هنا.

«كيف كان؟ قصيراً؟».

– نعم، نعم، لكن...

– أفهم...

هذه المرأة المحتشمة التي كانت تتحصن قديماً في غرفها، هرباً من الشمس والبحر، وبفعل الضجر، من كان ليعرفها؟ كيف كان لهكتور أن يعتقد ولو للحظة أنها جاءت إلى البليدة لكي تراه؟ بالنسبة إليها، لقد بدأت الآن حياتها.

اختفت عربات الموتى والموسيقى. قطار يقترب نافثاً الدخان، سيقطع الطريق على بعد كيلومتر من هنا، لجهة الشرق، كي يصل إلى محطة بوفاريك.

«النساء، يا عزيزي»، قال الكولونيل، «تهزهم المآتم كالجياد. أما أنا فتشعرني بالجوع».

صعد الكهنة في العربات. تشتت الحضور بسرعة.

«ستهب ريح شرقية هذا المساء، سيدي الكولونيل».

بما تنفع عيون النساء وجمالهن؟ كل شيء سيتآكل. ما لم يندثر، أو أنه تلزمه عصور وعصور، هي الجبال، الصخور، الطيور الجارحة التي تدور فوق القمم والبحر مستعدة للانقضاض. أين كان الوطن؟ هل تمكن الملازم أول قُصَيري من التفاهم مع كريجه؟

نهض هكتور، القى التحية، نظر إلى الكولونيل يبتعد، سارقاً السيدة دو رواي من البارون.

الأم، وقد سحقها الألم والشمس، خرجت مستندة إلى بناتها. أرادت العودة إلى المزرعة. نسيت أنه لم يبق منها إلا الركام.

الجزء الثالث

القلعة

لقد قتلت، أيها النقيب، القرويين المرعوبين،
تركت بنات الرجال الموثقين بالأشجار يغتصبن،
والآن، أرى أن كل ذلك حصل في صميم قلبي،
وأن كل شيء يحترق ويختنق، ولا يمكنني أن أترك المكان
قبل أن يبدأ كل ذلك من جديد بالطريقة نفسها.
ربي ارحمني، أنا الذي لم أرحم أحداً!

فرناندو بيسيوا، نشيد حربي

ترجمة أرمون غيبار

الفصل الأول

تحت شتاء جليدي يضرب منطقة القبائل، طابور في الطريق إلى قلعة بني عباس. نشيد الألم على فم امرأة عجوز من القبائل.

1

«لن تثلج على الأقل...»، فكر النقيب.

في زخة المطر المائل، ظن النقيب أنه رأى للحظات ندف ثلج وصحائف ثلج ذائب، وبرد. هذا البرد وكأنهم في عز الشتاء، في حين

أنهم في أغسطس. هذا ما يجري، على ارتفاع ألف ومئتي متر. المطر الذي يصل حتى الأحذية متسللاً من الكواحل إلى السيقان. لن يطول ذلك كثيراً. فحتى يوم أمس، وخلال النهار، كانوا يختنقون من الحرّ، ثم تبدل الطقس فجأة. كتل من الغيوم أغرقت القمم. بالقرب من أكواخ سوق الخميس[1]، حيث خيموا، بدأ المطر بالهطول. تزحلقوا على قشور الصخر المتبلر وعلى الصلصال المشبع ماء. تخبطوا في الوحل.

استدار النقيب:

«هل تسمعني، كريجه؟».

وقف كريجه إلى يمينه. رمى على كتفيه معطفاً من الزواوين بقبعة غطت عينيه. كانوا عاجزين عن التقدم اثنين اثنين. مشى حاني الرأس، محاذراً الترنح، غائصاً في الوحل، مبللاً، مسحوقاً، مستنزفاً.

مروا بعربة منغرزة في الوحل. أيّ فكرة المغامرة بالعربات، حتى الخفيفة منها، في هذه الجبال! وذلك فقط ليأكدوا للقبائل أنهم هزموهم، وأنهم يمتلكونهم؟

– هل عانيتم من الحر في متيجة، سيدي النقيب؟

– من الريح الشرقية.

الكلمة التي أفلتت منه طعنته. هل استسلمت السيدة دو رواي؟ في أحضان من؟ الكولونيل؟ البارون؟ فاجأه ألمه، أوهنه. فطعنة خنجرٍ تقتل! لكن علام المبالغة. بالكاد ضربة خفيفة. وخزة اعتزاز صغيرة. هذه العاهرة، يا عزيزي هي امرأة من العالم لا تعرفها. فأنت لم تعاشر حتى الآن إلا الفاضلات الطاهرات. ستتعلم.

(1) سوق الخميس هي مدينة صغيرة تقع في بلدية البويرة الجزائرية.

غيوم تسبح بين الجروف الصخرية، تتزلج على السفوح، تتكدس في الشعاب، ثم تصعد مرة أخرى في ضباب مزبدٍ وتضيع. على جانبي الطريق، منحدرات شاهقة، هاويات لا يمكن تبين عمقها، تملؤها أشجار الصنوبر الأسود الغارقة في الضباب. لم يكن ممكناً استخدام الجياد، حتى لو مشت الهوينى. الجياد تزلّ. يمسكها الجنود المرافقين بالمكابح ويهدئونها ببعض الكلمات. في بعض الأحيان، تتجمد واقفةً. حينئذ يجب تدليلها. ترتعش، تطلق صرخات رعب سريعة، وتكون أحياناً جاهزة لتعود على أعقابها وتهرب في الاتجاه المعاكس. زحط أحد الجياد، وسقط واختفى، ابتلعه الفراغ.

«وهذه الريح، أتسمع زفيفها؟»، تابع كريجه.

لم يكن مسموعاً جيداً مع ضوضاء المسير، والتهليل وهدير النعال. أحياناً تنقض الريح صفعاً فيضطرون إلى الاحتماء جانباً حتى لا تتسلل إلى معاطفهم. لو نتوقف للحظة، إذ يبدو أن الريح سيطرت على المرتفعات، تزأر، تصفر، ترنّ كالنواقيس. عاصفة في بحر. أحياناً تنتصب الأشجار المحطمة، كساريات مع أشرعتها وعوارضها وركاب أسرجتها، تنتصب ثانيةً مبرزة كل مخالبها، شاهدة على غضب السماء الكبير. عاصفة، ما كان ينقص إلا هذا لكي تجفل البغال. إعصار كهذا في منتصف أغسطس؟

وإذ بالطريق الضيقة تنعطف فجأةً بعد سور صخري، لتمضي في الاتجاه المعاكس، وكأنهم يعودون أدراجهم، منعطف آخر، ثم يكملون الطريق. فهم يتقدمون باتجاه الشمال، مبدئياً، بطريقة ملتوية، على امتداد قمة جبل ليسوا أكيدين منها، بين وهادٍ عامودية ومنحدرات أخرى تظهر قممها بين النتوءات ثم تختفي سريعاً. هذه الطريق الضيقة تؤدي إلى كتف

الهرم المبتور الذي كانت تقوم عليه القرية. على الأقل، يعرفون ذلك من روايات الضباط الذين زاروها والخرائط السيئة التي حملوها في ذلك الزمن الذي كان يعتقد فيه آل المقراني أن أحداً لن يتجرأ على تهجيرهم.

قيل إن القبائل سوف ترسل أسرى وتفتح قلعتها: القلعة المحصنة التي لا يمكن انتهاكها، قلعة بني عباس، حيث تحاك كل المؤامرات، وحيث ينام المتمردون وترفع المآذن على امتداد الساعة الصلوات محرضة الناس ضد الخونة، إنها حصن للإيمان، عش النسور، عرين الذئاب الذي لم تتجرأ يوماً أي جيوش غريبة على المجازفة باقتحامه بأسلحتها وعتادها. فجثمان المقراني مدفون هنا، هذا الذي سيدوسونه ويدمرون منطقة نفوذه وستسحق الثورة تحت الركام، ستسحق إلى الأبد. ستباد في النار والدموع، ولن يبقى منها سوى هيكل عظمي مثل أشجار صنوبر ضربتها صاعقة. ويمكن حينئذ الحديث أخيراً عن السلام. ستعلم به كل الجزائر والدوارات والأسواق. وسيجد الشعراء الهزيلون الذين يتصيدون المناسبات، ما يجعلهم يبكون قلب القبائل الذي سيعيش جرحه لقرون.

2

اتخذ قرار الهروب عند المساء، بعد دفن الشيخ. رفضت الأم مغادرة المزرعة، جمعت بعض البقايا بصمت، لم يسمعوها، ولكنهم رأوها تنادي مارجول، محركةً شفتيها. أكانت تصلي؟ كانت تحاول نقل الحجارة، معتقدةً أن زوجها مدفون تحت الركام. اصطحبها أولادها إلى دار برتلو.

لم يحتمل هكتور البقاء، مع فكرة أن أحداً آخر سيقود بدلاً عنه كتيبته، وأن كريجه، أو قُصَيري، أو سوفماني، أو ألِّر سيركبون حصانه، وأن

دلفيني وزيل سيخضعان لضابط آخر ويستغنيان عنه. لقد نسيهن بسرعة، فهل هن موجودات بالنسبة إليه، النساء؟ يتوافر منهن بقدر ما يرغب، يكفي أن يكرس لهن وقته، وأن يردد لهن التفاهات، إذ أنهن قادرات على تصديق كل شيء، يحمن حول اللهب ويحرقن أنفسهن. أما الكتيبة فلا يمكن تسليمها لأي كان. فما إن تضيع لا يعود بالإمكان استرجاعها. وحتى لو انتهت الحرب، فالمغامرة ستستمر بالنسبة إليه.

عاد إلى البليدة، جهز بزته الجميلة، وحشر بعض الحاجيات في صرته، نام قليلاً، وعند الفجر، ذهب إلى الثكنة ليحضر حصاناً. ثم مضى وحيداً في الطريق إلى القبائل. سار بصمت تام، دون مرافقة. وعند المساء، وصل إلى تيزي أوزو. من قال إن الأمور استقرت؟ قوافل التجهيزات والأفواج العسكرية لم تتوقف عن الحركة. عند ظهر اليوم التالي، وفي الحصن الوطني، علم أن كتيبته تشارك في عملية على بني عباس. كاد أن يضيع الفرصة. انطلق كالإعصار للحاق بالرتل الذي كان يتقدم عبر «فج تيرووردا»[1] باتجاه وادي السهل والتقى دوبوي. ترجلا عن جواديهما، وارتميا في احضان واحدهما الآخر. اللقاء الكبير، السعادة الخانقة. هل سيجرؤان على الكلام عن النساء بعدها؟ أنطوان لم يغادر إلا البارحة. كان من المفترض أن يلتقيه هكتور. لكن البرقية التي استدعاه فيها تأخرت في الوصول.

لم يرغب دوبوي بتركه، فرافقه إلى الكولونيل، حيث أعادوا له القيادة التي سلمت في غيابه لضابط من القيادة العامة. استعاد دأبه، وأعاد تنظيم كل شيء، مسجلاً ما تغير، بعض الإهمال، الضابط الوكيل كان رجلاً

(1) فج تيرووردا هي قرية تابعة لبلدية إيفرحونن.

رخواً تنقصه السطوة.

«ماذا يقولون هناك؟»، سأله كريجه.

ماذا يعني هناك؟ في السهل، في الجزائر. اللازمة نفسها عن ضرورة التصرف دون رحمة، عودة الحفلات الراقصة المضجرة إلى الوسط العسكري.

– أتعرف، لم أكن تماماً في جو ما يقال. لقد قضيت وقتي في المآتم.

– لو كنت مكانك، لكنت استغللت الفرصة لبعض المتعة.

أن يقول كريجه ذلك! وأن يتخيل نفسه في المقهى – الملهى مع السيدة كريجه يشربان البنش. عاد هكتور للتفكير بالبليدة. سيسأل الأولاد عنه. فمنذ الحصن الوطني، توقف عن حلاقة ذقنه، واتخذ لحية رفيعة وقصيرة كالقراصنة.

«يا للأسف، لن تثلج!».

نظر إليه كريجه بقلق. فلا شيء غير الريح وجلبة المسير. في فرنسا، كان يمكن التقاط أصوات أخرى، خشخشة فئران، فرار حشرات، أغنية قيثار، الغابة التي تمطر رذاذاً، نداءات القطعان. هنا، سيتقدمون كالعميان، كما في حلم. الرجال في المقدمة سوف يختفون فجأة، وستفاجأ وترغب في الصراخ. لا يمكن أن ترى أمامك سوى الفراغ، منحدر صخري، قنبرات الصنوبر وسط الضباب. تنحرف الطريق، وفي مكان بعيد، تسمع صرخات، إنه صوت قُصَيري الغاضب، يركل ويشتم أحد رماته.

– ماذا هناك، يا صديقي؟

– الرجل ما عاد قادراً على التقدم. يقول إنه يفضل الموت.

الجياد أيضاً شعرت بهذا النوع من الخوف، وبأن الهاوية تجتذبها. كان

عليهم أن يعصبوا عيونها. كانت أسنان الرجل تصطك، وجسده يرتعش وقد تمسك بالصخور.

رفعه هكتور، ووقف قبالته، وأخذ رأسه بين يديه، كما فعل للسيدة دو رواي، في تلك الليلة عندما كانت البوم تصرخ تحت ضوء القمر.

بالنسبة إليها، هي أيضاً، كانت تلك جاذبية الهاوية. ولكن هنا، رجل عربي، لا يمكن أن نخلط بينهما، من أين تأتيه هذه الأفكار؟ وأكثر من ذلك ماذا لو كان لهذا الوجه أيضاً لحيةً وكان مدمىً. فتي، أصلع، مع زغب عند الشفاه وعلى الوجنتين الملطختين بالوحل، وجفنين طويلين يمكن للنساء أن تغار منهما. كان الرجال يضحكون عند المرور به، حتى إن أحدهم قلد صوت قبلة. الأخلاق العسكرية. لم يكن يعرف بالضبط ما كان ذاك الشيء، كان دواراً مختلفاً مع ماركيزة بكتفين عاريين ووجنتين مبللتين بالدمع. دوار الحب الذي يتحكم بك، انظر مما يتشكل: من لاشيء. في الأوقات العادية، لا يفكر أحد بالأمر. أضف إليه الغموض والإحساس الذنب، ولن تحصل على الطعم نفسه، موهبة الطباخ تفتح الشهية، فتنقلب كل حياتك.

صفعات صغيرة.

- دلفيني، اهتم بهذا الرجل، ولنكمل، ها... قُصَيري، أنت تخطئ بمعاملة رجالك بهذه الخشونة.
- سيدي النقيب، إن تهاونت معهم، فستجدهم جميعهم جالسين على أربع كالكلاب. وسيقولون إنهم ما عادوا قادرين على السير. رجال القبائل بأسلحتهم هنا. إن أمسكوا بي أنا... أما هذا فليس رجلاً.

3

عثروا تقريباً على المجموعة التي سبقتهم. ومن المفترض أن أول الرتل وصل إلى بداية الغابة، كي يستريح، أمام سلسلة الجبال حيث تختبئ القلعة. يبدو أن المطر خفّ. ارتفعت الغيوم، لتتسلل عبرها التماعات متداخلة، وكأن الشمس ليست بعيدة، والخباز الذي حضر هذه العجينة يمكنه أن يسحبها من آخر معجنه. عند الشريط المقابل، قناصة يغنون مصفقين:

طاخ الليل وين انباتو...

«الليل يهبط حيث نبيت...». أخرج كريجه الشطائر من جعبته، وأعطى واحدة لهكتور. ستكون غزوة رائعةً، سيسرقون أشياء أخرى غير الأغطية والأغنام.

«سترون»، قال قُصَيري، «فقد أخلوا المعسكر. خبأوا كل شيء في الجبل، والنساء أيضاً».

بدا مكتئباً لاجتيازه كل هذه المسافة من أجل لا شيء، فطعم المرأة هنا ليس كطعمها في مكان آخر.

«من المفترض أنك مرحت نسبياً، قصيري، في كل مكان، وهل تعتقد أنهن مختلفات هنا؟».

لا، يقال إنهن هنا الأكثر جمالاً من بين كل نساء القبائل. بسبب المال ربما، ونقاء العرق، وهذا الملجأ الذي كانته القلعة، ملجأ الذهب والدم.

– حسناً، قُصَيري، بما يتميزن عن نساء إفرحونن، مثلاً؟ أنا كنت لأفضل إفرحونن، بسبب المعركة.

– ربما ستكون معركة، فهم يملكون مدافعاً.

كريجه يلوك الطعام حالماً وهكتور ينظر إلى السماء، رامياً معطفه ذات

القبعة على كتفيه.

– وأنت كريجه، اعترف. كم مرة خنت السيدة كريجه منذ أن تركتك؟

– كانت السيدة كريجه لتكون أول من يشجعني.

– كيف كان طعمهن في دوار أيت هشام؟

رد النقيب القُصَيري عليه بشد حزامه كإشارة على صعوبة الوضع[1].

«في دوار أيت هشام، لا شيء أبداً. يمكن التعويض لاحقاً. ولكن هناك لسن نساء. إنهن بالأحرى ماعز. نحيفات ولهن روائح نافذة».

استأنف الرتل مسيره. موجات من الغيوم الكثيفة تتبدّد بين الجروف. رقعة من اللازوردي تنكشف ثم تعاود الاختفاء. وإذ بصرخات تدوي في المقدمة، وموجات فرح تعم تدريجياً الكتيبة. في قِمع هائل من الصخور جثمت فوقها الغيوم، ظهرت القلعة فوق هرمها. وعلى جنبات هذه الصخرة تمتد خطوط طويلة من سقوف البيوت على شكل قوقعات السلاحف. ها هو، حصن المقراني المنيع، المحمي، المدينة المقدسة! سيرمونها فوق السجاد ويعرونها! وصلتها أشعة الشمس، التي جعلت قرميد منازلها يلمع، وعلى المقلب الآخر، أنارت منحدرات فارغة، تتخللها بقع من الأجمات والوهاد الصغيرة الغارقة في العزلة. أرض مؤامرات وضغائن وقتل، حيث تختنق الصرخات، من كل الجهات، ما عدا عند المضيق من حيث سيتسللون.

إلى الغرب، وعند المرتفعات حيث تصفو السماء، يمكن تخيل إغيل

(1) شد الحزام في الفرنسية يراد به الإشارة إلى التقتير والبخل والوضع الصعب.

أعلي[1] فوق أنف الجبل، وبعيداً جداً في الأعلى، قمم جرجرة المهيبة مع سحابات بيضاء إذ أثلجت عند القمم، كردف حيوان هائل أسود الظهر يمكن أن يتحرك ويسحق كل شيء. لابد من أنهم يعانون من شحّ المياه، وربما من الجفاف، لكنّ جدولاً ينفجر في أحد أيام الشتاء، فتمتلأ البحيرات في تجويفات الصخور، وتبدأ طيور جارحة قلقة بالدوران، ويغدو الطقس عذباً، ويرتفع الغناء في كل مكان وتصهل الخيول.

عند القمة الشرقية، وفوق القرية الأخيرة لأبناء حمادوش، تلمع أسراب خيالة: إنهم مقاتلو أفريقيا.

– من أين هربت النساء؟ سأله هكتور، فكل شيء محصور، إنها الطريق الوحيدة.

– هناك أدراج في الجبل، قال قُصَيري. لهؤلاء طرقهم عندما يشعرون بالخوف. أو قد يهبطون بالحبال إلى الأسفل.

4

عاد النقيب متغيراً، مع أنه نام على سرير حقيقي ومن المفترض أنه سكر من الحب. رجل مثله لا يمكنه أن يعيش دون نساء.

«سترى سيدي النقيب»، قال قُصَيري، «لن نجد شيئاً. *أووالو*[2]. من المفترض أن رجال إغيل أعلي أخطروهم. لقد تأخرنا كثيراً».

فكر بجواهر البربر، العقود الفضية بالمرجان الزهري على صدور النساء، والعصابات المرصعة المخبأة في الصناديق، فشعر بالإحباط.

(1) إغيل أعلي هي القرية التي تقع فيها قلعة بني العباس في ولاية بجاية.

(2) Oualou أي لا شيء.

خمسة عشر يوماً من السير من أجل النساء. ما نفع كل المعارك في الجبل، كرز إفرحونن، الحرائق التي تضيء الليل، هذا الخوف من ضربة تبقيك مستيقظاً عندما يأتي وقت النوم، وأن تسمع قناصة يتحدثون وبغال تمضغ الحفنة الأخيرة من الشعير؟ ألم تكن امرأة من بني العباس هي المكافأة؟ عندما جعل الملازم أول قُصَيري يضرب بشراسة الجندي الشاب الذي لم يشأ التقدم، ممن كان ينتقم؟

– ماذا فعلت بالرجل، معاون دلفيني؟

– أوقفته على قدميه، وقلت له إما أن تمشي أو تموت. كان خائفاً جداً، ظن بأنكم ستقطعون له رأسه، لقد مشى وهو الآن هنا. ربما أنه الدوار. لقد حلّ الأمر بسهولة.

عاد كريجه ومعه توزيع الكتائب. كتيبة لكل قرية. كتيبة غربيه لقرية أولاد عيسى. واثنتان، كتيبة المشاة الثمانين وكتيبة القناصة الحادية والعشرين، للاحتياط. أراد الكولونيل رؤية النقيب.

«هذا لحسن حظنا»، قال هكتور. «قُصَيري سأترك لك منازل المقراني، ولكن أريد الالتزم. لا يلمس أحدكم أيّ امرأة. وإن كان هناك من نساء تضعونهن تحت مراقبتي. ولا تكونوا متشكّكين، ها؟ لا تهمني النساء؟».

نادى هكتور مساعديه، ووزع المهمات.

وفجأة، انقشعت السماء لتعتمر القلعة شعرها الأزرق، كبحر واسع يمتد فوق السقوف الرمادية، ويندفع باتجاه الوديان فيضيء وادي نهر صومام[1]. جبهة جبال جرجرة تغرز قرونها في العاصفة. أوشحة من الثلج

(1) نهر صومام هو نهر في شمال الجزائر يولد من إلتقاء نهر بوسلام ونهر أقبو ويصب =

عند المنحدرات والقمة تدخن كما تنفث ثيران الفلاحة في الشتاء نفساً دافئاً من فتحات أنوفها. أي عزاء! قرى تملك ساعة واحدة للاختيار بين الموت والخضوع، قادة مجموعات يريد كل منهم أن يكون أول من ينقض على فريسته، هذا الكولونيل الشجاع الذي يظن نفسه تيران[1] والجنرال الذي يحلم بأن يحمل عصا مارشال... بعد حرب خاسرة، يجب تقديم نصر ما للبلاد، لتعتقد بأنها تلحق الهزائم بالقبائل. ألم تكن مغادرة البليدة تعبيراً عن خيبة أمل؟ هز هكتور كتفيه. لو ارتمت سابين مرة أخرى بين يديه، لو تجرأ على مباغتتها عند عودتها من الحفلة، وإجبارها إن كان ذلك ضرورياً، ربما لم تكن تنتظر سوى هذا. حتى القلاع المنيعة تخضع عندما تصبح مقاومتها غير مجدية. فقد احتل هذه القلعة مرةً عن طريق المفاجأة، ففتحت له أبوابها وطرقاتها وكنوزها. إن نسيته، سيوجه لها إنذاراً أخيراً، كما ذلك الذي وجه لبني العباس. مارغريت، لا تهمني، إنها مع والدتها والأولاد، لست جائعاً وظمئاً إلا لك. نقصته الجرأة، فعاد إلى منزله، هذا الغبي! «أنا أهذي، ليل باخ جعلني مجنوناً. لم أكن أعرف بأن لك رائحة طيبة بهذا القدر، لماذا بدلت عطرك؟ فأنا أفضل العطر الآخر، أو أني لم أشمك جيداً...».

كان أنطوان محظوظاً: سيبني وحده مزرعةً أخرى، من دون أورتينس، سيبكي قليلاً، ويشعر بأنه وحيد، ولكن الشعور بالوحدة هو الذي يمد

= قرب بجاية في البحر الأبيض المتوسط.

(1) Turenne المقصود به Henri de la Tour d'Auvergne-Bouillon, vicomte de Turenne والمعروف عادة بـ Turenne وهو مارشال فرنسي (1643) ومارشال حربي عام (1660) وكان يعتبر أفضل جنرالات لويس الثامن عشر ثم لويس التاسع عشر. وقد عرف بنجاحاته في المعارك، وكان على عكس كل القادة الآخرين لا يتردد في الهجوم شتاء على أعدائه، لا بل كانت استراتيجيته تقوم على مباغتة العدو من جهة الجبل.

الرجال بالقوة.

الملازم أول قُصَيري، على القبائل أن تنشد آلامها. عليك أن تعرف ذلك.

أن تنشد نعم، لدي رجال يفهمون لغتهم. فمنذ موت المقراني، مزقت النسوة خدودهن، بكين شجرة السنديان التي سقطت، شتمن بومزراع، اتهمنه بالكذب، اسمينه ابن آوى الأدغال، اتهمن فرنسا بضرب القبائل مثل ضربها على الطبول. لا يحتفظون سوى بالريح. فهؤلاء كانوا دائماً خادعين.

التوى وجه هكتور، جراء ألم في موضع من ظهره تحت عظم الكتف الأيسر، خلف جرحه الملتئم، بجعله غير قادر على التنفس عميقاً. بعد طوفان الليل والصباح، كان هذا النسيم الدافئ، تلك الأشعة التي تشفي من كل شيء، وزغردة القنبرات الثملة. والرجال الذين يجففون معاطفهم.

بدأت الطيور الجارحة بالدوران، والغربان غطت أو هربت، إذ ما عادت منظورة. طلب الجنرال تموينا بالماء، فعاد أهل القلعة بالمطرات. بين قرية أولاد عيسى[1] والقرى الأخرى، هناك نوع من الوادي المنحوت في الصخر، مع أحواض للقطيع.

5

كان قُصَيري محقاً، ما عاد هناك أحد. تقدم الزواويون وهم يتنادون، يدفعون الأبواب، وينفذون إلى الساحات الفارغة، ثم يرتدون على

(1) أولاد عيسى هي قرية تابعة لبلدية الأخضرية في ولاية البويرة، وهي ولاية تحدها شمالا ولاية تيزي وزو وجنوبا ولاية المسيلة غربا ولايتي البليدة والمدية شرقا وولاية برج بوعريريج.

أعقابهم.

عاد هكتور باتجاه المسجد المشغول بالقناطر. كانت خطواته مدوية. أحدى قطع المدفعية كانت مركزة هنا، نصف غائرة في التراب، معطلة، طبعت عليها زهرة زئبق برونزية مع تاريخ 1639 فوق حرف لام متوّج. وضع قدمه على سبطانة المدفع، وأشعل سيجار المنتصرين. أين هو النصر عندما لا تحصل معركة؟ أرسلت الفرق بتقاريرها التي جلس كريجه يقرأها في الأعلى ويرتبها.

المعلومات الآن تفيد بأن هناك مدفعية أخرى بزهرة الزنبق تحت إحدى شجرات حمادوش، وثالثة عند المسجد، وأخيرة مغروزة في مستنقع صغير، لابد من أن هذه المدافع جاءت من سفن جنحت عند حوافي النهر. اثنتان من عيار 36، وأخرى أصغر منها، كانت تحمل ما زنته ثمانية عشر كيلوغرامات من القذائف.

«أتعرف كيف نصطاد الفئران، سيدي النقيب؟».

نظر هكتور إلى مساعده باستغراب. هذا ليس بالصعب. هناك كمائن. لقد تحدثوا كثيراً عن الفئران في العام 70. أكل منها الباريسيون. كما أنها بيعت. خرجت من المجاري، وصعدت إلى المنازل باحثة عن الطعام، فجلبت لنفسها الموت.

لا أعرف. بمصائد الفئران...

صحّح معلوماتك. عليك أولاً أن تسبغ على مصيدتك مظهر البراءة. فالفئران تحسب نفسها ذكية. فهي تفحص الآلة، تشمها، تفكر وتتناقش في ما بينها وتجتمع يوم الجمعة. إن شبكت المصيدة، فلن تحصل سوى على فأر غرّ، دخل دونما تفكير، يتركه الكبار إلى مصيره عندما يرون أنه

علق. علينا أن نكون أوسع حيلة من الفئران، فنجهز لها المصيدة بما لذ وطاب، ونخفيها تحت كيس قديم حتى تعتقد أنها عثرت عليها بنفسها، وخاصة نتركها مفتوحةً. يدخل الصغار، يلتهمون الطعم، يخرجون، يعودون، يتلهون بالشقلبة في المصيدة: وحينئذ فحسب يحذو الكبار حذوهم. تقدم لهم وليمة حقيقية لمدة أسبوع، ثم في أحد الأيام تطبق عليهم المصيدة. وفي اليوم التالي، ستجد عائلة بأكملها مرتعبة مذلولة، تتركها تموت. لقد دخلنا في مصائد الجزائر وإيطاليا والصين والمكسيك. أخذتنا متعة الطعام، ما كنا نخشى شيئاً، لا بل اندفعنا. هذه القلاع جميلة جداً. وماذا لو حاصرتنا القبائل... لو كنت مكان الجنرال، لفررت فوراً. سيدفعونني ثمناً غالياً لبقائي هنا.

وجد قُصَيري رجلاً عجوزاً، واحداً من أيتام الباش آغا وفتاتين.

«تعال لنراهم، سيدي النقيب».

في جدران سور القرية، المحاذي للصخرة فوق الهاوية، منزل جميل مطلي بالكلس مع باب مطعّم عشوائياً بالعاج والصدف ومطلي بالأحمر والأخضر يفتح على باحة زرعت فيها شجرتا تين وشجرة رمان. هنا وقف الشيخ دون حراك، وقبعته تغطي عينيه.

«اسأله من هو»

سأله المترجم وانتظر الجواب.

– واحد من أهل الباش آغا. أحد الأعمام. لم يشأ أن يرحل، فهو تعب جداً.

– اسأله كيف انتهى المقراني؟

ترجل المقراني ليؤدي صلاة الظهر، ثم استطلع الميدان. وعندما أصابته

الطلقة تلا الشهادتين: لا إله إلا الله... سجد على الأرض. في البداية اعتقدنا أنه ما زال يصلي، وعندما لم ينهض، اقتربنا منه، وجدناه ميتاً. حملناه مع ثلاثة من المغازيين. بومزراع كان هنا. هرب.

كان الشيخ يتكلم بصوت محايد، منكسر.

«اطلب منه أن يرفع قبعته».

ظهر الوجه، منهكاً، أشبه بالجبل، جافاً، مع ذقن رمادية غضة، وجنتين غائرتين، عينين سوداوين وجبهة بخطوط عميقة. بدا أكبر مما ظنوا في البداية.

«يقول إنه سلّم أمره لله، وبأنه سيفعل ما تطلبه. أنت القائد. أنت الذي تأمر».

وإذ بالشيخ ينحني فجأةً، يمسك بيدي النقيب ويقبلهما.

– قل له إنه في أمان.

– يقول: كما يشاء الله. حياتي تنتهي بالبؤس.

– أين النساء؟

– في الطابق العلوي، هناك واحدة من أرامل باش آغا، زهرة بنت خلوجة، مع واحدة من بناتها، وأخرى من آل بومزراع.

– أريد أن أراهن.

– يقول: يمكنك أن ترى الأرملة إن قبلت. إنها مسنة. الفتيات لا. ديننا يحرم علينا ذلك. حتى رجال القرية لا يرون النساء.

– وأيضاً، أضاف قُصَيري، لسن محجبات مثل نسائنا.

دأعرف، لدى القبائل تبقى النساء حاسرات الوجه، ما عدا في المرابط. والغرباء لا يجب أن يقحموا نظرهم داخل البيوت. ولكن لن

نركب على أية حال الجياد، فقط من أجل ألا يقع نظرنا سوى على سطوح المنازل، وننظر فقط أمامنا. في الحرب، كل شيء يتبدل. بني العباس أرادوا الحرب. وقد خسروها. ومعي لا خطر على النساء. إن حلّ مكاني أحد آخر، لا أعرف.

— يقول: ادخل إلى بيتي، سأقدم لك القهوة.

استدار هكتور باتجاه رواق الطابق العلوي، وسوّى قبعته.

صعد الشيخ الدرج برشاقة، تحدث إلى من في المنزل، عاد، وأشار للآخرين بالدخول.

«دلفيني، ابقَ هنا. وضِع حارساً عند الباب، وإن حدث شيء ما تناديني».

دار مرموقة. تحت قناطر الرواق، غرفة بلا شبابيك. جدران مطلية بالكلس الأبيض وفارغة. حصائر ممدودة فوق السجاجيد، صفائح من النحاس. طاولة صغيرة واطئة. امرأة، حافية القدمين، ترتدي فستاناً أسود طرز بالزهور، نطاق عريض مضبوط القياس، وشاح يلف الوجه، عقد فضي طويل على الصدر. كان وجهه يشير إلى أنه لا يرى جيداً في العتمة: أهي حنة، أم أثار حفرٍ بالأظافر؟ وضعت إبريق القهوة أمام الشيخ فملأ الفناجين الصغيرة من السائل الأسود الكثيف المحلّى.

كانوا ينتظرونهم منذ وقت طويل، والقهوة كانت جاهزة. في الممر، صوت المشاة مثل نعيق البوم. فمخافة ألا يتم صدّ الغزاة، تعجلوا في تحميل السجاجيد والأسلحة والخناجر والأباريق والثياب والحلى على البغال. لا لم تكن حنة، فالحنة هي العيد، ومنذ ان استقرّ جثمان الحاج محمد بن الحاج أحمد المقراني تحت أرض القلعة، ما عاد هناك سوى الأحزان. مزقت

الأظافر هاتين الوجنتين، وسال الدم والدموع في جداول على هذا الوجه الذابل، المتعب، المخدد كالجبل، الأجرد مثله، المكشوط، المثقوب، المليء بالأثلام: كماري ألدبرام تحت وشاحها الجنائزي، منقار الطائر الجارح هذا، الفم الأشبه بطعنة سكين، تلك التجاعيد الطويلة التي تبدأ من الأنف وتمتدّ إلى أسفل الذقن، تلك العينان الأشبه بحفرتين في صخرة مع ندوب لامعة في العمق، وتلك الشفة العليا المتضخمة المليئة بالخدوش.

بدا كريجه قلقاً، تمدد قُصَيري على الوسائد، أسند ظهره، وارتشف الرقيب المترجم قهوته كالشيخ مع صوت عند الارتشاف.

«قل له: أريد أن تندب أرملة المقراني موت زوجها».

استغرب الشيخ الطلب، هز رأسه، وتكلم بلغته القبلية. ما هؤلاء الروم الغرباء الأطوار! فعل يعرفون؟ إنهم يدنسون التراث المقدس، مدافعهم التي تنفث الموت كانت موجهة إلى القلعة، فهم لا يشعرون بآلام الآخرين، يدنسون كل شيء، جنودهم ينهبون ويغتصبون، كم سيكون من الأنسب أن يرموا الأحزان في وجوههم، بدلاً من أن يغنوها لهم؟ وهذا المترجم الذي يسمعه دون أن ينظر إليه، رجل من القبائل، من بني جناد أو العمراوي الذين قدموا أنفسهم للفرنسيين رغبة في الغنائم، وخدموا مثل كلاب الصيد في أفواج القناصة أو السِباهيين[1]. لن يوجهوا الكلام لهذا المترجم، وحتى لن يسألوه إلى أي قبيلة ينتمي، آيت أداس، وآيت كوخيا أو آيت إزرار.

جثمت المرأة لجهة الشرق حيث كانت تصلي، مديرة ظهرها للرجال،

(1) Spahi مجموعة الخيالة التي أنشاتها فرنسا في إطار جيش أفريقيا، في 1834، والتي تشكلت من جزائريين ومغاربة وتونسيين والتي شاركت في الحروب الفرنسية حتى تفكيكها في 1962.

أمسكت وجهها بين يديها وبدا صوتها كأنه يسيل. أهو صوت؟ إنه أنين مكتوم، هش، انسياب ماء بين الحجارة دون صيحة ولا عنف، شعاع شمس يرتعش، صوت راحيل تبكي أولادها ولا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا موجودين[1]، الصوت الذي نسمعه في الرامة مجسداً آلام اليهود، ترنّم لا نهاية له، مع بكاء ونحيب، حيث الألم يحوم كما تحوم النسور فوق القمم الجرداء، في سماء فارغة.

كانت المرأة تتهادى وتنحني، كأنما أصابها الدوار.

– ماذا تقول؟

– تقول: عابرون جاؤوا منذ الفجر يبحثون عن الأخبار، بسرعة! لقد فاض قلبي بالحزن. ما عاد لدي سند... ركب بغله الرمادي، الرجل بثوب الكشمير، كان ذلك الصقر الذي بسط جناحيه فوق قمة مسادير. أين هي القرى التي يسيطر عليها؟ ولاية مجانة من كل الاتجاهات. أناديه وطبل الأحزان يسمعني الصوت الكئيب والثاقب لنواقيسه...

كان المترجم يتردد، ويعيد، وقد وقع هو نفسه تحت تأثير النحيب، يتلعثم، يفكر، ثم تفوته جملة كاملة: «ما عاد في العائلة حياة، تمزقت الوجوه وتشوه جمال النساء، وارتفع النحيب حتى المغيب. بنت الحاج، أمه، تضرج وجهها حمرةً وعيناها تسألان الواصلين. أين هو أحمد، ابني أحمد؟ أنتم الآتون من بعيد، أتحملون لي أخباراً عنه؟».

نهض كريجه، واختفى. تناهت خطواته في الباحة، ثم حديثه مع

(1) «راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين» (من إنجيل متّى 2/16–18) وذلك لما أمر هيرودس بقتل كل الصبيان في بيت لحم حسب الكتاب المقدسّ.

دلفيني.

وكأن صوت الصمت والريح ثمل بالألم، كلماتها رحلت عبر الجبال والوهاد والمنحدرات، وتدحرجت في الوادي الأحمر حتى البحر، تعثرت أمام حدبة جبال جرجرة الهائلة، قفزت نحو القمم، ثم سقطت مرة أخرى في اللانهاية.

«آه أنت الذي تنسى، تذكر...».

عاد كريجه، وبقي واقفاً.

نهضت المرأة. ابتسمت. وتكلمت إلى الشيخ.

- ماذا تقول؟، سأل هكتور.

- تقول إنك تشبه زوجها، وإنك لست مثل الروم الآخرين.

- أرأت الكثير من الروم؟

- تعرفهم حسب ما يصفونهم لها.

- يمكن دائماً أن نخطئ. أنا أيضاً، إنها المرة الأولى التي أرى فيها امرأة من القبائل. إنها تشبه... هل سيفاجئها إن قلت لها إنها تشبه أمي؟

نهض مرتبكاً، كانت تبدو قصيرة جداً أمامه، تنظر إليه بطريقة غريبة، من المفترض أنها الزوجة الأولى، زوجة عمر الشباب، ومن المفترض أن موت المقراني كسرها، نزلت بها الصاعقة أو أن النار أحرقتها، جفت عيناها، مع بعض بريق سخرية أو حشرية، في عمرها ليس لديها ما تخشاه، عاشت الكثير من الأوقات السعيدة، والآن الامتحان الأخير، الروم يحرقون القبائل ويأخذون الرجال والقطعان. ومن أجل مقاومتهم، ما عاد هناك سوى الأغاني التي تناقلوها عبر الأجيال ليهدهدوا بها أطفالهم عند النوم،

يشونها في أذانهم وفي نومهم حتى يفهموا، والتي ترددها النساء حتى تدخل في أجسادهن، وتصبح دم المقاتلين الذين سيولدون من أرحامهن. لتزهر بعدئذ الغابات التي احترقت، ويغدو الرجال شجراً جديداً. يجب أن نعطيهم الوقت لتنبت جذورهم ويكبرون. «أنا» كلم هكتور نفسه، «أصل مثل جماعة النبي حزقيال الذين سمعت عنهم في دروس الدين المسيحي، أسطو على بابل والقدس، أقضي على أمراء إسرائيل، أدخل إلى منزل، وأطلب، لا أعرف لماذا، من امرأة أن تنشد أحزانها. تغني ولا أعرف بعدها شيئاً. أترجم لي المترجم كل شيء؟ هل يفهم بشكل حقيقي لغتهم كي يدخل في روح الكلمات والصرخات؟ كل ما يمكنني قوله هو أن هذه المرأة العجوز تشبه أمي، وهي تقول إنني أشبه المقراني...».

تقدم، أخذ يدي المرأة ورفعهما بسرعة إلى شفتيه، كما سبق وشاهدهم يفعلون بين بعضهم بعض. أي طقوس معقدة وأي مراسم عندهم للعناقات والقبل! بين الرجال أو بين النساء أو بين الرجال والنساء من الأقرباء، يقبلون الأيدي، الجبهة، القلب، الكتف، الثياب، يقبلون الأصابع التي لمست الحبيب، ويتلون أدعية لتقوية الأواصر. ليس في الحب. الحب يبقى عالماً سرياً لا ينتهك. والمعصية، أن يسرق رجل امرأة رجلٍ آخر أو فتاة منذورة لآخر؛ عار لا يغسل إلا الدم. كم كان صعباً أن يقول غريب لامرأة عجوز إنه يشعر بالحب اتجاهها! وهل هذا أساساً مسموح به؟ ألا يرتكب بذلك المنتصر إهانة في نظر المهزوم؟ في فرنسا، يستسلمون لإغراء تعبير الحب. أي بربرية هذه! حرية النساء تجعلهن عرضة لكل المغامرات، ويصبح الزوج المخدوع أضحوكة الجميع. في بلاد المسلمين، يتبادلون القبل في الأماكن العامة، ويحملونها بالنبل والإشارات والتعظيم. لو نزل

البروسيون باتجاه روارغ واحتلوا قصر الجنرال، أكان ليجروء ضباطهم على تقبيل يدي السيدة دو رواي؟ هل كانت لتسمح لهم بذلك؟ أكانوا ضربوا لها التحية العسكرية وأحنت هي رأسها بحركة باردة. هكتور الذي تظاهر بأنه لا يقبل أبداً أيدي النساء... فقد قبل رغم ذلك يد السيدة دو رواي في البليدة.

– إلى أين ذهبت كريجه؟

– لأرى ما الذي يحصل خلال حفلتك الغنائية هذه.

أشار الشيخ إلى بندقية المترجم. لا يمكن الصمود بوجه هذه البندقية. فهي تنثر الرصاص كما يُنثر القمح. بنادق رجال القبائل تحمل رصاصاً بمقدار أقل بمرتين.

استعار هكتور البندقية، عرضها على الشيخ الذي اخذها بيديه النحيفتين. أرجحها بيديه، داعبها، فحص بحياء المغلاق، فتحه، أبدى إعجابه بهز الرأس وتحدث إلى المرأة بصوته المكسور.

– ماذا قال؟

– لو كان لدى القبائل بنادق كهذه، ما كانوا ليهزموا.

– لدينا هذه البنادق، والرشاشات والمدافع نفسها التي كانت لدى البروسيين، ولم نعرف كيف نستفيد منها. هناك أمر آخر كريجه. فالقبائل الذين يقاتلونا لم يموتوا جميعهم. سيعود بعض منهم. وسيتناقشون...».

أشار للمرأة مودعاً، ابتسم لها وذهب. ألقى قُصَيري نظرة مشككة على كل شيء. أليس في لون بشرته الداكن إشارة إلى أن في دمه بعض أصول سوداء، وبأنه يتحدر من سلالة عبيد؟ لدى القبائل، يعيش السود

على حدة، ويتزاوجون فيما بينهم. ولم يحصل يوماً أن صاهرت عائلة نبيلة أياً منهم. يحكون عن واحد من المرابط قتل ابنته لأنها أحبت زنجياً.

«كان عليك أن تطلب رؤية الفتيات، سيدي النقيب».

لو كانوا في تلمسان[1]، لكان خبأ قُصَيري كل الفتيات. ممّا أراد الانتقام هنا؟ فهو يحاول إذلال القبائل، مستغلاً الدين عندما يحلو له؛ فمنذ عودته، لم يلمحه هكتور يصلي مرةً. وثني حقيقي مثلهم، هذا القُصَيري. لا يأتي الرب على شفتيه أبداً.

«سأفاجئك قُصَيري: أنا لست مهتماً بالفتيات...».

قال هذا ليلفت نظره ويجعل لكلامه وقعاً في الأذهان. فقد سبق وقاله، ولكنه يعيده ليؤكده. منذ عودته من متيجة، وهو يبدو مكتفياً من النساء. عندما حدثه كريجه عن الفئران في المصيدة، اعتقد هكتور أنه هو المقصود بمعنى ما، وبأنه ترك نفسه في مصيدة النساء. فمن دون الكثير من المخاطر، يمكن الإفلات من هذا القفص. ستتساءل ربما السيدة دو رواي لماذا رحل معاملاً إياها بذلك التجاهل، وستكتب له مارغريت محتجّة، وستنتظر طويلاً الرد. ويمكن للكولونيل سانتونغ أن يجري حينها تحقيقاً ويبعث بالبرقيات، إنها الموضة، وسيعرفون حينئذ أنه التحق بكتيبته ويجدوه في عمق أعماق بني عباس، يستمع إلى واحدة من أرامل المقراني تنشد أحزان العائلة، ثم يقبل يدي هذه العجوز... «أنتم رجال القبائل»، جعل يفكر، «إن هاجمتموني، فسأحرق قراكم وأقطع أشجاركم وأسمم مياهكم وأغتصب نساءكم وأحبّل فتياتكم وستكونون مجبورين على

(1) تلمسان هي مدينة جزائرية تقع شمال غرب البلاد، تحاذي البحر الأبيض المتوسط، لقبت بـ «لؤلؤة المغرب العربي»، وهي ثاني مدينة من حيث الأهمية بعد وهران في الجهة الغربية، وهي منطقة تاريخية وسياحية، وتضم معالم أندلسية كبيرة.

ذبحهن حتى لا ينجبن أولادي غير الشرعيين، ولكن لو تركتموني أمر، فسأتصرف بشرف، وستستعيدون جبالكم واعتباركم».

قبل أن يصل إلى عتبة المنزل، استوقف الشيخ المترجم. «يقول إنه لو شئت البقاء هنا الليلة، فستستقبلك زوجة المقراني، أنت والملازم الأول الرومي، ولكن ليس العربي. هذا المساء، يمكنكما أن تأكلا وتناما تحت هذا السقف».

تردد النقيب. فهم يستضيفونه بأمل الاحتماء به. ولكن ماذا عن هذه الإهانة لهذا الطير الكاسر قُصَيري؟

مال برأسه باتجاه الشيخ.

«موافق».

ذهب إلى نهاية القرية. عليه أن ينشر مخافر ليلية، ويوزع الحرس، فقواد الفرق يفضلون ربما أن يتمركزوا خارج الأسوار. ولكن كريجه يبدو معارضاً.

– لا تقنط يا صديقي. سندعوك أنت أيضاً.

– إن كان يمتعك نحيب هذه العجوز، سيدي النقيب. لأن الشابات، الحمامات... هذا إن لم يعودوا ليقتلونا، فترقص حينها نساؤهم فوق جثثنا.

هبت فجأة ريح الجنوب مزوبعة، حاملة الغبار في موجات طويلة رقيقة تدور وتدور ثم ترحل، متداخلة مع روائح كريهة. استنشقها هكتور بقرف.

«هذا ما لا أحبه هنا، هذه الرائحة الكريهة، أطراف القرية حيث الفضلات والزبل، هذه الحدود الكريهة الرائحة. ما عدت أرى...».

صمَت. سابين كانت دائماً بحاجة لحمام معّطر. لا يمكن تخيلها هنا، تسحب الماء بكيس مصنوع من جلد التيس، وتستحم بطاسة!

«يفترض أن نعتاد على ذلك»، أضاف محدثاً كريجه «أعراسنا مع فتيات المقراني، يا لها من زيجات! الملوك لم يبنوا فرنسا سوى بهذه الطريقة. ما ينقصنا هو الزيجات، كريجه. أنت أمير جبال الأوراس، لك الصحراء المحصاة، وأنا دوق مجانة، لي هذه الجبال والسماء».

خلف الجدران بالحجارة المرصوصة، صوت الغابة، صرخة نورس صغيرة، عواء حيوان، أشجار لم تنضج بعد، تين أو أشجار أخرى؟ في فرنسا أيضاً، وبعد عواصف الخريف، تكون للسماء هذه الفتنة، هذا الشعاع البلوري، هذا الضباب البنفسجي فوق الغابات، هذه الأفاق الغائمة. هنا لن تتأخر أشجار التين في النضوج.

في أعلى الجبل، لجهة الغرب، سطوح إغِل أعلي تبرق كخوذة ذهبية.

الفصل الثاني

قرار الكولونيل بتدمير القلعة ولّد لدى النقيب غربيه رد فعلٍ عنيفة. ظهور شابة من القبائل في اللحظة التي كانت فيها البوم تحيي الليل.

1

«بارون!».

أصاخ الحصان السمع، وتعرف صوت هكتور، التفت، اقترب وهو يمضغ حفنة علف برائحة النعنع البري، علف القبائل.

كان يهز ذيله دون عصبية، بصورة عادية، ذات الشمال وذات اليمين، بطريقة منتظمة، ضارباً ردفيه بذيله الذي لا يُقص قصيراً كما في فرنسا. يقف ذباب على صدره، فيدافع عن نفسه بزفرات من منخريه وفمه. يتسلى هكتور بنداء حصانه «بارون»، فهذا يذكره دائماً بالبارون الآخر في آربا.

«تعال يا باروني الجميل..».

تقدم هكتور، ودغدغ منخري الحصان ثم الكتف والقائمتين والصدر. حصان عربي. يمكن تمييزه من قامته التي تميل للقصر، برأسه الكبير، ورقبته العريضة، ورسنيه الطويلين، وذيله الغض، ومزاجه، وحيويته، وجلده اللامع، وعينيه الكبيرتين السوداوين، وأذنيه الطويلتين. هو حصان مرقط ببقع دائرية يختلط فيها الأبيض بالرمادي، وكان بحاجة لأن يرعى ويتقلب في الغبار، ليتعرف إلى غرائز سلالته البدوية الرحالة.

«إنه يحبك، سيدي النقيب، انظر».

حك الحصان قصبة أنفه بصدر النقيب، ودفعه قليلاً مستدعياً المداعبة.

– لأنه ليس ذكياً، دلفيني. لذلك فهو متعلق بي.

– مثلي أنا.

– أنت شيء آخر. أنت من اختار. أنت تعرف. أحبه كما هو. لا أعرف إن كان يحبني، أما أنا...

ألم يعد هكتور من أجل حصانه، بقدر ما عاد من أجل كتيبته؟ كتيبته وبارون. لو عرف كريجه بأني اشتقت إليه أقل مما اشتقت لحصاني... يشبهان بعضهما بعضاً، لن أقول ذلك لكريجه. كلاهما احتفل بعودتي، كلّ على طريقته. بارون عرفني من بعيد، كاد يوقع أرضاً مساعد الكولونيل، وجاء لملاقاتي. كريجه الذي دفعه، بدا وكأنه غار منه وسألني مباشرةً إن كنت جائعاً وعطشاً، قدم لي مطرة، وأخرج شطيرة من جعبته، ربما كان يحتفظ بها لي. والآن يكشّر بوجهي، ربما لأنه رآني أقبل يدي المرأة العجوز. ولكن لا، يا صديقي، لن أخدعك، والبرهان أني نصبتك أميراً للأوراس، وهذا ليس بالقليل في نهاية الأمر، من أجل أن تنتمي لي، أنا دوق مجانة...

ربت عنق الحصان، أدار ظهره وذهب.

فكر لبعض الوقت ببارونه، فهو لم ينحف منذ وصوله إلى الجبل، الحرارة ونقص الطعام لم يؤثرا به مثل جياد الخيالة، وتحديداً، تلك التي استقدمت من فرنسا، والتي تلزمها حصتها اليومية من الشوفان كي تتابع جر المدافع: أما بارون فيكتفي بما لديه، ويأكل ما يجده أمامه. ومكافأة له

يركبه هكتور. هنا أعادوا العمل بالعادات القديمة، كبار الضباط والنقباء يتنقلون على الحصان. هكتور يمشي في كل مرة يكون ذلك ممكناً، وخاصة أنه لا يستخدم بارون حينما لا تستدعي الضرورة ذلك. ومع أبسط قدر من العمل يريحه في الظل. أهو حباً بالحصان أم حتى لا يعرض نفسه للضربات؟ ليس من ذلك النوع من الضباط الذين يعتبرون الجياد المقتولة تحتهم انتصاراً. في المقابل، عندما يكون هناك جهد يجب بذله، لا يتذمر بارون: فهو مستعد دوماً للانطلاق بروح انتقامية يجد فيها خلاصه: يعبّ الهواء لكنه سرعان ما يختنق. هذا عيبه الرئيسي: قفزة قوية، حادة جداً، وفي الصدر، ذلك اللهاث الصافر وكأنه يخرج من مصهر الحديد. لم يكن أيضاً جيداً في الوثب.

كان دلفيني محقاً بتشبيه نفسه بالحصان، إلا في مسألة الوثب. هذا الجانب الاستسلامي والساخر بطريقة مبهمة لحصان المشاة، والذي يعاني أغلب الأحيان، يوبّخ أو يوبَخ، يسهر على كل شيء، تنهكه تكليفات مرؤوسيه، هذا عدا وقاحة الضباط المتغطرسين بالاهتمام عن كثب بكل ما تستلزمه المعركة. يكتفي بالكلام المنمّق لنقيبه وبسيجار يقدمه هدية من وقتٍ لآخر. دون الجيش، ماذا كان ليكون؟ موظف صغير في مكتب التسجيل؟ شريطة ألا يتلقى ضربة ما، يمكنه أن يصل إلى معاون مشرف، ويحصل على تقاعده ساخراً من أولئك المدنيين التافهين المجبرين على اللهاث حتى آخر حياتهم. كلب زقاقٍ، أكثر مما هو حصان، ينبح بشكل دائم، تاركاً التبختر للآخرين. التعويض يكفي لقضاء بضعة أيام في الفندق مع صديقين أو ثلاثة، وارتياد المطعم والملهى، وشراء ثيابٍ وحتى زيارة أولئك النساء لنسيان عزوبية بدأت تثقل عليه، لأن نساء هذه الجبال لا

يلهمنه. الخوف من الأمراض لا يعادل الرغبة، أي رغبة؟

2

«هل أظهرن لك مقدمات؟»، قال دوبوي وهو يمرر أصبعاً على شفتيه لينظفها من الصابون «فتيات المقراني، هذا يفاجئني. لو التقيتهن هذا المساء، وإن كما افترض، وكيف أقول ذلك بكل لباقة؟...».

استدار عن مرآته، ليشحذ موس حلاقته بالجلد، بتأنٍ، وبشكل منهجي.

– ... نسجت معهن علاقات طيبة، وهذا ما سأفهمه عزيزي، وما أحترمه أيضاً وما أوافق عليه بيد أني أقترح عليك أن تكون حذراً، وأن تجعلهن يستحممن. هذه القبائل من القرون الوسطى! أناس يعيشون مثل الحيوانات...

– ليس آل المقراني...

رفع رأسه، توقف عن معالجة موس الحلاقة. بدا وكأنه يفكر.

– أهو قصرٌ؟

– تقريباً، إن عرضن علي أن أبقى فلن أرفض. وأنت لا؟

– يجب أن يبنوا لي قصراً وأكثر. هذه الحشرات الطفيلية في كل مكان...

– تخيل...

– لا تقل لي إن، بأن هؤلاء الناس قد أغروك، ولو قليلاً؟

أحنى رأسه، وعاد ليشحذ موسى حلاقته، مبرزاً شفته السفلى بعجرفته المعتادة.

«أعترف لك بأن هؤلاء الناس... لا أتحدث عن النساء، أتساءل كيف أنكم لا تفكرون سوى بهن. أقصد الرجال، إنهم ثائرون على كل شيء. بماذا ينفعهم أن يرفضوا كل شيء؟ ملكهم يوغرطة أربك سيبيوه الأفريقي، وانتهى زاحفاً خلف عربة موريوس[1]».

رفع للحظة موس حلاقته عالياً ثم استأنف الشحذ. أمسك بطرف الحزام الجلدي، أزال الشفرة بحركة صغيرة سريعة، ثم أعادها، وعاد بالاتجاه المعاكس، وبدأ من جديد.

«رجلهم فارسانجيتوريكس[2] مات في السجن! لقد نسينا رجلنا نحن، الذي قاوم تماثيل القيصر والعبقرية اللاتينية. لولا ذلك، لكنا ما زلنا نشرب

(1) يعد يوغرطة من أهم أبطال المقاومة الأمازيغية الذين وقفوا في وجه الحكومة الرومانية االتي أرادت تقسيم نوميديا (نوميديا هي مملكة أمازيغية قديمة عاصمتها سيرتا (حاليا تسمى قسنطينة) قامت في غرب شمال أفريقيا ممتدة من غرب تونس حالياً، لتشمل الجزائر الحالية وجزءاً من المغرب الحالي)، بعد أن وحدها الملك ماسينيسا ووسع نفوذها شرقاً وغرباً وجنوباً. ولد يوغرطة المازيلي في نوميديا سنة 118 قبل الميلاد، وهو سليل أسرة ماسينيسا الحاكمة، ومن ملوك قبائل نوميديا، تولى الحكم بعد وفاة ميسبسا (148–118 قبل الميلاد) الذي وسّع التجارة الداخلية والخارجية بين مملكة نوميديا ودول حوض البحر الأبيض المتوسط. واستطاع الملك يوغرطة بحنكته العسكرية أن ينظم جيشا أمازيغياً مدرباً، وأن يقوم بإصلاحات اقتصادية واجتماعية قصد التصدي للمحتل الروماني الذي أقام سدا أمنياً عتيدا لحماية المركزية الرومانية في أفريقيا الشمالية ضد الثورات التحررية الأمازيغية المقاتلة. مقاومة يوغرطة ستؤثر بشكل سلبي على سياسة روما بعد أن ذاقت القوات الرومانية الغازية مرارة الهزائم المتكررة على أبواب نوميديا، لكن مقاومة يوغرطة لن تدوم طويلا لكي يقتل هذا الملك الأمازيغي الشهم خيانة وغدرا على يد الرومان سنة 106 قبل الميلاد.

(2) فارسانجيتوريكس: ولد في (80 قبل الميلاد) في أوفارني، هو ابن زعيم غالي (من بلاد الغال الأوروبية). جمع شعوب الغال وقادهم في محاولة لدحر الغزاة من الإمبراطورية الرومانية وقائدهم يوليوس قيصر. هزم في بألزيا وأدخل السجن، ثم أعدم في روما، بعد اعتلاء قيصر سدة الحكم.

الميد[1] وننام في الكهوف. رفضوا كل شيء، تحاربوا، قتلوا بعضهم بعضاً من أجل حقلٍ مسلوب، وعربة مسروقة، لأجل ماعزٍ رعت حيث لا يجب، لأجل حركة، كلمة، إنها الوصمة. كرامة العائلة والقرية، وتلك الحرمة الشهيرة كما أعتقد، كلها معرضة للخطر. يرجمون النساء في الساحة، ويقتلون من أغراهم، كن أكيداً، كل ذلك عبثاً».

رمقه دوبوي ساخراً بطرف عينه. العملية نفسها. أصبع يزيل الصابون عن الشفتين، ثم موس الحلاقة ثم كلمة صغيرة.

– زوجة المقراني نفسها لم تتمكن من مقاومة سحرك. في النهاية، ربما ليست عجوزاً، هؤلاء يتزوجون بفتيات في الثانية عشرة. وفي الخامسة والعشرين... ربما لا تكون السيدة المقراني قد فسدت بعد، اليس كذلك؟

– إن شئت أن تتذوق...

زرّر له دوبوي قميصه ونفض الغبار عنه.

– شكراً، أنت تقترف خطأً. تنتظر الكثير من الآخرين، وتعطي الكثير أيضاً.

– وماذا عن الحب؟

رد بضحكة صغيرة:

– ما زلت تؤمن به؟

كان الكولونيل الجالس في مدخل الجامع، خلف طاولة متداعية، يدقق في خريطة القلعة التي حملها ضابط من الهندسة. رفع رأسه الكبير

(1) الميد خمرة مكونة من العسل والجعة.

المائل إلى الشقرة وكأن الحرب زادته وزناً، مرّر يده البدينة على شاربيه ثم أزاح قليلاً قبعته المتروكة فوق الأوراق، وضع يديه على الطاولة ونظر إلى هكتور.

«نساء المقراني، يبدو أنهن في عهدتك. الجنرال وافق على تركهن هنا. لقد لامونا كثيراً. كنت لأقدمهن بكل رضا للرماة لأن لا قيمة للشهامة. لقد رأينا كيف اقترفت القبائل المذابح وقتّلوا ونهبوا، وعلينا أن نصفي حسابنا معهم. افعل كما تشاء غرييه.هناك مدفعيتان منصوبتان باتجاه منطقة نفوذ المقراني. صباح الغد سنطلقها عليهم، كلاك، وكل شيء سيسوى بالأرض! أربع رشقات فقط لكي لا نبدد القذائف. وبأساً لمن يمكثون في الأسفل. أتوافقني الرأي دوبوي؟».

رأي دوبوي؟ كان ذلك طبيعياً. تخطى الكولونيل قائد الطابور كله، وقائد كتيبتين للفرقة الرابعة من الزواويين ليعود لقائد الكتيبة الأقدم، وليجد هكتور نفسه تحت إمرة دوبوي. قديماً، سبب العداء بينهما المتاعب، ولكن مصالحتهما أنهت كل شيء.

– لقد استضافت نساء المقراني غرييه على العشاء.

– صحيح؟ حسناً، استمتع عزيزي، ولكن كن هنا عند الفجر. وبالطبع لن أفتح النيران، قبل أن أتأكد من أنك بت بأمان بيننا.

– والنساء؟ سأل غرييه.

– أتركهن حيث هن، سينتهي بهن الأمر مثل الباش آغا. بعزة. ماذا يمكننا أن نقدم لهن أفضل من ذلك؟

3

مشى المعاون على خطى سيده النقيب الكبيرة، الذي صعد عبر الممر الضيق المحفور في الصخر.

وجهه المشدود، ووقع خطواته على الصخر المتبلر، كانا يدلان على غضبه. لقد تحدث الكولونيل بلسان سانت– آرنو. فهو معروف، بأنه من أخضع الأوراس والقسنطنية[1]! يمكننا مقت هذا الحيوان الحربي الذي يزرع خلفه الدمار والموت. ولكن الكولونيل، أي حماسةٍ لديه لارتكاب الفظائع؟ «القذر...» كان يفكر هكتور. «سيحمل غلايته عند الفجر، ليعد فيها القهوة تحت خيمته وهو يشاهد القصف، مبتسماً. دائماً هناك من سيلعب دور البروسيين».

من الأعلى، يمكن رؤية المنازل المكحلة للقرية، حديقة الخيول، خيم

(1) مدينة قسنطينة هي عاصمة الشرق الجزائري. أما قصة سانت آرنو مع المدينة فهي تلك المجزرة التي ارتكبت بحق أهلها تحت قيادته. خرج الجنرال سانت آرنو من مدينة ميلة يوم الجمعة 9 مايو 1851 بجيش كبير قاصداً مناطق الشمال القسنطيني حيث تقطن القبائل التي لم يتم بعد إخضاعها رغم المحاولات الكثيرة التي كان قد قام بها الفرنسيون منذ العام 1839. وما إن سمعت القبائل بانطلاق حملة الجنرال سانت آرنو حتى سارعت إلى لم شملها وإعداد المقاومين لسد الطريق عليه، وبالفعل تم التنسيق بين القبائل وإعداد جيش من المقاومين قوامه أكثر من 4000 مقاتل. بعد يومين من انطلاق الحملة، كان الجنرال سانت آرنو قد بلغ بجيشه مرتفعات أولاد عسكر، فما إن دخل أراضي القبائل حتى انقضت عليه فرق من المقاومين في معركة شرسة دامت يوماً كاملاً، تكبد خلالها الفرنسيون بعض الخسائر مما عطل سير الحملة، فانتقموا بقتل الشيوخ والعجائز والأطفال وأحرقوا المنازل. وعندما أكمل سانت أرنو حملته وبلغ منطقة الركابة، تلقى جيشه ضربة قاسية من طرف مقاومي القبائل فألحقوا به خسائر كبيرة قدرت حسبهم بخمسين قتيلاً ومئتي جريح، فلجأ الجنرال إلى قانون الأرض المحروقة وبدأ في اليوم التالي بالتقتيل والنهب والحرق والتخريب ضد سكان كل من بني عيشة، بني حبيبي وتايلمام، وبلغ عدد الضحايا في هذه المجازر أكثر من 400 قتيل و1000 جريح، وحينئذ رفعت بني حبيبي الراية البيضاء.

الكتائب، والحركة حول الجامع. ألعاب. أجواء سعادة في المعسكرات. هدأ الهواء، فاحتبست الحرارة، الشمس بدأت تتهيأ لتتدحرج خلف الجبال وسهول قمح سطيف الواسعة قبل بحيرات الملح والرمال. من طوفان الصباح، لم يبق سوى صفاء ضوئي لا يصدق، رقة حزينة، بقع لازوردية عند الهضاب: إنها سترات القناصة التي نشرت لتجفف، والذين يحضرون الآن النار لليل. قد تهب عاصفة.

مجرد حضور معاونه يطمئنه. أربع رشقاتٍ من ثماني قطع كل منها على أولاد عيسى، أي اثنتين وثلاثين قذيفة ليس بالشيء الفظيع، لحظة قاسية عند سقوطها فقط، ويكفي ألا يكون في الأسفل. تعجل للقاء كريجه، والشاربين الكبيرين لألّر وسوفمانْي الصغير. سيصطحبهم معه إلى العشاء عند عائلة المقراني، فالقائد لا يمكنه أن يتحرك دون مرافقين.

– هل تعتقدون أن السيدة المقراني حضرت لنا الكسكس.

– ليس لديهم سوى هذا هنا، كيف يسمونه؟ السكو أو أيضاً الطْعام. من أجل ضيف مثلك، يجب ذبح غنمة كاملة في حين لم يعد لديهم مواشٍ. إذن ماذا، هل سيحضرونه باللحم المقدد، الدجاج؟ الدجاج مرتبة ثانية، وليس مع سميد الشعير. فهذا الأخير هو للفقراء.

كسكس بسميد الحنطة والزبدة، وليس الزيت. وبعد ذلك، كعربون شكر، أربع قذائف. هل قال ذلك لدلفيني أم لا؟ لا، لا له ولا لسواه. ثم لماذا السخط، لماذا الخوف من أن نكون بلا رحمة؟ لقد أصبحت ألمانيا بلاداً عظيمة. في رواق قاعة المرايا في قصر فرساي، أنشد الأمراء المتحالفون وأهدوا التاج الإمبراطوري إلى ملك بروسيا. فمرسوم الإمبراطورية الجديدة الفرنسية سيوقع في إفرحونن والقلعة.

«لن نذهب خاليي الوفاض. أحضر لي بسرعة حصتي من السكر والقهوة مع كيس من القمح على ظهر الحمار».

بدأت كتفه تؤلمه من جديد، غريب أمر الجروح. وكأنها كائن حيّ، حيوان يسكن في داخلك. أحياناً ينام، وأحياناً أخرى يخّر كالقطّ، ومرات يستفيق وينشب أظافره فيك.

تحت سقف الجامع، كان ضباط الكتيبة يشربون القهوة. نهضوا. أنهى قصيري جولته الاستطلاعية على القرية. ولكي ينتقم من المرأة العجوز، فقد كسر لها كل النول في المنزل.

«ستعودون غداً صباحاً أيها السادة، إلى بجاية، ومن هناك بالسفن إلى الجزائر».

أضاء وجه كريجه، فهو يسكن في البولفار المطل على البحر. تخيل نفسه يتكئ على الشرفة، ويتأمل المرفأ، وينظر محاولاً تبيّن مناطق القبائل، ليدل السيدة كريجه عليها، ويحكي لها عن إفرحونن والقلاع وعن النقيب غريبه أيضاً. «آه، إنه لشخصية خاصة...». يتراجع، ويردد لنفسه أنه بخير، لكنه يشعر بنوبة تعب تنسحب على عظامه، ويفكر بالذهاب للعشاء في مطعم الباشري. فقد عاد مدخراً بعض المال، إذ قبض مكافأة نهاية الحملة العسكرية، لذا يمكنه أن يشتري بعض سمك سلطان إبراهيم وبطاقات حفلات في الأوبرا...

«هذا المساء، سأصطحبكم جميعاً، ما عدا النقيب قصيري الذي سيؤمن الحماية في الأثناء. هل تريدون؟ وأنت سوفمانيْ، ألا يفاجئك ذلك؟».

تأهب الضابط الشاب.

– لا أعتقد، أننا في فرنسا دعونا يوماً البروسيين، تابع غريبه.

– لا يمكنني أن أؤكد لك، قال ألّر. إن فهمت جيداً، فهل سيعرفوننا على شابات؟ سوفمانيْ، عزيزي، ستكون حفلة جميلة.

– لسن الصنف الذي أحبه.

– انتظر حتى تراهن، قال هكتور.

– أنا، قال كريجه بطريقة متوقعة، لن أقول لا.

ظهر دلفيني.

«إنهم في انتظارك سيدي النقيب».

كان الشيخ يراقبهم أمام الباب. عند دخولهم، طالعتهم رائحة خفيفة، دافئة، بعطر القرفة والعسل، ممزوجة برائحة الصلصة؟ في الأسفل، بالقرب من الجامع، أشعلت النار. وقد تسبب الخشب بالكثير من الدخان الذي تصاعد عامودياً باتجاه الجبال ثم مال غرباً. ومن مكانٍ قريبٍ جداً، صدح صوت غناء رماة قُصَيري.

«يحتفلون بما سرقوه، فكر هكتور. ومخافة أن يُسرقوا بدورهم، فقد حرسوا البغال طوال الليل. غداً، في المعسكر، سأبيع غنائمهم في المزاد العلني... وسيهدد قُصَيري بترك الجيش، وسيقول إن ذلك ليس عادلاً وإنه لم يلتحق بنا، كما رجاله، إلا بشرط أن تؤول إليهم غنائم الغزوات. مثل زمن سكيبيو وهنيبعل وبوجو. في السبعينات، أفرغ البروسيون القصور قبل إحراقها... لديك حق قُصَيري، بيد أن عائلة المقراني لم تكن مجبرة على استضافتنا على العشاء، فهي تستقبلنا بآخر ما لديها من سميد ولحمة. عندما يعاملني أحدهم بصداقة فإنني أعامله بالمثل. أنت تعرف العرف الإسلامي في الضيافة، لقد اختبرته في ديارك. فكل غريب يأتيكم هو مرسل من

عند الله، أنتم تستقبلون بذلك الرب. نصل مع كتائب وقوات ومدافع، تفتح لنا عائلة المقراني الباب، غير أنك لم تغفر لهم عدم دعوتهم لك أيضاً. بالنسبة للعائلة كما للمترجم، أنتم مسلمون، تتقاتلون، تنهبون وتذبحون بعضكم بعض. المترجم، مضطرون للخضوع له ولكنهم يرهّبونه بطريقة أخرى. أنت قصيري بنقطة دمك السوداء... لدى القبائل، العبد لا تتم دعوته إلى مائدة الأسياد. فمرابطهم تهدد من يرتبط بصداقة مع عبد، بأكل الجيفة. هل ستفهم ذلك إن رويته لك بشكل مفصل؟ فنحن لسنا على عجلة من أمرنا. كل هذا من الماضي. لديّ الكثير من الأشياء لأقولها لك. اسمع، قُصَيري...».

4

«جلسنا على السجاد حول صينية نحاسية كبيرة مليئة بقطع اللحم، وأسندت ظهري إلى الحائط بعدد من الأرائك وجلست مكان القائد، حيث كان يرتاح الباش آغا عندما كان يأتي إلى القلعة، فيما توزع البقية حولي. إلى يساري، المترجم الرقيب، ثم دلفيني، وعلى يميني الشيخ ببرنسه القذر، والملازم أول كريجه؛ في المقابل النقيب ألِّر، والملازم أول سوفمانْي بينه وبين دلفيني. انتهى النهار، وما عاد بالإمكان الرؤية بوضوح، قنديل أشعل في كوة الحائط. طالما كان الضوء يشع من السماء، كان كل شيء يبدو سهلاً. ما إن اختفى الضوء، حتى أثقلت الجبال بظلها مهددة، وبدا صراخ الحيوان كاستغاثة، والنجوم كمشاعل جواسيس، وبات الصمت لا يطاق. في الليل، نحب أن نسمع صوت الخيول، والبغال تجتر العلف، هازة رسنها، شتائم الساسة الذين علقت أرجلهم في الحبال، ثرثرة المشاة،

ألا يعرف هؤلاء النوم؟ وخطوات الحرس والمناوبة. والأفكار التي تقتحم الفكر، صور النساء التي تستفيق، دائماً النساء، الإغراء الذي يضفينه على الأحلام، الأهمية التي يحتلانها، كيف يمكن تخطيهن، وتحمل هذا الوجود البربري للسلاح، والنوم على الأرض، السير، السير محملين بكل هذه المعدات، والتموين، واستنشاق غبار الطرق، والتعثر فوق الصخور، والتعرق، وشرب الماء الذي يسبب الإسهال، وتناول أطعمة الجيش المقيتة، وتبادل الشتائم، في حين أن هناك مدناً ووظائف سهلة وأعرافاً أخلاقية؟

أتت زوجة المقراني تصافحنا بيديها الاثنتين، على طريقة الضحية. كانت متدثرة: فستان غامق ضيق ربط إلى الخصر بحزام صوفي وعلق عند الكتف بدبوسين فضيين، شعرها ملموم في قبعة حريرية زهرية مثبتة على الرأس بمنديل أخضر، كما أعتقد. لم أر جيداً وجهها، بدت لي أطول وأنحف، بلا شك لأني كنت جالساً. وإذ بالفتيات يظهرن مع طبق كبير من الكسكس وقدر الصلصة وملاعق الخشب.

عندكم في تلمسان، كن بقين متواريات. لدى القبائل، يمكن للفتيات الظهور دون حجاب أمام الغرباء وتناول الطعام أمامهم. يحصل، كما قيل لي، أنه عند المساء وفي الفصول الجميلة، يتجمع النساء والرجال يغنون أمام البيوت. ما كان بإمكان أحد أن يجبر هؤلاء الفتيات على الخروج من جحورهن، كان بإمكانهن أن يحضرن كل شيء قبل وصولنا، ويتفرجن علينا، ويتحدثن عنا في ما بينهن، ولكانت الأم هي من خدمتنا. الأمر لا يتعلق بالحشرية فحسب. وبما أنهن قلن إنهن لسن متزوجات، توقعت رؤية طفلات. إحداهن، ابنة بومزراع، وهذا ما عرفته لاحقاً، كانت في الخامسة عشرة تقريباً، ولكن الأخرى التي وضعت أمامنا الطبق الهائل

المحفور في جذع شجرة زيتون، كانت امرأة، واسم الله عليها، أيها الملازم الأول قُصَيري، كم كانت... فأنا أبحث عن الكلمة. كما قلت لك، كنا بالكاد نرى، فعيوننا لم تكن بعد قد اعتادت العتمة، كما أن أنظار الآخرين تعلقت بهرم السميد الساخن المصقول. بما أننا نحب هذا، وبما أننا جائعون، ولم نأكل منذ أسابيع سوى طبيخ الزواويين، سيسيل ذلك لعابك وستتعجل بغرز الملاعق في السميد لتذوقها صافيةً قبل خلطها مع المرق، ولتتخم بعد ذلك، ليس عليّ رواية ذلك لعربي.

حسنا، عزيزي، أنا لم أشم إلا هذه الفتاة، باقة آس وورد وياسمين. ستقول لي إنه كان عبق الكمون، جوزة الطيب، والزنجبيل، والبهار الحلو، والكزبرة والشمرة، الزرارا كما أعتقد، والبقدونس العربي، وستقول إن لدي حساسية شم عالية على الروائح التي تفجر داخلي حيوية خطرة، كما مثلاً مع مارغريت، ففي المرة الأولى التي التقيتها، كانت رائحة الخروب والروث في الإصطبل هي التي أثارتني. ربما. في ذلك اليوم، عندما اقتربت من المرأة التي أصبحت زوجتي، لم أشم على صدرها سوى رائحة الشمس؛ عبق قوي، صاف، حاد. جلدها، لم يعنِ لي شيئاً. ذكرى غامضة لصابون أو ماء ينابيع. لو شممت حينها العرق على جلدها، لهربت.

لم يكن هناك سوى هذا. هذه الفتاة بالكاد شممتها ليحدث في داخلي شيء ما، في النهاية ليس أنت من يجب أن أقدّم له الدروس، فأنت أدرى مني بمقدرة النساء على الإيحاء. لقد رأيتهن أنت أيضاً، فلن أفاجئك إذن، وكنت ربما لتضيف أكثر وتؤكد. هل سأحبط؟ نحن حيوانات معقدة جداً. لديها عشرون عاماً على الأقل، من المفترض أنها متزوجة ومات زوجها، لأن رجلاً حياً ما كان ليترك امرأة مثلها خلفه، بوصول الجيش الفرنسي

مع فرقة المشاة. أو أنها مطلقة. على أية حال، فهي تعرف كل شيء عن الحياة، لم تكن خائفة من شيء، ومثل مارغريت عندما نزلت عليها مع سيدي الجنرال، ذات يوم صيفي في متيجة، كانت تنتظرني.

إنه غرور من جانبي؟ ألم تسمعني عندما قلت لك إن النساء علمنني التسامح والتواضع. مثل نتوء صخري في الظلمة التي تسبق العاصفة، أنزلت هذه الفتاة فيه الصاعقة. فقد تسللت مثل ظل، انحنت، وضعت طبق الكسكس فوق الصينية، بالكاد لمست كتفي، وتراجعت في الوقت الذي كانت الأصغر سناً، ابنة عمها، توزع الملاعق لكي لا نأكل بأيدينا. لم نكن نعرف كيف نجلس وأكثر من ذلك كيف نأكل بأصابعنا. التقط كريجه شيئاً ما، إذ ضبطته وهو ينظر إليّ. إلى يميني انحنى الشيخ يخلط الكسكس، لقد فقد كل أسنانه تقريباً، رمى قبعته إلى الخلف، فلمع رأسه الذي يشبه رأس الطير الجارح من تحت عمامته، وأضيئت وجنتاه المتغضنتان. من باب الاحترام أخذت أنظر أمامي، ألّر الذي دعم مؤخرته بوسادة كي يتمكن من الغزو بشكل أفضل، وسوفماني الذي بدا عليه بعض الضيق، صامت بدور الموبخ الذي يحب أن يلعبه دائماً خفية. وجدت نفسي غريباً بعض الشيء، لم يكن هناك سوى العجوز والمترجم جالسين بالشكل الشرقي الصحيح، الفخذان مطويان بسلاسة في حين كنا نحن مربكين بأحذيتنا الثقيلة من الجلد القاسي، وبناطيلنا الضيقة وقمصاننا المحكمة. بدأت بتذوق الكسكس أمامي، في الحصة المقدرة لي، التي ترطبت أساساً بالمرق، مع قطع الغنم، والخضار المرصوص بعناية. لم يكن دلفيني مخطئاً: كسكس السميد لكبار القوم، مع الزبيب، المطهي ببخار الحليب، لا أعرف كيف يعدونه، ومع العسل. لا شيء مشتركاً مع طريقة إعداد هذا

الطبق في الجزائر أو في السهل. كسكس الحفلات، كسكس النبلاء. ارتمى ألِّر بكليته على الطبق، علقت حبوب في شاربيه لكنه لم يكترث لها، حشا بطنه وغمز لي سعيداً، يا له من محظوظ، فالطعام كافٍ لجعله سعيداً.

في هذه اللحظة، سمعت صراخاً بعيداً غامضاً، حاداً على شكل مواء. ركزت جيداً، إنه البوم. أو إنها روح الباش آغا تصرخ في حين أن جسده يتقلب على بعد خطوات منا، في أسفل الجامع. جميعنا رأينا قبره. لم يكن لدى بني العباس متسع من الوقت لبناء صرحٍ من الرخام تحفر عليه سورة محمد: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق» فربما كان الباش آغا يعترض هكذا على استقبال زوجته لنا وعلى جلوسي في مكانه.

5

«صرخات البوم في القلعة تذكرني بصرخات روارغ[1]، أي تطابقٍ هذا! كيف يمكن ألا نؤمن بالإشارات عندما تكون بهذه القوة؟ الموت والحب، موت الجنرال دو رواي وليلتي مع أرملته، موت المقراني وزيارتي لمنزله. لقد قلت لكم إنني أبحث عن الكلمات لوصف ابنته. لا اريد أن أستخدم كلمات مبتذلة. وصف فتاة بأنها جميلة، يا لرداءة التعبير. لدى كل منا أفكاره عن الجمال. دعنا لا نتكلم عن مارغريت، ولكن عن امرأة في الأربعين مثل سابين دو رواي! لم ترها في قصر الآغا ولا ليلة حفلة الوداع، عندما ظهرت لي في دار باخ حاملة المشعل في يدها، وعندما قدمت لي العشاء وشربنا على شرف الاستراحة الأبدية لزوجها الذي كان راقداً في

(1) Rouerg مقاطعة فرنسية.

الدور الأول، عندما بكت، في حين، كنت واقفاً أقدم التقرير الشفهي عن حربي، ولا لما خرجنا من غرفة الحداد. يا عزيزي، نحن ما عدنا ملك هذه اللحظات. فالحب يجري خلف الموت، يدفعنا، يجرنا، يحملنا. لا شك أنه لهذا السبب تحلم النساء لهذا الحد بالخيول. أكانت فعلاً ابنة الباش آغا والمقراني جميلة؟ لا فكرة لدي، بالكاد رأيتها. جميلة، لا ليس هو التعبير الذي سأستخدمه. ليس من هذه الكلمات الخادعة، لا مشاعل فضية، ولا قمر ولا أكاذيب ولا أوهام. ببساطة البوم في القلعة تصرخ باللغة نفسها تلك التي في روارغ لتنشد الحب والحرب وعدمية ما يحصل وفي الوقت نفسه قيمته التي لا تُعوّض.

طلبت همساً من المترجم أن يعيد عليّ مرة أخرى اسم الفتاة. كان الجميع منشغلاً بالأكل، غير منتبه لسؤالي. سأل المترجم زوجة المقراني التي تظاهرت بعدم السماع، تنبه الشيخ ولمعت عيناه، وخيل لي أنني رأيت ابتسامة ترتسم على شفتيه. أعاد المترجم طرح السؤال. أجابت المرأة وقد استدارت وكأنها بصدد أن تبصق. ابنتها مطلقة واسمها... يحصل أحياناً في القبائل أن يسموا بناتهم بأسماء عربية. تخيلتها جميعها: الكمال، الحياة، النجمة، النقاء، الوردة، الريشة، اللؤلؤة، المباركة، ولكن ليس هذا: عافية. عافية! يا له من اسم مضحك!

ماذا لو لم أتحرك؟ لقد قال الكولونيل: «أنا رجل طيب، لن أطلق النار قبل أن أتأكد من سلامتك...». ها تفضل يا صاحبي، بما يمكن للصواب أن يوحي لك. لا ضرورة للتحايل أو التظاهر: فمهما قال النقيب دوبوي، لو كانت زوجة المقراني وحدها مع الشيخ، لحملتهما على البغل وفتحت لهما أحد الممرات مع كل التبريكات، ثم هوب، لن أعاود التفكير بهما

ثانية.

جلت بنظري على الطاولة. سيكون عليّ أن أستسلم لخسارة كل ما أحبه في مارغريت وكل لقاءات السيدة دو رواي. أنت أيضاً، عزيزي، لقد قدمت أفضل ما لديك، سأشتاق إليك. أنظر إلى غرابة الموقف: في هذا الحوار الفردي، قدمت لك وصفاً للعشاء الذي لم تدع إليه، أحدّثك وكأننا نمشي كتفاً على كتف في هذه الأرض المدوخة التي سلكناها هذا الصباح تحت مزاريب الماء. إذن نحن لم نفترق ولن نفترق. وإلا ما كان بالإمكان أن أقيم معك هذا الحوار. لنكمل.

بما أن ألِّر بدا سعيداً، سألته كيف يرى ذلك فأجاب: «لو كان ذلك صادقاً، فإنه لفعل نبيل».

سكبت لنا ابنة بومزراع مصل اللبن في أقداح، أيضاً من النوع الفاخر. شرب ألِّر ومسح فمه.

«والحليب أيضاً حامض، أليس كذلك؟ ليس مزعجاً بالنسبة إلي».

دخلت عافية من جديد مع إبريق وزبدية تدلت تحتها منشفة. كان بإمكاننا الاستغناء عن الاغتسال، فقد أكلنا بالملاعق. لكنها التقاليد. توجهت عافية في البداية إليّ. غسلت يديّ باحترام، وإلى حدٍ ما مثل كاهن لحظة الاغتسال قبل تقديم الذبيحة الإلهية. لا أعرف لماذا لم أنسَ يوماً الشعيرة منذ أن كنت أخدم في القداس. في دفن أورتينس، بصعوبة تذكرت «أبانا»[1] لكنني تذكرت الكلمات اللاتينية بلا تلعثم. فقد صدمني ذلك. لافابو إينوسونت مانويس مبياس، غسلت يدي بين الطاهرين...

(1) «أبانا» والمقصود هنا الصلاة الافتتاحية لدى المسيحيين ومطلعها «أبانا الذي في السماوات، فليتقدس اسمك...».

آه، يا إلهي، من هم الطاهرون بيننا؟ رأيت عافية بشكل أفضل: لها وجه بيضاوي مثالي، من دون حنة، وهذا ما يؤكد العرق النبيل، وعينان واسعتان أبرزهما الكحل. أي حيوان حبٍ كانت، لبوة مجنّحة، هذا الوهم الذي أتحرق لاعتلائه، ينفث الرقة والنار، صرخات الغضب والنداءات السرية. بصوت خفيض جداً قلت: «عافية...» لمست سراً أصابعها. لم ترتعش. في تلك اللحظة لم أعرف إن كانت قد فهمت. باللغة العربية كلمة عافية ترد كثيراً في الحياة اليومية. روح بالعافية. اذهب بسلام، كن بسلام، أو ببساطة الكلمة وحدها، يمكنها أن تكون تحية، أو أمنية، أو شيئاً من هذا القبيل. عندما انتقلت إلى ألِّر أمامي، التفتت إليّ بنظرة خاطفة، متسائلة ومؤكدة في الوقت نفسه، سؤال وجواب: إن شئت فأنا لك. وقد خيل لي أن المقراني، الذي ما زال واقفاً، متحجراً، قد كشف أمرنا.

«لماذا تعتقد أنه غير صادق؟»، سألت ألِر.

بدا متخماً، وكان ليتجشأ بكل سرور لو استطاع.

لا أعرف. غداً سيستقبلون الرجال العائدين. وسنحكي لهم عن زيارتنا هذه. سنصف لهم كل شيء. وستتداخل الزغاريد بنعيب البوم.

لا أعتقد.

الطريقة التي قلت فيها ذلك، أشعرت ألِّر أنني أخفي شيئاً ما. شمّ المأساة فاحتقن وجهه.

– لماذا؟ هل سيحدث شيء ما؟

– لأننا ما زلنا في الحرب، قال كريجه.

ما زال كريجه عابساً، لم يوجه لي الكلام أثناء العشاء كله. لا تنقصه الغريزة.

تريت...تريت... في البداية كانت كشطاً، ضوضاء خفيفة ثم بدأت تقوى وتتسع: صرّار الليل الذي بدأ يدق نواقيسه، فهو ذكر، لأنه قادر على إحداث صرير قوي. لم يكن هناك من صرّارات ليل في قصر الجنرال دو رواي، على الأقل لم تكن ظاهرة، فهي تعيش على الأكثر في المطابخ وفي غرف الطعام حيث تقتات على فتات الطعام. لقد أفاقت صرّارات المقراني ولم تفاجأ بسماع لغةٍ أخرى غير لغة القبائل. شعرت أنها تلقي عليّ التحية. ما هو وطنها؟ فهذا يفاجئ الجميع. ابتسمت السيدة المقراني وتحدثت إلى الشيخ. فطلبت من المترجم أن ينقل لي ما قالت. «قالت إن ذلك كان غريباً، لأن الصرارات لا تغني في وجود الغرباء».

في العمق، هذا ما جعلني اتخذ قراري، أيها الملازم أول قُصَيري. أن تخطئ النسوة أو الرجال، فهذا ليس غريباً، أما الصرّار! كان عليه أن يختفي في جحره، ويحاول أن يخمّن ماذا نحمل معنا. أو أنه يسخر منا غير خائف من أن نسحقه، سيتجول لبعض الوقت بين الشقوق والحجارة، منتظراً إعادة إعمار المنزل ليعاود الغناء.

انتظرت طويلاً بأمل أن تعود عافية مع الإبريق. ذلك لا يدخل ضمن العادات. عندما نتذوق العسل، يجب أن نلحس الأصابع.

نهضت، شعرت برجليّ متخدّرتين. بدا كريجه مرتاحاً. كان خائفاً أن أعاود الطلب من المرأة أن تغني. فقد حلت مكانها الصرّارات.

«يقول إنه توقع أن تمضوا الليل هنا وأن بإمكانكم ذلك لو رغبتم».

كان بإمكاني أن أمتحن نفسي، لم أتجرأ، أعلم بأنه كان عليّ أن أخذل كريجه. لكن فكرة أن أنام في الغرفة نفسها مع الشيخ، وسماعه يحشرج حلقه، ويبصق ويشخر، دفعني لأحسم قراري. اعتذرت. بدت زوجة

المقراني محبطة.

بعد إلقاء التحية خرجنا بصمت، وتفرقنا.

6

«تحت خيمتي، قلت لدلفيني، بصوتٍ عالٍ لكي يسمعني كريجه، الذي لم ينم بعد بالتأكيد: «أيقظ الفرق تماماً عند الفجر. عندما تشرق الشمس، علينا أن نكون في الأسفل».

لم أكن في مزاج جيد. بدلت ثيابي، واضطجعت ثم أطفات الشمعة. فسادت عتمة حالكة. بقية الشمعة البائسة التي انطفأت للتو فوق صندوق الخرطوش الذي أستخدمه كمنضدة قرب السرير، كانت كافية لتبهر العين لبعض الوقت. ولكن بعد قليل تأقلم نظري. في شق الباب انزلقت نجمة. أي منها؟ حاولت أن أعرف الاتجاه ثم تخليت عن الأمر. لا يمكنني أن أوزع الأوامر بناء على ما يدور في أعماق رأسي، فالضباط سيربكون، وأخشى أن أبدو أقل حزماً يوم الغد.

أسفت لأني استسلمت لمزاج كريجه. منذ متى يعنيني مزاج كريجه؟ من يقود هذه الكتيبة؟ لكي لا أسبب أي امتعاض لضابطي المساعد، رفضت دعوة السيدة المقراني ورفضت ليلة مع عافية. أي غبّي أنا! لأنها كانت تنتظرني، عافية، ورتبت الأم كل شيء، كان بالإمكان جعل الشيخ ينام في حجرة السلم، بدلاً من أن أنام قلقاً عند طرف سريري العسكري، الذي تنغرز رفاصاته في خاصرتي، ورأسي منخفض جداً، أختنق. ليس هناك نسمة هواء واحدة. فقد صمتت الغربان، بنات آوى تتقافز عند الهضاب، إلا إذا كانت تلك مجموعة من القبائل تجمعت للانقضاض علينا

من الأعلى. بخصوص هذا، لم أكن قلقاً: فالشاب سوفمانْي كان ليتصدى لهم، والرجال، جميعهم ينامون ويدهم على حزام بندقيتهم الشاسبو.

لو نمت عند السيدة المقراني، ما كان لقراري القيمة نفسها. لكانوا اتهموني بعلاقة مخزية، في حين أن ثورتي روحية بالكامل، وكانوا ليتساءلوا إن لم أكن ضحية فتنة سحر، شراب عشق كالذي تعده النساء للغواية.

ثم بأي حال، كنت سأفيق بعد ليلة غرامية؟ ولنفترض أنها كانت مثل ليلة باخ، أما كنت لأرضى وأسعد؟ كل شيء بدا لي أقل مأساوية وتوقداً، فمع أني أخترت أن أكون ذاك الرجل الممزق، المليء باللسعات، الحرون، رفضت بلسم الحب على جروحي. أتعرف في أي قدرٍ من السعادة ستجد نفسك عندما تفيق بين ذراعي امرأة ترغب فيها. فالفرح يجعلك قادراً حتى على الجبن. كل شيء إلا هذا! لا أريد ان أكون متسامحاً لا أمام نفسي ولا في نظر الكولونيل أو دوبوي. هؤلاء يجب شتمهم، جلدهم، الإثبات لهم أنهم على خطأ، هذا ما أريده.

سأتركك الآن. لقد كان اليوم طويلاً شاقاً. أحتاج إلى ادّخار قواي لما سيأتي. من غير المفيد أن أستمر في مخاطبتك.بما أنني لن أراك ثانية، أيها الملازم أول قُصَيري. لا، عزيزي، لست مجنوناً. الحرب، الحب، الموت... اعذرني أنا... أنا تعبٌ. أريد أن أنام. أن أنام...».

الفصل الثالث

عندما أفاق صباح اليوم التالي، قرر النقيب أن يرابط في المكان كي يمنع الكولونيل من قصف القرية. ولكنهم رغم ذلك قصفوها. ليصبح النقيب دون كيشوت القدر. أما الكولونيل فينكر ما حدث.

1

فتح المرافق الباب، ودخل إلى الخيمة، أضاء الشمعة ووضع إبريق ماءٍ ساخنة بالقرب من المنضدة. الشتائم تصدح من كل مكان... كانوا يجهزون البغال، والرجال يحشون حقائبهم، ويطوون الخيم. سينامون هذا المساء في برج بوني ثم في إغِل أعلي، في وادي الصُمام وبجاية. عند الفجر، ما زالت تسمع أصوات الديوك والبوم، التي تحتفل بطلوع النهار ورحيل الليل. فالقبائل حملت معها كل الطيور ولكن ليس البوم ولا غربان الزيتون ولا الصقور.

هل يتذكر هكتور الخطابات التي ألقاها؟ بدا أقل ثقة بنفسه. ضباب في وادي روحه. عادت إليه رغبة المخاطبة. هذه المرة بنبرة ساخرة. «انهض، عزيزي، وارتدِ بنطالك، واغمر وجهك في المغسلة، ومرغه بالصابون، واشحذ موس حلاقتك بقطعة جلدٍ ثم بشحمة كفك، آه، انت لا تملك أدوات النظافة الشخصية نفسها التي عند دوبوي، لا تنتمي إلى النخبة، اكشط ذقنك وخديك حتى حدود الشفة من أجل إبراز العقد الأسود الذي بدأت تخترقه خيوط فضية. هيا، احلق، وعلى شرف السيدة دو

رواي، بضعة نقاط من الخزامى على الوجه والصدغ. كما أن المعاون صقل حذاءك كما تحب: مرآة. والآن، البلوزة البالية، حمّالة السيف، والسيف. لا احتفالية اكثر من المعتاد...».

«دلفيني، اذهب وناد النقيب ألِّر!».

طلع النهار، المعسكر أشبه بحقل خرب. الشمس تلوح برايتها النارية، القرميد والأحجار تلمع. ومن قرية سيدي حمادوش، يتلوى خط من البغال باتجاه الأرض المنبسطة في الأسفل.

وصل ألِّر، ثقيلاً، سميناً، بوجهه الوسيم وشاربيه الغضين، توقف على بعد ست خطوات، وألقى التحية. عند المرتفعات لجهة الغرب، فرقة القناصة المزينة بأبواق نحاسية كما تزين أطراف الفساتين بالدانتيلا، بدأت عملها.

«تعال يا صديقي، لنتنحَ جانباً قليلاً».

تقدما حتى آخر ساحة المخيم، بالقرب من صخرة عامودية، من المكان الذي يطل على حوض النهر وحيث يتحرك المعسكر كخلية نمل، وحيث ثبتت بطاريات المدفعية استعداداً للبدء بالقصف. علق هكتور سيفه بحزامه، فلامس طرف الغمد الأرض، ووضع يده على مقبضه.

«ألِّر، من غير المفيد أن أسمعك خطاباً، انظر إلى هذا. أتشك بما يتم التحضير له: ما أن يتراجع الجنود في الخطوط الأمامية، ستمحي المدفعية مجمع المقراني وكل من في داخله. أسلم لك القيادة. ستقود الفرق إلى الأسفل. وتأكد من أن الجميع يتبعونك».

انكمش وجه ألِّر.

– ألن تأتي، سيدي النقيب؟

– ستذهب إلى الكولونيل، وتقول له: «النقيب غربيه كلفني بأن أعلمكم أنه ليس بروسياً. ويطلب منكم عدم تدمير القرية وترك النساء يذهبن حيث يشأن. وفي حال رفضتم، لن ينزل». لا كلام منمقاً، صديقي. لا شيء سوى هذا. ولا كلمة إضافية. أعده، لو سمحت».

– أجمع الكتيبة، وأقودها إلى الأسفل، وأتقدم إلى الكولونيل وأقول....

– ممتاز. نسيت: بغال قُصَيري، تزيلون حمولتها في برج بوني، وتبيعون الغنائم في المزاد العلني. هيا، يا صديقي. لاسيما وأن كريجه لن يزعج نفسه بأن يعظني. أشد على يديك. والآن، اتركني.

اتخذ ألِّر هيئة صارمة ومشى..

حمل هكتور سيفه من جديد تحت ذراعه اليسرى، ثم مشى محاذياً المنحدر، ووصل حتى بداية المنازل، استند إلى جدار يخفي عنه الساحة. سمع صوت الأوامر ثم انطلاق الفرق، فرقة سوفمانْي في البداية، ثم المشاة مع البغال، وبعده فرقة ألِّر لحراسة الطابور. سيختنق الكولونيل، سينادى دوبوي ويقول له: «صديقك غربيه ألن يصاب، بالصدفة؟». سينظر إلى ساعته ويضيف: «كما يريد، أنا، عندما ستدق السابعة، سأطلق لنار». سيكز دوبوي على أسنانه، ويسأل ألِّر. هل بدا لك النقيب غربيه مهتاجاً؟ لا، كان شديد الهدوء. ما الذي حصل مساء أمس مع زوجة المقراني؟ هل نام هناك النقيب غربيه؟ لقد عدنا جميعنا إلى المعسكر. ماذا يفعل الآن؟ لا شيء، ينتظر. ينتظر ماذا؟ أن نخضع لرغبته؟

2

وقف هكتور، وابتعد عن الحائط.

كانت الساحة فارغة، وهناك نار بدأت تخبو. هناك حيث نامت البغال محشورة، وقد نسي وتد بين القش. آثار الخيم ما زالت في الرمل. وفجأة تذكر اليوم البعيد عندما حدثه الجنرال دو رواي عن كتابٍ علق بنفسه على حواشيه. «اقرأ هذا عزيزي. سينفعك يوماً ما...». أي كتاب كان؟

ابتسم بسخرية، ونظر إلى منزل المقراني بحنوٍ. اندفع عندما سمع وقع أقدامٍ في الدرب الضيقة وتسمّر منتظراً.

ظهر دلفيني متقدماً بخطوات واسعة، حاملاً بيده البندقية، وكأنه في رحلة صيدٍ، أشرق وجهه عندما رأى النقيب. وضع سلاحه في حمالته واقترب، ووقف مستقيماً واليد اليمين ممدودة ومشدودة على المقبض.

– أتبحث عني؟

– نعم، سيدي النقيب. لن أتركك.

ردد بإصرار الجملة نفسها. أحنى هكتور رأسه.

– أنت مخبول، يا صديقي. اسمعني، افرض أن الكولونيل تراجع عن قصف مجمع المقراني. سيحيلني إلى محكمة عسكرية. وفر ذلك عليك أنت.

– النقيب دوبوي لم يمر على مجلس حربي بالرغم من أنه كاد يقتلك.

– دوبوي لم يقترف سوى جنحة يمكن التسامح معها. هي ليست فعلاً ضد النظام والتي تعدّ جريمة كبرى.

بالنسبة لدلفيني، ما هو النظام أو الجيش أو الشرف أو الوفاء؟ غير سيده النقيب.

تجمد دلفيني فجأة مع حركة حذرة.

وإذ بحوافر حصان تطرطق على البلاطات، حصان يهرول، يبحث، يتوقف أحياناً بشكل مفاجئ حتى إننا قد نحسبه شبّ في الهواء. أمسك دلفيني ببندقيته، ولقمها. فقبل أن تفضي الدرب الضيقة إلى الباحة، تتلوى في خندق طبيعي بين الصخور. ظهر بارون، الرأس مرفوعة، الرسن طليقٌ، ركاب السرج يحف على جنبيه. تعرف إلى الرجلين، بدا وكأنه يريد الدخول في الزقاق بين المنازل، ثم وقف على مسافة وراح يدور في مكانه. جعل يحرك رأسه صعوداً وهبوطاً وكأنه يلقي التحية ويمشي بخطوات بطيئة ثم يقفز فوق عوائق متخيلة. لحق به دلفيني.

«هولا، يا حصاني الجميل...».

أخذ بارون مسافةً منه، صهل ثم ابتعد بضع خطوات، دار، انزلق رسنه للجهة اليسرى.

«إنه يمرح. وعندما سيرغب سيعود. هذا إذن...».

دلفيني، يا إلهي، إن كان ذلك ضرورياً، ولكن بارون! حصان يخضع للأسباب عينها التي للمعاون، يقطع كل صلاته، يهرب للبحث عن سيده، ويصل، جاهزاً بسرجه، حصان حربي لا يستطيع العيش دون سيده، يمكن لذلك أن يعني الكثير، لقد غير بارون كل شيء. والصرّار ليلة أمس؟ لقد انتصر دلفيني.

«لو علمت، لما كنت حضرت لك حقيبتك، سيدي النقيب».

في النهاية توقف بارون، يشم التبن. تقدم هكتور بهدوء، داعب كتفه، ضبط الرسن على الرقبة. كل شيء على ما يرام. من دون بارون ولا دلفيني، ماذا كانوا ليظنونه؟

وصل الشيخ المدثر ببرنسه القذر وبعين أشعلتها الحشرية، وهو يثرثر معبراً بالحركات.

– ماذا قال؟

– يطلب منك أن تأتي لمشاركتهم الطعام.

أخرج هكتور ساعته: إنها السادسة. كتيبة القناصة انطلقت باتجاه برج بوني، سالكة المضيق. وضع دلفيني المنظارين. في الأسفل، رفع جنود المدفعية غطاء الفوهة وفتحة المغلاق، أدخلوا طمار المدفع في الأنابيب، فحصوا الارتفاع ودقة التصويب، أخرج المساعدون القنابل وكدسوها بالقرب من البطاريات. وعند أسفل الجامع، رأى هكتور دوبوي.

«قل للشيخ أن يصمت، دلفيني».

3

دوبوي هو أيضاً كان يتفحص الساحة، الساحة، إنها مبالغة بالنسبة لما هي عليه في الحقيقة، مكان صغير محفور في المنحدرات والصخور، فجوة. رأى غريبه ودلفيني والشيخ والبقعة البيضاء لبارون. فالشيخ كان الأقل وضوحاً مع برنسه الذي بلون التراب. نزع دوبوي المنظار، تحركت شفتيه، تحدث مع ألِّر محتفظاً بمسافة منه بداعي الاحترام وتعبيراً أيضاً عن القلق. في هذه الضوضاء، لا يمكن سماع شيء، ولكن الطريقة التي تصلب بها دوبوي وطريقه كلامه برأسٍ مرفوع وكأنه ممثل درامي لحظة ذروة الحبكة، وعندما لا يعود هناك شيء قادر على وقف مجرى الأحداث الدراماتيكية، يمكن أن نتوقع، سيقول له:

– ماذا تريده أن يعني لي ذلك؟ فقد أعلن النقيب غريبه عصيانه على

النظام. اختار معسكر الأعداء، ونحن سنبقى في معسكرنا، ومن واجبنا أن نقمع ثورة، وليس أن نخرّج المتمردين. ما عاد بإمكاني فعل شيء.

– ما عاد هناك أعداء، سيدي النقيب، أجاب ألّر بصوت هادئ. هناك منتصرون ومهزومون. فهذه القوانين ليست سوى في المعارك.

– أتريد أن تكون ضابط خيالة مثل قائد كتيبتك؟ سأنفذ الأوامر. لقد انتهك النقيب غربيه القوانين، كان بامكانه أن يؤمن للسيدة المقراني طريق الهروب. ربما لهذا أعلنا عما نحضره.

– أعذرني، سيدي النقيب، أجاب ألّر.

لقد كان طيباً ألّر، أفضل مما كان متوقعاً. لم ترتسم على وجهه المستدير سوى إشارة واحدة تدل على توتره، إنهما شارباه الكبيران المرتجفان، وأحياناً عيناه اللتان تطرفان، تابع مصراً:

– نساء المقراني، وإن حملهن النقيب غربيه على الهروب... فإن القناصة مكلفون بقتل كل ما يتحرك.

– اسمع عزيزي، هذا الأمر ليس بيدي. عند السابعة، سنطلق المدافع.

رفع دوبوي قليلاً ذراعه، ووضعها خارج حزام المنظار الذي أعطاه لألّر.

– أأنت من أرسل له حصانه؟ أطلب منك ذلك؟

– لقد هرب الحصان، مثل دلفيني.

أعاد ألّر المنظار لدوبوي فعلقه على صدره. وتم دفع مجموعة الرهائن باتجاه الجامع.

4

الشمس التي توسّطت السماء تسيط على الجبال بأشعتها. وفوق الكتائب التي انطلقت، تظهر كتل الصخر الجرداء، المسننة، المخددة، المنتصبة بحدة، والضوء يملأ شقوقها بلون أزرق. وخلف التحصينات الأخيرة، يمكن توقع معبر بين الهاويات ثم سلسلة صخور أخرى ملونة بالورد والذهب مع وعورة ومنحدرات، موطنٌ للصقور والأروية[1]، ووديان غامضة، قمم مسننة تتعلق فيها غابات صغيرة، وفي مكانٍ أبعد بقليل، شقرة رملٍ وأرض محروقة. في هذا التصميم، يمكن سماع صوت الرب. في الأسفل، وعند آخر القرى، حركة حشراتٍ، ثمانية مدافعٍ تشبه الألعاب في مشهد لا حدائق فيه ولا أشجار مثمرة، حيث لا تعيش سوى الماعز والحيوانات البرية والبشر.

نظر هكتور أفقياً إلى يدي الشيخ النحيفتين المسندوتين إلى رسن بارون، وقد لفحته شمس الصباح، رأسه مثل صخرة جرداء مجرحة، رخامية مضلعةٍ، مغطاة بالإشارات المتشعبة بكل الاتجاهات مثل راحة يدٍ، في بعض مواضعها الرسم المتقن للجلد، وفي مواضع أخرى الضربات الخفيفة لموس الآلام، جروح بالكاد ملتئمة.

استدار هكتور باتجاه المنحدر، من حيث ستنطلق القذائف صافرةً. بعد خمسين دقيقة في الأكثر. لهب قصير سيخرج من الأنابيب مع بعض البخار، وسيحدث الانفجار قبل زمجرة القذائف. الموت تحت قنابل البروسيين، يمكن تبريره. الموت من أجل امرأة نبيلة، كما قال دوبوي، أليس مضحكاً؟ «يا عزيزي، فكر هكتور، هل لمست واحدة فقط؟ أنا لا

(1) أروية هي نوع من الماعز.

أتحدث عن عجوزٍ مثلها، ولكن عن شابة تعودت أن تحلم بالحدائق على الطريقة الفرنسية، تحت شجر زيزفون معمرة وكستناء بالورود الزهرية؟ طريقتك في حمل قدح الشاي إلى شفتيك، وصحن الكوب تحت الذقن، وقرقشة بعض البسكويت قد تفتح لك أبواب القصر. أما بالنسبة إلي المرأة النبيلة، هي امرأة في كل شيء وليس في الصالونات. بعد هذا، أنت تفهم...».

– قل لي دلفيني، لو تزوجنا الآن؟ في الأوقات العادية، كنا لندفع أربعمائة أو خمسمائة فرنكٍ كمهرٍ. يمكننا أن نتزوج دون دفع شيء. أنا الكبرى وأنت الصغرى، هل تعجبك؟

– هذه أو واحدة أخرى...

– فقط، ما يلزمك هو أن تتكلم لغة القبائل، على الأقل لن تكون مضطراً إلى تعليمها الفرنسية.

– لا يمكنك أن تفعلها سيدي النقيب. أن تنام طوال العام بالقرب من أكياس الفاصولياء والحمص... وفي الشتاء كل شيء سيكون مظلماً، الصخور والجبل والبيوت والناس.

– أنا وأنت، دلفيني، لا أعرف إن لن يحسبوننا في البداية متمردين. نحن مجنونان، دلفيني، ولكننا أيضاً رائدان. سيبنون لنا في النهاية تماثيل في شارع إسلي قبالة الأب بوجو. ربما ليس المستوطنون، ولكنّ الآخرين، هؤلاء الذين سيأتون بعدهم والذين سيتحدرون منا. «إلى المؤسسين لجيل جديد، إلى أسلاف جياد الشمس...» مع تبريكات رئيس الكهنة وكبير المفتين. هيا لنبحث عن هاتين السيدتين.

لحق بهما الشيخ بحذر، ربط بارون أمام الباب، ثم سبقهما، وتناهى صوته متحدثاً إلى السيدة المقراني، وعاد، فأشار إليهما بالدخول. تفحص هكتور ساعته.

«تبقّى أمامنا أربعين دقيقة، في الجيش هناك دائماً هاجس الدقة. ألم يبدو لك ساذجاً، دلفيني هذا المهووس بالدقة؟ بالنسبة لي بلى. ولكن هل يجب إدارة الفوج والعتاد دون العودة باستمرار إلى الساعة؟ أو أنه علينا التحول إلى شعراء».

أخرجت السيدة المقراني أقداحاً. الضوء يتدفق من منفرج الباب، ذباب يحوم دون ضجيج، يطير متعرجاً ويغطّ على الأيدي والوجوه.

«لا أعرف كيف يمكن إفهامهم. ألا تعرف بعض الكلمات بلغتهم؟ يا للخسارة؟».

أخرج سيجاراً صغيراً من جيبه، وقدمه للشيخ الذي أخذ يقلبه بين يديه، ثم أشعله، تذوقه بنهم ثم استنشق دخانه وقذفه شارداً.

«في طقوس الزواج، كان دائماً هناك ما يأسرني. عند المساء، عندما يقودون الزوج إلى باب غرفته الزوجية، يجدها بانتظاره. أتعرف ما الذي يجري؟ تنهض العروس، يستلّ العريس سيفه ويربّت به ثلاث مرات كتف العروس من جهة النصل. قد يكون ذلك من مخلفات الحملات الصليبية أو روما. فهم يمنحون زوجاتهم رتبة خيالة. يجب أن يقولوا لهن: ليعطك هذا السيف القوة لتتحملينني، ولتكوني مثله مستقيمة، نقية لامعة، باترة حادة. وسأحتفظ بك معي، حاميةً، شعاعاً للنصر، وحباً. عند قبور الخيالة، وحتى في أسرتهم، دائماً هناك سيف بينهم وبين النساء. سأعيرك سيفي. وبفضل بارون سيكون لنا عرس أميري: حصان بدلاً من بغل. هل

وصلت، هذه القهوة؟».

جالساً على أعقابه، متأهباً للرحيل، كان الشيخ يثرثر. فعلى الأرجح، تقلقه المدافع. عليه أن يروي للسيدة المقراني ما الذي رآه، بدأ يحرك يديه ويسوي عمامته.

– يريد أن يعرف لماذا نحن هنا، قال دلفيني.

– إنها مفاجأة، يا سيدي.

5

نظر مندهشاً إلى المرأة التي حملت القهوة، وسكبتها، وبقيت واقفةً أمام الرجال مبتسمة لهم.

«دلفيني، الوقت يجري سريعاً، لقد خسرتُ...».

لم يتعرف هذا الوجه الوقور الذي وسّع الكحل عينيه، عينا بومة، زهور كبيرة زرق ورمادية، تفتحت في النهار. «لم أكن على أية حال ثملاً ليلة الأمس، لم أشرب سوى الماء طيلة اليوم. كان عليّ أن أقضي ليلتي معها، لقد أخطأت بتشغيل خيالي...».

استلّ ساعته.

«دلفيني، اذهب وأخبرني بما يجري».

كانت عافية تنتظره ليتكلم، بلغته أو بلغة أخرى، لا يهم! فنبرة الصوت تكفي أحياناً. نسمع القلب الذي يلهم الكلمات.

أحنى هكتور رأسه. أنت لا تعرفين يا جميلتي. خلال ثلاثين دقيقة، سنسوي أنا وصديقي دوبوي كل شيء. في السابعة إلا خمس دقائق سيبدأون بالقصف مستهدفين الصخور أولاً كنوع من التنبيه. برأيي،

سيكون قصفاً مركزاً يقطعون به سبل الانسحاب لكي يدفعونا إلى النزول. سيراقبوننا متأملين أن يروننا نفر مثل الأرانب، أو مذعورين. ألِّر وكريجه سيقومون بإشارات كبيرة، سينادوننا، سيلوحون بالأعلام. لن أتحرك، ستروعون. ستصرخون، وتشتمونني، وتتهمونني بأني خدعتكم.

عاد دلفيني.

– تحركت الكتائب كلها، سيدي النقيب، ما عدا كتيبتنا، متوقفة في طابور.

– والمدافع؟

– الكولونيل خلفها، فوق حصانه.

نهض الشيخ، وأدخل السيدة المقراني.

«لم تُخدع يا دلفيني، الصغيرة ليست سيئة. بالنسبة إلي ما عاد ذلك يعنيني». أعاد دلفيني المنظار إلى غلافه المفتوح.

– كم الساعة لديك؟

– السابعة إلا خمساً وعشرين دقيقة.

– مثل الفئران، يا صديقي. الملازم أول كريجه كانت له وجهة نظر.

بدل نبرته:

– إن نجحت في البقاء، احتفظ بالصمت. وخاصة لا تجعلهم يعتقدون، أنه بسبب عافية اقترفت هذه... كيف يمكن تسمية ذلك؟ لأن ذلك سيسعدهم كثيراً. تذكر: لقد رفضت النزول من أجل المرأة العجوز. وهناك رجل آخر أريد أن أضلله، أتعرف من؟

– الكولونيل؟

– أعلى من ذلك. وأعلى من الأميرال الحاكم. ألم تعرف من؟

لا.

– الرب، يا عزيزي، الرب نفسه. سيضعني في مرتبة أصحاب العرش، السادة، الفاضلين، مراتب الملائكة الثلاثة. أو بين الشهداء. بكل نزاهة سأقول له: «إلهي، لقد اخطأت بشأني. لست سوى رجلٍ بسيط. سحقني الكولونيل تحت قذائفه لأنه اعتبرني خائناً. لكني لم أكن سوى رجل وقع في غرام امرأة. وأيضاً. فقد خلطت بين حب العدالة وحب مخلوقة. وعندما فتحت عيني، متأخراً جداً، ما عاد بمقدوري العودة إلى الوراء. هل ترضى بأن تترك لي مكاناً بين فرسانك. لن أكون جيداً سوى بقيادة بغالك. فقط، وبسبب اعتدادي بنفسي سيدي، لم أتنازل. يكفي أن أرسل دلفيني ليلوح بمنديل. وسننزل بعدئذ سالمين معافين. ونترك السيدة المقراني، والشيخ والفتاتين بعهدة القناصة».

– لن تفعل ذلك سيدي النقيب.

– لن يكون هنا النقيب دوبوي، سأحاول كسب الوقت ربما. إنه في الأسفل، اليس كذلك؟

– لماذا سيدي النقيب؟

– هل تتحمل أنت ذلك، بأن تتم دعوتك من قبل أناس وأن تشكرهم بهذه الطريقة؟ أريد بحق أن تتم إبادتهم مثل سانت – أرنو، من دون إجراءات مخففة. ستقول لي إني أنا أيضاً كنت قاطع طريقٍ. كنت شاباً، عذر جيد، لم أكن بعد قد اختبرت الهزيمة في فرنسا. في العام 57، عامل المارشال روندون القبائل كالحيوانات. بعد أربعة عشر عاماً، انتفضوا. أضع نفسي مكانهم، فالتحضر شيء آخر، أو

أنه لا يجب أن يفاجئنا أن يتحول قناصة القصيري إلى متمردين. من سيتهم حينئذ بمعاملتهم بحقارة؟ أنا وأنت؟

– أنت دون كيشوت سيدي النقيب. فقد أتت روسينانت[1] لتنضم إلينا ليكتمل فريقك. وأنا... لا ينقصني سوى حمار. يمكن العثور عليه بسهولة.

– كم الساعة؟

– السابعة إلا عشرين دقيقة.

– لنعد ونر ماذا يفعلون.

وضع هكتور يده في جيب سترته، وسحب الصليب المغطى بالورق الشفاف ووضعه إلى جهة قلبه. انحنت عافية والسيدة المقراني. سألت السيدة المقراني بإشارة من يدها عن الرأس الروماني الذي يلمع بشعره الذهبي وقطع الماس والنجمة الذهبية وسط تاج الغار الذي يعلوه.

نهض هكتور، وخرج من المنزل، يتبعه الشيخ ودلفيني، داعب بارون ومشى باتجاه الساحة، مجرداً من أي سلاح، بذقنه التي تؤطر وجهه، وبزوج حذائه اللمّاع، وصليبه المعلق، وقبعته العسكرية، وحصانه الحربي يقوده شيخ من القبائل، يتبعه دلفيني بخطواته البطيئة غير المكترثة. لم يتجرأ الجنرال دو رواي على فعل ذلك. فهو أرستقراطي، مؤرخ. هل يعرف حقاً الكثير؟ مثقف كان يقرأ الإصدارات الممنوعة، ويسمع موزارت في حين كان عليه أن يفرض نفسه ويقضي على المعارضين لسلطته، وبما أنه كان يصف نفسه بالليبرالي، كان عليه أن يجبر الآخرين على احترام ليبراليته. يمكن فرض الأفكار، إنها مسألة إرادة عندما نملك الوسائل! سيدي

(1) Rossinante هو حصان دون كيشوت في الرواية الشهيرة لميغيل دي سرفانتس.

الماركيز كان يريد الحب والورع. هكتور غربيه ابن كاتب عدلٍ، يتصرف دون تفكير. من يمكنه أن يميز الصح من الخطأ، المنطق من اللامنطق؟ كان يرغب في أن يقول له: «اتعرف دلفيني، أنا أؤمن بحالات الوعي». من غير المجدي إقلاق دلفيني، فها هو سانشو بانزا[1] التحق بسيده. كل شيء كان هنا.

6

«المنظار، دلفيني».

كان الكولونيل قد نحا دوبوي جانباً، هو أيضاً على صهوة حصانه. دون شهود يسمعونهما. عشر دقائق فقط قبل عملية التأديب. الضباط أمام مدفعياتهم، المغالق مفتوحة بانتظار انطلاق القذائف، وملقمو المدفعية جاهزون، والقطع مرتبة والإحداثيات مضبوطة. من المفترض أن الكولونيل قال لدوبوي: «لم تبدل رأيك عزيزي، ستكون الرشقة الأولى طويلة؟». «بالنسبة إلي، سيدي الكولونيل»، أجاب دوبوي، «لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بتبديد ذخيرتنا. يمكنها أن تكون مفيدة جداً لاحقاً. القرية مدمرة أساساً، ولنترك غربيه لمصيره. فإن لم يصب، سيتهمه الرجال عند عودتهم من القلعة بكل ما حصل. وإن أصبناه...». «إذن، كما تشاء، قال الكولونيل، في غضون خمس دقائق».

أعطى هكتور المنظار لدلفيني.

هذا الاضطراب في الأحشاء. ترك نفسه يؤخذ بالكلام، ألقى

(1) Sancho panza هو مرافق دون كيشوت في الرواية الشهيرة لميغيل دي سرفانتس سافدرا.

خطابات على السيدة المقراني، اختال، تبختر مع صليب، وقبل خمس دقائق من النهاية، تهشم كل شيء؟ في إفرحونن، عندما حمى وطيس المعركة، قصدت إرباك كريجه، فسألته عن شطائر الكبد. غريب. العرب لا يتكلمون أبداً عن القلب، هذه العضلة المقوّرة. بالنسبة إليهم المشاعر تحتمي في الكبد، هذا العضو النبيل الذي يقود مجموعة الوظائف الهضمية والدموية. كل شيء يمر به. فإن تقلص أو اختنق، يتوقف كل شيء. لقد رأيت الرجال وقد أفسدهم الخوف، وباتوا خرقاً، توقفت أدمغتهم عن العمل، وخارت سيقانهم، وارتعشت أيديهم، وبدأوا يتأءئون وفرُغت أجسادهم. وكأن كل شيء في داخلي تعطل. ضباب يسبح أمام عيني، دمي يغلي، أغوص في كومة من القطن، صخور من القطن؟ ألم يصفرّ وجهي؟

«المنظار، دلفيني».

عاد دوبوي، وهو يحث حصانه، وقف إلى يسار الكولونيل، على بعض المسافة منه.

وفجأة انفجر كلب بعواء الموت. عاد هكتور باتجاه المنازل في الأعلى، حيث يمتد السهل. إنه كلب بقي مختبئاً، أو أنه عاد إلى القرية ليطلب عون الرجال والسماء، كلب له رائحة الألم ينهش خاصرتيه. يمكن لنباحه أن يملأ المنحدر، فيسمعه من في الأسفل.

حرك الكولونيل رأسه.

الضباط لم يبدوا لا ندماً ولا أسفاً حيال الخارج عن القانون، لقد قطع رأسه.

لو كان هناك قسيس، لما كان بالضرورة رش الصخور لتبرئتها من الذنب. هذا الكلب. يا إلهي. الذي يعوي الموت ويزعق في الأزقة. لن تبقى جدران قائمة، فالمنازل واطئة أساساً، ستنهار حجارتها وتتكوم في المنحدر، وستتفكك كتل وتتدحرج إلى الأسفل. الجامع الطيني الصغير لآل المقراني سيحدث غيمة كبيرة بيضاء يكنسها الهواء تترك على قبر الباش آغا طبقة من الغبار والحصى. سينطلق الكلب مثل السهم، ملوحاً بذيله ليكمل المشهد: سيكون الكلب هو دون كيشوت الجديد.

تقدم الكولونيل باتجاه ضابط المدفعية. أبعدوا الجياد التي من الممكن أن يخيفها ضجيج انطلاق القذائف. وأمسك الكولونيل ودوبوي بقوة بحصانيهما، برسنين قصيرين.

فكر هكتور بأن حياته ستنتهي. «كم كانت قصيرة! لم يكفني الوقت. ما عدت أعرف شيئاً وخاصة اني لم أفعل شيئاً. لم أنظر بما يكفي إلى السماء والأرض، فقط النساء؛ يداي فارغتان. البعض سيتنكر لي، والآخرون سينسونني. فبامكان جنرال أن يربط اسمه بانتصار أو هزيمة، انا لست سوى نقيب زواويين، يودعونني سريعاً، لم أخدع أحداً، لا بل يا إلهي، ومهما قلت، فأنا لم أخدع سوى نفسي...».

الموت تحت النيران الصديقة أهو موت في معركة؟ كان جسده أشبه بمغلفٍ أجوف، رفات حيوانٍ تترصده الصقور من فوق بئر متفجر من الضوء. وعند المساء، هل ستجد بنات آوى شيئاً منه؟ يقول العرب إن من يقتله الأعداء تفتح له أبواب الجنة، وتصطحبه الملائكة إلى حديقة فيها بنات رائعات الجمال عذراوات، الحور العين، هذه هي مكافأته. فالنبي قال «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»، وإن من يقتل في ساحة الوغى

لا يخضع للحساب يوم الآخرة، لذلك فهو يدفن بثيابه الملطخة بالدماء.

«دلفيني، اركب الحصان وانصرف فوراً. في البداية ابتعد، وعندما سيضربون، انزل. وعد وانضم للكتيبة. وقل إن كل ذلك كان بسببي. وإن التقيت الكلب، اصطحبه معك. هيا، فيسا[1]. هذا أمر».

نظر إلى دلفيني يرخي حزام بندقيته الشاسبو لإدخالها في حمالتها خلف الظهر. ركب متثاقلاً الحصان وألقى التحية. تعوزه الكياسة دلفيني، فقد غرز قدميه أكثر من اللازم في ركاب السرج وأدار حصانه دون ضغط الرسن على الرقبة. إنه ضابط مدفعية مساعد...

«ليس خطأك سيدي النقيب، إنها فتاة القبائل».

هذ ا الشغف بالوعظ! هل أراد القول إنه هو، هكتورغرييه، القائد السابق لكتيبة الزواويين، وقع، في ليلة واحدة، ليس في غرام القبائل وإنما امرأة من القبائل؟ فالأمور تتعقد دون سبب، أما الشيخ فما زال يطرح أسئلته بالإشارات. جهز الجنود المدفعية. دقيقة واحدة بعد. لا أنا مشوّش، شددت على مقبض السيف بين يدي، وضغطت عليه، لم ينكسر، إذن، لست أحلم.

فصلت المدفعيات، اقتربت البغال. تم تلقيم المدافع بالقذائف. وإذ بأحدهم يظهر فجأة متسلقاً. من هو هذا؟ استكشف دلفيني بالمنظار، يبدو أنه كريجه من الطريقة التي يهرول فيها. أشركٌ؟ حيلةٌ؟

اندفع الرجل عبر الصخور، توقف للحظة، وحرك ذراعيه: «سيدي النقيب!..».

---

(1) فيسا أو «في ساعة» وتعني «حالاً»، وهي كلمة استخدمت قبل العام 1870 من قبل الجنود الفرنسيين شمال أفريقيا.

عاد للهرولة ثانية خارج الطريق المرسوم كي يقطع سلسلة الصخور التي يتسلقها مثل خروفٍ، أصبح، على بعد مئة متر، يتعثر، وتتدحرج الحصى تحت قدميه، نهض لاهثاً، ورمى جعبته التي تزعجه خلف حمالة السيف، ما عاد قادراً على الاحتمال. في الأسفل، بطاريات المدافع مثنيةً، قافلة من معدات الحرب جاهزة عند منصة برج بوني. هذا الطقس الحار، عندما نقارنه بطوفان الأمس! بالكاد بعض غيوم خلف القمم، ربما، مساء ستبرق العاصفة التي لم تخمد بعد هبوب هواء الجنوب.

«سيدي النقيب...».

استعاد كريجه ابتسامته، انزلق بزوج حذائه المصفح بالحديد، فالتمعت شرارات تحت كعبي الحذاء، كان كمن يغرق.

– ماذا هناك يا صديقي؟

– لن نطلق النار، الكولونيل يطلب منك أن تنزل.

وفجأة ساد الصمت. لا ضجيج. ولا عواء كلاب. كان عليه أن ينصت جيداً ليلتقط صوت طرطقة نحاس الأنانيب والركائز التي رصّت بشكل سيء على رحل البغال، طَرق النعال، شحرجة السائسين، صرير المعدن، صوت اصطكاك متباعد.

رفع الملازم الأول قبعته، جفف العرق الذي كان يسيل من جبهته على وجنتيه ورقبته. ذقنه تلتهم وجهه، الفرح يخنقه، نزع سترته لاهثاً.

– لم أنم منذ الليل سيدي النقيب. كنت قلقاً. أردت البحث عنك، لكن النقيب ألّح تعقبني. انتهى كل شيء. لقد ربحت. الكولونيل بانتظارك.

– لكي يكيل لي المدائح؟

– آه، لا لم يكن سعيداً. كان غاضباً. ولكن في النهاية خاف من أن يوبخ. فليس القائد الأعلى من أعطى هذا الأمر. لاحظ الكولونيل أننا كنا منقسمين نتناقش في المسألة. قال: إنه عنيد، غريبه هذا. وقد جعلني أدفع ثمن عناده. وامرأته العجوز...».

8

تقدم راجلاً خلف كريجه، والسيف في يده اليسرى، واليمنى على رسن بارون. وعلى ظهر بارون، السيدة المقراني. ودلفيني في الأخير، دافعاً بالفتاتين والشيخ.

السيدة المقراني، لقد كان النقيب طيباً جداً معها، حصان لأجلها! كان عليه حملها، اعترضت، لا تزعقي هكذا يا عجوزتي، لن نغتصبك، ليست معتادة على الأغطية المزركشة لسرج الحصان، لم تعرف كيف تتمسك، تتمايل مثل حزمة غسيل وسخ، اعتقدت أنهم يأخذونها أسيرة، ولكن لا إلى برج بوني، ومن بعدها ستذهبين حيث تشائين.

وحتى لا يبقى أي التباس، أراد النقيب أن يعرّف الكولونيل على السيدة والفتاتين وسيقود بنفسه الحصان مثل سائس. ومع سرجٍ آخر كان بامكان النسوة الثلاث امتطاء ظهر بارون معاً، ولكن لا، العجوز لوحدها. لماذا فقط العجوز، ساءل نفسه: العجوز أكثر إجلالاً، أكثر مهابةً، أكثر احتراماً. لماذا ليس هو فوق الحصان؟ ماذا سيقولون عندما سيرونه نازلاً بهذه الطريقة من المنحدر؟ فمن أجل ترك المكان للعجوز، كان بإماكنهم جميعاً أن يأتوا راجلين. فهو يحمل عروساً. والعريس الشرعي هو في القبر عند أسفل الجامع في الأعلى. وبين عينيه الطلقة التي أرْدته. زوج آخر بلا شك،

زوج سري، هي السماء، وفي السماء الشمس[1]. لا يمكن تخيل شيء آخر، كل الكلمات التي يمكن التفكير بها مؤنثة، كل الأشياء الكبيرة، العزة، العدالة، الحياة، الحرب، الحرية، الكرامة، كله مؤنث في اللغة الفرنسية، بكل معاني النبل والرفعة، ما عدا الشمس والشرف، مذكران.

من أين تأتي الموسيقى التي يسمعها؟ من الجبال؟ من الصحراء؟ هل تصطدم بغناء الرجال وأصوات الصهيل، وزغاريد الأفراح وكورس كبير، هائل، صاخب، الذي ما عاد يشبه الموسيقى الرقيقة والمعطرة للجنرال دو رواي. افتحي يا أبواب الأبدية!

«اعتمر قبعتك، كريجه!».

أين يعتقد نفسه هذا الملازم أول؟ يتعرق، هذا واضح، فقد تبللت سترته كلها. ثم لماذا صعد بشكل عامودي في المنحدر بدلاً من أن يسلك الطريق؟ صديقي، سنقدم أنفسنا لهؤلاء السادة مع فريقنا، سأتوقف على بعد ست خطواتٍ، سألقي التحية، وسأترك هنا بارون مع مرافقي. إن صافحني الكولونيل أم لا، لا يهمني، سأقود ظهراً كتيبتي إلى برج بوني، وستذهب السيدة المقراني حيثما شاءت هي والفتاتان والشيخ. وأنا سأرتب وضعي ليسلموني قيادة ما في الحصن الوطني، أو في أومال[2] أو بني منصور لأحكم القبائل، سأتعلم لغتهم، وستكون تحت أمرتي سلسلة من الهضاب، والقمم والمضائق، متطوعون من الذئاب، سرب من النسور والصقور للمرافقة.

---

(1) السماء (ciel) والشمس (soleil) هما كلمتان مذكرتان بالفرنسية وليستا مؤنثتين كما في العربية. والكاتب هنا افترض السماء والشمس كزوجين سريين للسيدة المقراني كونهما اسمين مذكرين.

(2) أومال وهو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على مدينة «سور الغِزلان» والتي اعلنوها مقاطعة فرنسية خلال الاحتلال الفرنسي للجزائري.

كريجه سيتركني من أجل زوجته الحبيبة، وقُصَيري من أجل المياه العذبة في تلمسان. سأحتفظ بدلفيني، وربما ألِّر الذي يأمل بأن يحظى بوجبة كسكس كل يوم وسوفمانيْ الصغير. أفتحي يا أبواب الأبدية، أحيطينا بزينة النجوم، لتنهمر شلالات الذهب من السماء وتتزحلق على السيول الجارفة التي تخرب المرج وتكدس الوحل في السهول! ها أنا مع بنات آوى الفتيات الثلاث وهذا الشيخ الذكر المحتال. نعود من البعيد، لقد كدتم تقتلونا بنار المدافع، أجبرتموني على انتقال قاسٍ، وليست الشفقة هي التي جعلتكم تتراجعون. ماذا إذن؟ لأننا لم نخف منكم، هذا ما يؤثر بكم. ألا نخاف؟ لو رأيتموني مستعداً لأن أهوي، لكنت دفعت غالياً، ثمن أن أبقى حياً. لقد جعلتموني أختبر أشياء هائلة، ظلمات وتنوير، صمت كبير خانق. حين تحين الساعة، ينتهي كل شيء، سيجف دمي على هذه الأرض المغطاة بغبار النجوم والقشور. أتسمعون روحي تزأر في هذا الصمت، تغطي على الضجة الخفيفة لنعل كريجه ودلفيني وصوت حوافر بارون؟ بالكاد تلمس أقدام الفتيات الأرض، تنزلق فوق وعورة الصخور، فيختلط كل ذلك بصفير الهواء ولهاث الأعالي التي تتنادى من قمة لأخرى، وهدير فيضان الوديان. لا أعرف إن كنتم محقين بإنقاذي. سانت – أرنو ما كان ليتردد. ما كان ليبقى مثلكم في الأسفل، كان سيصعد، وكان لينصب مخيمه عند السيدة المقراني ولكان عينني دوقاً على مجانة، وكنت لخدمته. لقد فوّتُ موعدي مع الرب. في هذه اللحظة سأعلم إن كان ذلك ضرورياً. من الفضاء، من المفترض أن كوكبنا يشبه القمر، لديّ إحساس بأنني أفتتح الأبدية، هناك غيوم تنسحب فوق الأعالي مثل الدخان وأشعر بالرغبة في أكل النقانق وشرب النبيذ الأحمر، أي سقوط هذا! في ليلة واحدة،

أصبحت تلك الأرض البعيدة، في فمي طعم كرز إفرحونن، أمتطي أحذية من صنع الرب، نقياً، ممزقاً، أحاول التشبه بكم من جديد...».

تحت القبعة العسكرية السوداء والحمراء المزركشة بالذهب والفضة، كان الكولونيل يهز قليلاً رأسه الصبياني، وإذا به يطلق فجأة ضحكة مدوية. أي متطوع مضحك يرافق هذه البومة العجوز الجاثمة فوق الحصان، بعينين نصف مغلقتين! بالكاد رد تحية النقيب واستدار باتجاه دوبوي، الذي كان يختفي خلفه.

تقدم النقيب غريبه في حين كان ألِّر يعوي أمام الكتيبة.

فوجئ بنظرة قُصَيري شاخصة ليس نحوه، وإنما بشكل عامودي فوق كتفه، على عافية التي كان كريجه يحاول من دون جدوى، الإمساك بها. الأميرة المغرورة، تلحق بملكها، ويتم من أجلها استعراض الأسلحة.

ابتسم. الموسيقى الخفيفة التي ما زالت تسكنه خافتة عادت إليه بغتة، بهيجة، وملأت قلبه.

التسلسل الزمني

قرنان من الزمن من الحكاية الفرنسية - الجزائرية

وضعه غوي دوغاس (جامعة باريس 12)

1770– يؤسس الأخوان ميشال كوهين ويعقوب بكري، مع يهودي جزائري هو نفتالي بوجناح الملقب ببوشناق، مؤسسة بكري أخوان وبوشناق.

1794– بأمل التجارة مع الجمهورية الفرنسية الفتية، أوصى داي الجزائر حسن باشا، وهو تحت وصاية العثمانيين، أمام مجلس الأمن الوطني، بيعقوب بكري كوكيل له.

1796– 1799 عبر وساطة مؤسسة بكري - بوشناق، قام الداي ببيع الحبوب إلى جيش بونابرت، خلال حملتي إيطاليا ومصر، وهي ديون لم يتم الوفاء بها يوماً.

1808– النقيب بوتين، الجاسوس الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر، يضع خططاً سرية لإنزال مفترض على شبه جزيرة سيدي فرج واصفاً بالتفاصيل ضواحي مدينة الجزائر.

1826– الداي حسين الذي خلف الداي حسن، يتوجه إلى شارل العاشر ويطلب منه أن يسدد، من دون تمديد ولا تأخير، ديون فرنسا، التي وصلت مع لويس الثامن عشر إلى سبعة ملايين فرنك ذهبي.

1827– التاسع والعشرون من أبريل، وخلال محادثة غاضبة مع الداي، ادعى القنصل الفرنسي بأنه تلقى منه ثلاث ضربات بالمروحية.

هدد بترك مهامه إن لم تنتقم فرنسا له. في فرنسا، حيث بدت الحكومة مربكة، أدارت الصحافة القضية. شاعران مرسيليان، ماري وبارتيليمي، نشرا تحت عنوان «الباكرياد (من بكري) أو حرب الجزائر» قصيدة ملحمية ساخرة:

كل باريس تعلم أن الداي المتعجرف
صفع فرنسا على خدها الملوكي.
لترتفع كل الأصوات
من كل التراب الفرنسي مستنكرةً.
باع البارونات أملاكهم القديمة،
وفي العروق عاد الدم القديم للصليبيين يغلي
وحمل كل شجاع في زنزانةٍ رايته،
الجميع غاضب والجميع يتسلح ولكن أحداً لا يذهب للحرب.

يونيو: أسطول حربي يرسو قبالة مدينة الجزائر طالباً من الداي الاعتذار والإعلان أن فرنسا سددت كامل ديونها! هذا الإنذار انتهى برفض حاسم ونهائي. فخضعت ولاية العرش في الجزائر إلى حصار بحري.

1830 - يونيو بعد فصول عديدة من سوء التفاهم والضغوط، وبعض الفرص الضائعة للتحاور، ينجح الفريق الداعي إلى الحرب في باريس.

14 يونيو: أسطول الأميرال دوبريه - برفقة وزير الحرب الكونت دو بورمون - يقوم بالإنزال في المكان نفسه الذي اقترحه الجاسوس بوتين.

4 يوليو: ترسو أخيراً قافلة الجياد والمعدات الثقيلة، ويتمكن الجيش من

مهاجمة حصن الإمبراطور ومدينة الجزائر.

23 – 25: يوليو، هزيمة المارشال دو بورمون أمام البليدة.

27 – 29: بعد «الأيام المجيدة الثلاثة»، شارل العاشر يتخلى عن السلطة لدوق أورليان لويس فيليب.

1831– يحتل الجنرال دامرومون – الذي مات في 1837 عند احتلال القسنطينة – وهران ولكن ليس من دون مقاومة.

1834– الثاني والعشرون من يوليو، أمر ملكي بإرساء نظام التملك الفرنسي في شمال أفريقيا، يدعم توسيع الاستيطان، ويأتي بعد الكثير من المواجهات العسكرية.

1840– الجمهورية الفرنسية تعلن الجزائر مقاطعة فرنسية. زيادة عديد الجيش الفرنسي، وتسمية الجنرال بوجو حاكماً عاماً.

1843– دوق أومال ولاموريسيير يلقي القبض على عائلة عبد القادر الجزائري، والذي وعلى امتداد خمسة عشر عاماً قاد كافة حركات المقاومة ضد الاحتلال.

1847– استسلام الأمير عبد القادر والذي لم يكن نهاية المقاومة: ففي شرق وجنوب القسنطينة العام 1852، وفي منطقة القبائل من العام 1854 وحتى 1859، وفي وهران بين 1858 – 1859، ثم مرة أخرى في منطقة القبائل عامي 1864 و1865، حدثت انتفاضات قمعت غالباً بعنف.

1852– إعلان الإمبراطورية الثانية.

1857– الأول من يوليو، يطلق الحاكم العام راندون حملة دموية في إيفرحونن، التي كانت عائقاً أمام «فرض السلم» في منطقة

القبائل، وبتلك المعركة يتمّ الفرنسيون سيطرتهم على بلاد الجزائر.

1858– الرابع والعشرون من يونيو، استحداث وزارة الجزائر والمستعمرات، وأول الشاغلين لها هو الأمير جيروم نابوليون. هذه الوزارة لم تدم طويلاً، وأعاد مرسوم 24 نوفمبر 1860 تعيين دوق مالاكوف المارشال إيمابل بيليسيه، حاكماً عاماً للجزائر.

1860– من السابع عشر وحتى التاسع عشر من سبتمبر، يزور الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة أوجيني ليومين مدينة الجزائر. الإمبراطور الذي عاد بانطباع جيد جداً عن السكان الأصليين، يمكث لفترة أطول في زيارة لاحقة العام 1864 (الثالث من مايو – السابع من يونيو).

1863– للمرة الأولى، مرسوم من مجلس النواب يضمن لسكان البلاد الأصليين حق امتلاك أراضيهم، يقول «إن القبائل الجزائرية تمتلك الأراضي التي تقيم فيها وتستغلها..». ولكن من دون تجريم كل عمليات القضم التي حصلت منذ العام 1830.

1865– الرابع عشر من يوليو، مرسوم نيابي أيضاً يحدد الوضع القانوني لمسلمي فرنسا: «المسلم من سكان البلاد الأصليين هو فرنسي، غير أنه يبقى خاضعاً للقانون الإسلامي. يمكنه أن يتجند في المشاة والبحرية، ويمكنه أن يشغل وظائف مدنية في الجزائر. ويمكنه بناء لطلبه أن يطلب الانضمام لفرنسا والخضوع لقوانين المواطنين الفرنسيين، وبهذه الحالة عليه الخضوع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية».

1870– انطلاق الكثير من الزواويين إلى الحرب ضد بروسيا مما أضعف سلطات الاحتلال في الجزائر.

سبتمبر، هزيمة سيدان وانهيار الإمبراطورية الثانية وإعلان الجمهورية الثالثة. نهاية النظام العسكري في الجزائر.

نوفمبر، مرسوم كروميه يمنح الجنسية الفرنسية وبشكل جماعي ليهود الجزائر، وهو المرسوم الذي اعتبره المسلمون تمييزياً وغيرعادل.

1871 – انتفاضة جديدة في منطقة القبائل وفي «الهضاب العليا» التي يديرها الباش آغا مقراني، أحد إقطاعيي مجانة، تضغط على السلطة، فيستغل الجيش الفرصة لإثبات قوته. مصادرات أراضٍ وغرامات عالية. المقراني يقتل في مايو.

1881– 1883– رجال «أبو عمامة» يهاجمون المراكز العسكرية غرب وهران وجنوبها قبل أن يلتجئوا إلى المغرب جارة الجزائر.

1898– الاضطرابات العرقية ضد اليهود في شهر يناير تعطي لإدوارد درومون الفرصة بالتقدم للانتخابات التشريعية. ينتخب في الثامن من مايو نائباً للدائرة الانتخابية الأولى في مقاطعة الجزائر، ويستمر حتى العام 1902 رئيساً للحزب المناهض للسامية.

1901– في مارغريت، مستوطنة صغيرة، مجموعات من الفلاحين الثائرين يبثون الرعب بين المستوطنين.

1911– مئات من وجهاء المدية يرفعون عريضة إلى مجلس النواب من أجل تحسين أوضاع المسلمين، الذين أصبحوا خاضعين للخدمة العسكرية الاجبارية. ونتيجة للمطالبات يتم إدخال سبعة

وثمانون ألفاً وخمسمائة جندي إلى السلك العسكري من أصل مائة وثلاثة وسبعين ألف جندي من السكان الأصليين شاركوا في المعارك.

1914– الأول من أغسطس، الأمر بالتعبئة العامة يثير بقوة المناطق في الجزائر، ويسقط في المعارك أكثر من خمسين ألفاً من السكان الأصليين، واثنين وعشرين ألفاً من الفرنسيين الجزائريين.

1919– قانون كليمنصو (الذي أعلن من العام 1915، كان في البداية أكثر جرأة، إنما أجّل تنفيذه لغاية انتفاء معارضة تدخل المجلس الأعلى في الجزائر)، وهو منح الجنسية الفرنسية لعدد قليل من الجزائريين من المؤيدين للفرنسيين.

نوفمبر، الأمير خالد، الابن الأصغر لعبد القادر، يحقق انتصاراً في الانتخابات البلدية في الجزائر، حيث اكتسحت لائحته جماهير السكان الأصليين وبعد تدخل رئيس لائحة منافسة، الطبيب بلقاسم بن تامي، يقوم مستشار محافظ ولاية الجزائر بإلغاء نتائج الاقتراع بحجة أن المتنافسين الخالديين انتهكوا المبادئ العلمانية للجمهورية بمرافعات مرابطية! نفي الأمير العام 1923.

1929– الجمعية التأسيسية للحزب الأول المستقل بشكل كامل، «نجمة شمال افريقيا». في العام التالي أسس بمبادرة من فرحات بلعباس اتحاد المنتخَبين الجزائريين، والذي يقوم برنامجه على التساوي في الحقوق والواجبات بين سكان المستعمرات أياً تكن جذورهم وديانتهم.

1930– مئوية غزو الجزائر. في تونس والجزائر وبحضور الرئيس غاستون دوميرغ، أقيمت احتفالات باذخة تؤكد على السلطة الكولونالية المطلقة شمال أفريقيا.

1931– بما أنه كان بالنسبة لفرحات عباس «لا وجود للوطن الجزائري» أسس الشيخ بن باديس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي كان شعارها «العربية لغتي، والجزائر وطني والاسلام ديني».

1934– أحداث خطيرة بين الطائفتين المسلمة واليهودية في القسنطينة: 27 قتيلاً، وتدخل الجيش وفرض حظر التجول.

1936– إنشاء الجبهة الشعبية.

يونيو، اندماج بين اتحاد المنتخَبين وجمعية العلماء لتأسيس المؤتمر الإسلامي الجزائري.

نوفمبر، «مشروع فيوليت» المدعوم من قبل ليون بلوم الذي يسعى إلى دمج أفضل للجزائريين في الجمهورية، والذي يواجه برفض كبير من قبل معظم المستوطنين.

1940– إبطال مرسوم كروميو 1870. ثم إعادة العمل به مع زيارة ديغول للجزائر.

1942– الإنزال البريطاني – الأمريكي في مدينة الجزائر.

1943– مايو، وصول الجنرال ديغول، الذي أعلن بسرعة عن إصلاحات في الجزائر: فتح الباب بشكل أوسع أمام إعطاء الجنسية الفرنسية وحقوق التصويت، وفي مرحلة ثانية لكل الجزائريين ما فوق الواحد والعشرين عاماً (خطاب القسنطينة).

1945– الثامن من يونيو في سطيف وقالمة وقسنطينة، تظاهرات تقمع بقوة وتوقع آلاف الضحايا. هذه الأحداث التي وقعت في اليوم نفسه الذي كانت تحتفل فيه أوروبا بالنصر على النازية، ولدت وعياً اكبرمن ذي قبل لدى الأجيال الجديدة.

1946– أبريل، فرحات عباس يؤسس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، ومصالي الحاج «حركة انتصار الحريات الديمقراطية».

1947– يقرّ مجلس النواب قانون إنشاء مجلس جزائري تشريعي يتكون من 120 عضواً تشكله جماعتان. وهو القانون الذي لاقى رفضاً جماعياً من قبل النواب المسلمين الجزائريين.

1954– مارس تأسيس «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» والتي كان هدفها التحضير للانتفاضة المسلحة. وبضمها في الخريف قيادات من الحركة الوطنية، أصبحت في نوفمبر ما يعرف بـ»جبهة التحرير الوطني».

ليل 31 أكتوبر، الأول من نوفمبر، سلسلة من الاعتداءات ضد المؤسسات العامة. وفي اليوم التالي اغتيال مدرس شاب وقائد في منطقة باتنة: «يوم عيد جميع القديسين الدموي» الذي أعلن انطلاق النضال المسلح من أجل الاستقلال. فرنسا تحل «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» وتعتقل العديد من القادة الوطنيين.

1955– يناير الوضع في الجزائر يسبّب أزمة سياسية في فرنسا، إذ رفض مجلس النواب إعطاء الثقة لبيار مندِس فرانس وفضل إدغار فور. جاك سوستيل، الحاكم العام الجديد يصل إلى الجزائر مع ثلة من الإصلاحات التي عارضها معظم المستوطنين.

في الجزائر تكثفت الاعتداءات (123 قتيلاً في فيليبفيل) وعمليات القمع
تحصد أكثر من ألف من الضحايا. اعلان حالة الطوارئ في
أبريل وانتقال الأزمة الجزائرية إلى الأمم المتحدة.
1956 فبراير، في حين تم استدعاء سوستيل إلى باريس، تم استقبال الجنرال
كاترو، المعين في وزارة الجزائر الجديدة، بالغضب وبقذف كل
أنواع الخضار في وجه الزائر الجديد: إنه «يوم الطماطم».
استقالة كاترو الذي خلفه لاكوست.
زيادة عديد القوات العسكرية إلى أكثر من أربعمائة ألف عنصر في الصيف.
مفاوضات سرية مع جبهة التحرير الوطني في دول ليست
أعضاء في الاتحاد الاوروبي، قطعت بعملية اختطاف طائرة
قادة الثورة بن بلة، آيت أحمد، بوضياف، خيذر، لشرف في
22 أكتوبر، مما أدى إلى إضراب عام للتجار المسلمين.
1957– يناير ومرة اخرى في الربيع، سلسلة من الاعتداءات في المقاهي
في مدينة الجزائر وكازينو لا كورنيش، والتي رد عليها مظليو
الجنرال ماسو بعنف. بدء التوقيفات الاعتباطية، والتعذيب
والإعدامات السريعة في العاصمة.
1958– الثامن من فبراير الطيران الفرنسي، ورداً على عمليات هجوم
انطلاقاً من الأراضي التونسية، يقصف القرية الحدودية ساقية
سيدي يوسف. ردة الفعل الكبيرة تؤدي إلى تدويل الصراع.
13 مايو، تظاهرة شعبية دعماً لفرنسا أمام مبنى الحاكم العام في الجزائر.
يوم «الصداقة» يبدأ بنهب المبنى وإحراق المكتبة.
4 يونيو، الجنرال ديغول رئيساً للوزراء مدعوماً بكامل سلطات رئيس

الجمهورية، يزور الجزائر ويطلق خطابه الشهير: «لقد فهمتكم!».

19 سبتمبر، جبهة التحرير الوطني تعلن إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تحت قيادة فرحات عباس.

3 أكتوبر، من القسنطينة، يعلن ديغول، وبأمل إعادة إطلاق العملية السياسية والإدارية، خطة خمسية لإجراء تغييرات عميقة.

1959 الثامن من يناير، الرئيس رينيه كوتي يخلي كرسيه لديغول، وتعيين ميشال دوبريه رئيساً للحكومة. الجنرال ديغول وبول دلوفرييه يتكفلان كل في مجاله بإيجاد حل للأزمة الجزائرية.

في الخريف، تعلن الحكومة الجزائرية المؤقتة استعدادها للتفاوض. ديغول يعد الشعب الجزائري باستفتاء لتقرير المصير وهو ما قوبل برفض شديد من قبل مؤيدي الجزائر الفرنسية، أدى استفحاله إلى استدعاء الجنرال ماسو إلى فرنسا. دعم محدود لاقتراح باستقلال الجزائر في الأمم المتحدة.

1960- يناير، «أسبوع المتاريس». الجيش المقسوم التحق بوقت متأخر برئيس الجمهورية. ديغول يقصي شال المتهم بالخداع.

يونيو ، محادثات ميلون تتوقف بشكل مفاجئ.

1961- استفتاء يعطي ديغول الصلاحية الكاملة لحل الصراع بشكل عاجل والحكومة الجزائرية المؤقتة تعلن استعدادها للتفاوض. انقلاب الجنرالات شال وزيلر وسالان وجوهاد (21 ابريل) وضع الجمهورية في خطر ويؤدي إلى عودة الاعتداءات. محادثات في إيفيان ولوغرين، تنطلق بصعوبة في مايو، وتؤجل مراراً.

سالان على رأس «منظمة الجيش السري».

1962 – تصاعد الاعتداءات على جبهتي المتوسط. الرأي العام الفرنسي، التعب من الحرب والمصدوم بدموية منظمة الجيش السري يؤيد سلاماً فورياً.

مارس، المؤتمر الثاني في إيفيان والذي يؤدي في النهاية إلى اتفاق بين حكومة الجزائر المؤقتة والحكومة الفرنسية. توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار ولكن منظمة الجيش السري تصعد عملياتها.

في السادس والعشرين، يطلق الجيش النار على حشود أوروبية تتظاهر في شارع إيسلي في الجزائر.

الثالث من يوليو، اليوم الأول من الاستقلال الجزائري. فرنسيو الجزائر، بأغلبيتهم العامة، يغادرون الجزائر.



نبذة عن المترجمة:

ولدت ضياء حيدر في جبيل، لبنان. درست الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية. وعملت في الصحافة اللبنانية بين عامي 1996 و2005، قبل أن تنتقل للعمل والعيش في الإمارات، حيث تعمل في مجال الترجمة والصحافة الإلكترونية. لها في الترجمة: "سلاحف بولِيلنغا"، "في بلاد تيتو"، "زيبولين الصغيرة جداً"، وغيرها.

كرزات إيفرحونن

لم يتبق من نساء إيفرحونن ولا حتى امرأة واحدة، فكلّ من تقدم، نال طلبه، ربما ليس الجميع، كان هناك من تأخر، مثل الموسيقيين الذين كانوا ينفخون في الآلات النحاسية أو يقرعون على الصناديق تلبية لرغبة الجنرال، وآخرون من أمثال حملة الرايات، والممرضين، والطهاة، وعمال السخرة، الخفر الذين يحرسون المؤن أو قطيع المسنات، والجرحى والموتى، كل هؤلاء كان عليهم أن يمروا على النساء، سيتم تعويضهم مرة أخرى، حتى الموتى، لمَ لا؟ وحتى المشاة والخيالة، جنود القطار، الرجال المكلفون بنقل حمولات العربات، وأولئك الذين ينقلون المؤن أو يحضرون الخيم للضباط، الطهاة، المساعدون والحراس، وكلاء النقل، هل يحتجّ هؤلاء؟ سيتمّ تدبير مناسبة أخرى لهم، يمكن أن يجلبوا إلى الحصن الوطني مجموعة من النسوة من القصبة في الجزائر أو من بجاية، وسيشاركون في الاحتفال وسيكون لديهم متسع أكبر من الوقت، ولكن لن يكون لذلك الطعم نفسه.



المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة







9 789948 018568